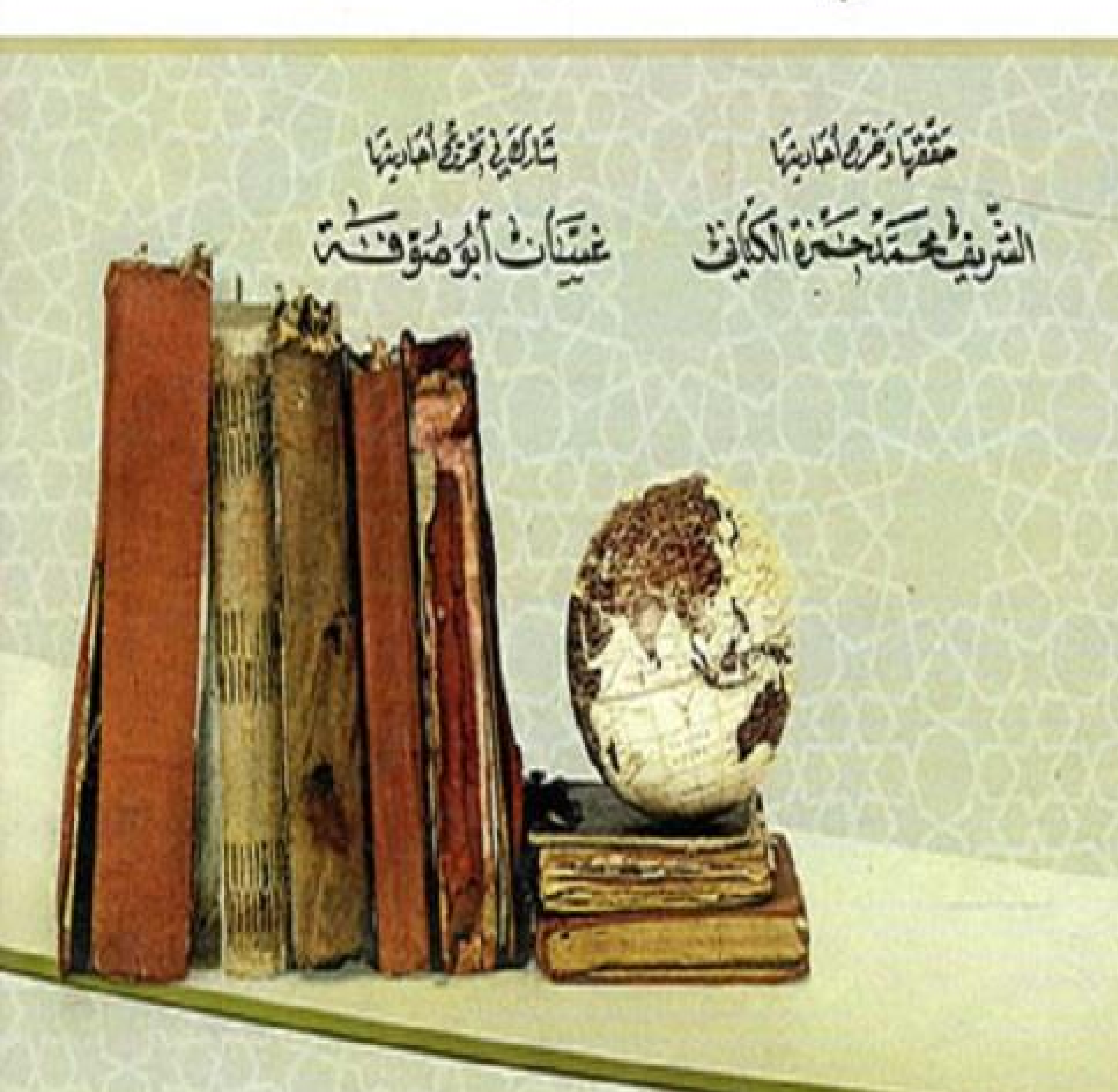
النفائس الكتانية 1 - 11

من رسائل الإمام محمد بن عبد الكبير الكتاني

11 رسالة في الآداب والسلوك



حققها وخرج أحاديثها
الشريف محمد حمزة الكتاني

شارك في تخريج أحاديثها
غسان أبو صوفة



النفائس الكتانية
١ - ١١

من رسائل الإمام محمد بن عبد الكبير الكتاني

١١ رسالة في الآداب والسلوك

حققها وخرج أحاديثها
الشريف محمد حمزة الكتاني

شارك في تخريج أحاديثها
غسان أبو صوفة



BOOKS - PUBLISHER
كتاب - ناشرون
بيروت - لبنان

MIN RASĀ'IL AL-IMĀM
MUḤAMMED BEN 'ABDULKABĪR AL-KITTĀNĪ

من رسائل الإمام
محمد بن عبدالكبير الكتاني

Author : *Al-Imam Mohammed ben Abdulkabir Al-Kitani*

المؤلف : الإمام محمد بن عبدالكبير الكتاني

Editor : *Al-Sharif Mohammed Hamza Al-Kitani And. Ghassan Abu Soufa*

المحقق : الشريف محمد حمزة الكتاني
وغسان أبو صوفة

Classification : *Islamic Manners*

التصنيف : آداب وسلوك إسلامية

Year : *1438 H. - 2017 A.D*

سنة الطباعة : ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

Pages: *336*

عدد الصفحات : ٣٣٦

Size : *17 × 24 cm*

القياس : ٢٤ × ١٧ cm

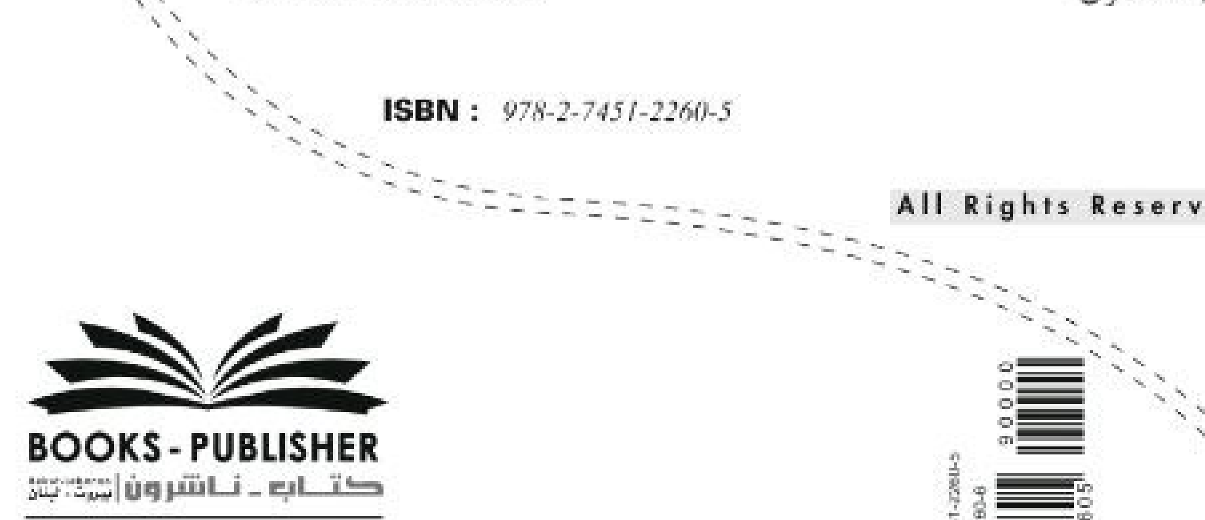
Printed in : *Lebanon*

بلد الطباعة : لبنان

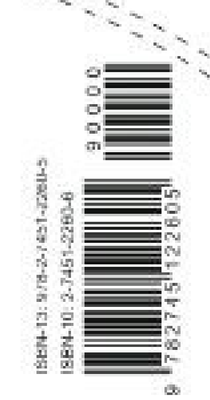
Edition : *First edition*

الطبعة : الأولى

ISBN : *978-2-7451-2260-5*



Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Hout Street,
Katerji Building, First Floor, Beirut-Lebanon
Tel :+961 76 944 855-P.O.Box: 11- 374 Riyad Al-Solah
E-mail: books.publisher@hotmail.com



من رسائل الإمام

محمد بن عبد الكبير الكتاني

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديمٌ
لمجموعة الرسائل للإمام أبي الفيض الكَتاني
بقلم: الشريف حمزة الكتاني

الحمد لله وحده، وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا ومولانا محمد وعلىٰ آله وصحبه.

وبعد، فهذه مجموعةٌ مباركةٌ من رسائل مجدِّد الإسلام في القرن الرابع عشر، حجة الإسلام الإمام الحافظ المجتهد الشريف أبي الفيض محمد بن عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد الكَتاني الإدريسي الحسني، أجعلها فاتحة لسلسلة من مؤلفاته ورسائله التي تربو على ثلاثمئة وأربعين كتاباً ورسالة، ما بين مجلدات ووريقات.

ولطالما كنت أرىٰ هذه المؤلفات مطبوعةً بالطبعة الحجرية القديمة، أو مخطوطة بعضها معرض للتلف، فأحزن لذلك كثيراً، وأنسخ بعضها بيدي حفاظاً عليها، خصوصاً المؤلفات التي أثرت عليها نوائب الزمان، فكنت أمكث الساعات في استخراجها وانتساخها.

ولطالما تجولت في مكتبة جدي والد والدتي شيخ علماء الرباط وسَلا الإمام العلامة أبي هريرة عبد الرحمٰن بن الإمام المصلح محمد الباقر بن الشيخ

محمد بن الشيخ عبد الكبير الكتاني، وتصفحت كتب الإمام أبي الفيض المذكور رضي الله عنه، وصورتُها وحافظتُ عليها، وقرأت ترجمة مؤلفها بلهف وتمعن، وبالأخص ما ألفه نجلُه الشيخ أبو الهدىٰ محمد الباقر رحمه الله تعالىٰ من المؤلفات في ترجمته وذكرِ مآثره.

وقد يسر الله تعالىٰ لي أن تعرفت علىٰ صديقٍ وفي، وهو الأستاذ غسان أبو صوفة، ففاتحته بمسألة تحقيق بعض الرسائل للشيخ رضي الله عنه، فوجدت منه إقبالاً واستعداداً لذلك، وبالفعل قام بالعناية بها على وجهٍ حسن. ويسّر الله بعدَ ذلك تبني لجنة النشر بدار الرازي لذلك، فحمدتُ الله تعالى أن يسر أمنيتي في طباعة بعض آثار هذا الإمام المجدد الكبير، وذلك لفوائد منها:

(١) أن الإمامَ جامعٌ بين علميَ الشريعة والحقيقة، أي التصوف، وقد ملأ كتبه بهذه المعاني التي اندثرت منذ أزمان.

(٢) أن المؤلف رضيَ الله عنه قام بحركة تجديدية علىٰ جميع النطاقات، علمياً ودعوياً وجهادياً وسياسياً، خلدت مآثره علىٰ صفحات التاريخ، فكتاباته تعتبر توجيهاً وإرشاداً إلىٰ الأجيال التي أتت بعده وتأتي، في اقتفاء نهجه واتباع إرشاداته.

(٣) أن الناس في هذا الزمان الذي تكالبت فيه الرزايا علىٰ الأمة الإسلامية بكل أنواعها وألوانها، في حاجة إلىٰ تجديد علمي منهجي علىٰ جميع النطاقات، بإرشاد إمام علىٰ قدم أئمة السلف الصالح رضيَ الله عنهم، بعيداً عن النزاعات الناتجة عن الجهالة والعمىٰ، والتي كانت نتيجة ردح من الزمان عمه الجهل والفوضىٰ، وبعيداً عن فلسفات الحركات التي بينها وبين العلم كما بينها وبين النجاح، في هذا العصر.

❋ ❋ ❋

موضوع هذه الرسائل

ولقد اخترنا في أول مجموعة أن تكون خاصةً بالسلوك ومنهجية تربية النفس وإقناعها فلسفياً بسلوك الطريق إلىٰ الله تعالىٰ، والمؤاخاة بين المسلمين، والتنبيه علىٰ أسباب تفرقهم وانكسار شوكتهم في هذه الأزمان المتأخرة.

والسلوك من أهم الواجبات التي أوجبها الله تعالىٰ على بني آدم، بل بعد عبادته تعالىٰ هو المراد من الشريعة.

والسلوك هو ما اصطُلح عليه عند المتقدمين بالتصوف، نقل الإمام أبو العباس أحمد بن أحمد زروق البُرْنسي الفاسي في مقدمته في التصوف:

ولَستُ أمنح هذا الاسمَ غيرَ فتىً   صفا فصُوفِيَ حتىٰ سُمِّي الصُّوفي[1]

والصوفي: هو عالمٌ عمل بعلمه علىٰ وجه الإخلاص، وإن لم يكن له علم فرجل اتبعَ وتأدّب بأخلاق عالمٍ عمل بعلمه علىٰ وجه الإخلاص، وهو المصطلحُ عليه بشيخ التربية، ويُشترط فيه ـ أي: شيخ التربية ـ أن يكون ريّانَ من العلم، والعمل به، ومعرفةِ دقائق النفس ومنازع الشيطان فيها، واستدلوا علىٰ وجوب شيخ التربية بأدلةٍ كثيرة: من الكتاب: كقصة موسىٰ مع الخضر عليهما السلام، والسنة: كقوله ﷺ: «إنما العلم بالتعلّم والفقهُ بالتفقه»، وقوله ﷺ: «خذوا عني مناسككم»، وفعل الصحابة مع رسول الله ﷺ، ثم بإجماعِ وفعل السلف الصالح الذين هم القدوة في كل أمرٍ مُذْلَهم، حيثُ ثبت عن

---

(١) وهو من أبياتٍ مشهورةٍ منسوبةٍ لأبي الفتح البُسْتي في تعريف الصوفي. الناشر.

جميعهم ملازمةُ شيخ علمٍ وتربية، وتعلمهم من أخلاق شيوخهم وتربيتهم قبل علمهم، كما قال الإمام عبد الواحد بن عاشر الفاسي:

يصحبُ شيخاً عارفَ المسالِكْ　　　يقِيهِ في طريقِهِ المهالِكْ

والطريقة الصُّوفيةُ: هي الاتِّباعُ الحقُّ للكتاب والسنة، فمن زاغَ عنهما فليس من التصوف في شيء، وليس له فيه ناقة ولا جمل.

ومن يدعي حُبَّ الرسولِ ولم يكن　　　بسُنته مستمسكاً فَهْوَ كاذبُ

علامةُ صدقِ المرء في الحُبِّ أن يُرىٰ　　　علىٰ سَنَنٍ كانت عليها الحبائبُ

ولما كان مبدأ التصوف هو مراقبةَ الله تعالىٰ في السر والعَلَن وكل الأمور، صار لفظُ التصوف علماً علىٰ مقام الإحسان الذي هو كما في «صحيح مسلم» (رقم ٨): «أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وهذه المعاني هي التي سُخِّرت لها هذه الرسائل التي من دقَّقَ نظره فيها وشارَكَ بقريحته وذهنه في تأملها؛ وجدها علىٰ صغر حجمها كافيةً شافية، مبلغةً الكثيرَ من المراد، باباً إلىٰ ما بعدها.

يزيدكَ وجهُهُ حُسْناً　　　إذا ما زِدْتَهُ نظراً

* * *

ترجمة المؤلف[١]

هو مجدد الإسلام، ومرشد الأنام، وشيخ السنة وحامل لواء الفكرة الإسلامية ديناً ودولة، وناشر بنود السلام في جل بلاد المغرب، وبعض بلاد المشرق، وباعث الحياة في قلوب مئات الآلاف من المسلمين، والمجاهد الأمين الذي بنىٰ لله تعالىٰ ما يناهز مئةَ مسجد، ولم يضع لنفسه ولا لأولاده لبنةً علىٰ لبنة، والشهيد الخالد الذي قاوم الاستعمار بنفسه وعائلته وطريقته مقاومةً عنيفةً بقيت مضرب الأمثال، وستبقىٰ كذلك علىٰ ممر القرون والأجيال، الحافظ المحدِّث المفسِّر الفقيه المجتهد الختم الأحمدي العارف بالله أبو الفيض محمد بن جبل السنة والدين الإمام الحافظ عبد الكبير بن الإمام العارف أبي المفاخر محمد بن العارف الصالح عبد الواحد الإدريسي الحسني الكتاني الفاسي.

* ولادته ونشأته:

ولد رضيَ الله عنه في منتصف ربيع الأول عام ١٢٩٠ هجرية، وتربىٰ في كَنَف والده ووالدته اللذَين لم يألُوَا جهداً في تربيته وتوجيهه الوجهة الصائبة.

وقد دخل الكُتَّاب صغيراً وحفظ القرآن الكريم وهو دون الحلم، ثم حفظ مهمات المتون، وكان ذهنه حاداً، ونظره دقيقاً، وحافظتُه قوية.

ومما ساعده علىٰ النبوغ المبكر: بيئتُه العائلية التي كانت تزخر بعدةٍ من أئمة العلم وتلاميذهم الفحول.

---

(١) جميع المعلومات الموجودة في هذه الترجمة مستقاةٌ من المراجع المذكورة في نهاية البحث، خاصة «ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد» لمحمد الباقر الكتاني، ولذلك لم أثقل الهوامش بالعزو إليها.

فوالدُه هو جبل السنة والدين الإمام الحافظ الفقيه المجتهد الذي كان يستحضر أحاديثَ الكتب الستة كأصابع يديه، المفسِّر الكبير والعارف الشهير أبو المكارم عبد الكبير المتوفىٰ عام ١٣٣٣هـ.

ووالدتُه هي السيدة العالمة المربية العارفة الصالحة فضيلة بنتُ الشيخ إدريس بن الطائع، الشريفة الكتانية الإدريسية الحسنية المتوفاة عام ١٣٣٤هـ.

وجدُّه لوالده هو الإمام العارف الكبير رائدُ النهضة الحديثية والأثرية في المغرب أبو المفاخر محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الواحد الكتاني المتوفىٰ عام ١٢٨٩هـ.

وجدُّه لوالدته هو العالم العلامة المجاهد الغازي المدرِّس العَدْل العارف أبو العلاء إدريس بن الطائع بن إدريس الكتاني المتوفىٰ عام ١٢٨١هـ.

وخالُه هو شيخ الإسلام في المغرب الإمام أبو المواهب جعفر بن إدريس الكتاني المتوفىٰ عام ١٣٢٣هـ.

ونجلُ خاله شيخُ حفّاظ وعلماء عصره شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني المتوفىٰ عام ١٣٤٥هـ[١].

وغيرهم من العلماء العاملين من أهل بيته وبيئته التي كانت تزخر بالعلم والعمل.

فنشأ وترعرع بينهم، وكان يحضر ما لا يقل عن عشرة دروس في اليوم، فيخرج من الفجر إلى جامع القرويين ولا يعود إلا بعد المغرب، وكانت الكعكة التي تعطيه أمه تبقىٰ في جيبه الأيام أحياناً ولا يأكلُها التهاءً بالعلم.

وحكىٰ عنه الإمامُ أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الحاجّ السُّلَمي ـ المتوفىٰ عام ١٣٦٤ هـ ـ أنه كان يقرأ الكتابَ ذا المجلدات في ليلةٍ واحدةٍ فلا يذهب عن ذهنه شيءٌ منه بعد ذلك.

---

(١) جميع المذكورين أفردوا بالترجمة بتصانيف خاصة.

وكان يحمل في حقيبته الكتبَ الكثيرة، حتىٰ كان شيخُه الإمام أبو عبد الله محمد بن التهامي الوزّاني ـ المتوفىٰ عام ١٣١١هـ ـ يقول له: هلاّ أتيتَ بحمارٍ يحملُ لكَ حقيبتَك!

كما كان من قبل احتلامه مواظباً علىٰ الأذكار والصلوات، ومواظباً علىٰ الهَيْلَلَة سبعينَ ألفَ مرة في اليوم، ولفظة «سيدنا محمد ﷺ» ستين ألفَ مرةٍ في اليوم وختمة في القرآن يومياً، إلىٰ أن فاجأه الفتحُ الأكبر وسُكِبَت العلومُ فيه سَكْباً.

ولم تمض عدة سنوات حتى نبغ في كثيرٍ من العلوم، المنطوق منها والمفهوم، ورُزِقَ التبحّر في: علم التفسير وأدواته، وعلم السنة واصطلاحاته، ودقائق هذَين العلمَين، والأصول والكلام، والفقه حتى بلغ فيه الاجتهاد، وفلسفة التشريع، والتاريخ والسيرة، والأنساب، واللغة، والمعاني والبيان، والحكمة، والمنطق، والعلم الطبيعي والإلهي، وعلم الهندسة، والعلم الأرتماطيقي، وعلم الهيئة، والتصوف الذي هو السلوك والرقائق والمعارف اللدنية، وعلم الحروف، وغير ذلك[1]. فكان كما قيل:

إذا كان عَونُ اللهِ للمرء ناصراً ... تهيّا له من كل صعبٍ مُرادُهُ

* شيوخه:

أخذ عن جملةٍ من شيوخ وقته؛ فمنهم:

(١) والده الشيخ أبو المكارم عبد الكبير الكتاني، أخذ عنه التفسير بابن جرير الطبري والجلالين، والحديث بصحيح البخاري مراتٍ كثيرة، وصحيح

---

(١) بل قال في بعض رسائله وهي: «الفص المختوم في تفسير سورة الضحىٰ»: «لا يكون العارف عندي عارفاً حتىٰ يحيط بخمسة آلاف علم علىٰ الأقل».

مسلم وشمائل الترمذي وشفا عياض، والفقه بمختصر خليل[1]، وكان يراجع عليه أكثر من عشرين شرحاً، ونظم ابن عاشر، والتصوف بـ«الفتوحات المكية»، و«عوارف المعارف»، و«المجالس المكّية» لأبي حفص الميانشي المكي، و«إحياء علوم الدين» للغزالي، و«عهود» الشعراني و«مِنَنِه»، وحِكَم ابن عطاء الله، و«الإبريز» لابن المبارك اللَّمْطي، الكل بالزاوية الكتانية.

(٢) خاله الشيخ أبو المواهب جعفر الكتاني أخذ عنه الحديث بصحيح البخاري والفقه بمختصر خليل، وعلمَي الكلام والسير.

(٣) ابن خاله أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتاني، أخذ عنه السير بشمائل الترمذي، و«دلائل الخيرات» بشرح العلامة المهدي الفاسي، والنحو بالألفية في القرويين.

(٤) العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن التهامي الوزّاني الإدريسي الحسني، أخذ عنه الحديث بالبخاري، والفقه بمختصر خليل بشرح الخُرَشي والزُّرقاني وحاشية البناني، والتحفة[2] بشرح الشيخ التاودي ابن سودة، والنحو بالألفية بشرح المكّودي، والمحاذي لابن هشام وشرحه للأزهري، والمنطق بسُلّم الأخضري بشرح البناني، والبيان بمقدمة «التلخيص» شرح سعد الدين التفتازاني بالقرويين.

(٥) الشيخ العلامة الإمام شيخ الجماعة أبو عبد الله مُحمد بن قاسم القادري الحسني المتوفىٰ عام ١٣٣١هـ، أخذ عنه الحديثَ بصحيح البخاري، والسِّيَر بشمائل الترمذي بشرح جَسُّوس، وحاشيته هو علىٰ الشرح، والأصولَ

---

(١) مختصر خليل في مذهب المالكية هو أكبر متنٍ فقهي مختصر، بلغت مسائله الفقهية مئة ألف مسألة ظاهرة، وأخرى مستنبطة، قال العلامة محمد بن الحسن الحَجْوي في كتابه «الفكر السامي» (٤:٧٨): «وإنما ذلك تقريبٌ، وإلاَّ ففيه أكثر من ذلك بكثير».

(٢) تحفة الحكّام للإمام ابن عاصم في أحكام القضاء، وشرح الإمام أبي عبد الله التاودي على التحفة أسماه: «حُلَىٰ المعاصم لفكر ابن عاصم»، وهو مطبوع. الناشر.

بجمع الجوامع بشرح المحَلِّي وحاشية البناني، مع تلخيصه مباحث الآيات البينات[١]، وكان يقرر في الدرس تعاليقَه التي كتبها رحمه الله على المحلِّي، وذلك بالقرويين، والكلامَ بصغرى الصغرى للسنوسي، وشرح الشيخ الطيِّب ابن كِيْران على توحيد «المرشد المعين» وحاشيته هو عليه، وذلك بالزاوية القادرية.

(٦) الإمام المؤرِّخ الفقيه أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السَّلَاوي صاحب «الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصا» المتوفى عام ١٣١٥هـ، أخذ عنه الفقه بعباداتِ «المختصر» وشرحه للدردير بالقرويين.

(٧) الإمام الفقيه شيخ الجماعة أبو العباس أحمد بن محمد ابن الخياط الزكَاري الإدريسي الحسني المتوفى عام ١٣٤٣ هـ، أخذ عنه السيرَ بشمائل الترمذي بشرح جَسُّوس، والأصولَ بجَمع الجوامع بشرح المحَلِّي وحاشية البناني، وكان يقرأ تقاريرَه التي كتبها هو على المحلِّي والبناني بالقرويين.

(٨) الإمام العلامة أبو محمد التُّهامي بن المدني كـنُّون المتوفى عام ١٣٣١هـ، أخذ عنه الفقهَ بثلثَي «المختصر» بالخُرَشي والزَّرْقاني وحاشية البناني عليه بالقرويين.

(٩) العلامة الحافظ الشيخ أبو محمد عبد الهادي بن أحمد الصقلي الحسيني المتوفى عام ١٣١١هـ، أخذ عنه السِّيَر بهمزية البُوصِيري، وشرحِها لابن حجر الهيتمي[٢] بالقرويين.

(١٠) الشيخ العلامة أبو محمد عبد الله بن حَمْدُون البناني المدعو: فرعون النحوي. المتوفى عام ١٣٠٧هـ، أخذ عنه النحوَ بالألفية، وشرحِها للمَكُّودي بخلوة القرويين.

---

(١) للإمام ابن قاسم العبادي، وهو حاشيةٌ على شرح جمع الجوامع، مطبوع في مجلدين. الناشر.

(٢) المسمَّى بـ «المِنَح المكّية في شرح الهَمْزية»، وهو مطبوع. الناشر.

(١١) العلامة الكبير أبو محمد عبد العزيز بن محمد البناني المتوفىٰ عام ١٣٤٧هـ، أخذ عنه العلومَ الاثنَي عشر بقانون اليُوسِيّ، والمنطقَ بالسُلَّم وشرح البناني وحاشيته لقصّارة.

(١٢) العالم الشيخ أبو عبد الله محمد الريفي الفاسي، أخذ عنه التوقيتَ، والحسابَ، والهيئةَ، والنجومَ، والفَلَكَ، برسالة المارديني الشهيرة. وغيرهم.

وكان من علو همته يطالع علىٰ الدرس كتبَ المتقدمين في ذلك الفن، وكان والده يسميه بالفقيه لشدة استغراقه في حقبة الدراسة بعلوم الآلة.

وبعد جهاده النادر في الدراسة اعتكف علىٰ مطالعة الكتب النادرة في مختلف الفنون والعلوم، فكانت أول أعماله صباحاً وآخرَها مساءً.

وأما تلقِّيهِ لعلم التصوف فكان علىٰ يد والده الذي أحيىٰ الحقائقَ ووَطَّدَ الطرائق، وجدَّدَ رَسْمَ القوم بعدما كاد يَخْبُو، وأبانَ معالمَ التصوُّف بعدما أشرفَ جواد سوابقه أن يكْبُوٍ، قدَّسَ الله سِرَّه، فعلىٰ يده تربىٰ وقطع عَقَبات السلوك، علىٰ نمط أهل التصوف الإسلامي، ومنه استفاد ما لا يُعدُّ ولا يُحصىٰ من فوائد شيوخ التصوف الحقيقيين الذين اجتمع بهم في رحلاته العديدة بالمشرق والمغرب، تلك الرحلات الواقعة في القرن قبلَ الماضي، والتي كان لها أثرٌ كبيرٌ في ربط المغرب بالمشرق، وهو الذي لَقَّنَه عدةَ أورادٍ كانت سبباً في إشراق قلبه بالإمدادات الإلهية والفيوضات المحمّدية؛ وبعد ذلك كان تلقيه من الحضرة النبوية، كما قال في تائيته الشهيرة:

أتينا بغزل الفتحِ من حضرة الغِنىٰ	بـإذن رسـولِ اللهِ شيخـي وعُمـدتـي
فعنـه أخـذنـا مـا تـدفَّـق جَهْـرةً	علىٰ صِغَـرِ الأجـرامِ حيـنَ شَبِيبتـي

وقد ذكر عن نفسه أنه كان يلازمُ ذكرَ سبعينَ ألفاً من الهَيْلَلة، وستين ألفاً من الاسم الشريف سيدنا محمد ﷺ وعلىٰ آله ـ كما تقدَّمَ ذكرُه ـ بتوجُّهٍ تامٍ إلىٰ

أن فاجأه الفتح، واجتمع بالنبي ﷺ يقظةً[1]، وأخذ عنه دعوته الإسلامية وطريقته الكتانية، وأذن له في الإرشاد، ودعوة الخَلْق إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ليكون مجدِّد الإسلام في القرن الرابع عشر، ويحييَ من سُنَنِ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ما اندثر، تصديقاً لما أخرجه أبو داوود في «السُّنَن» والحاكم في «المستدرك» والبيهقي في «المعرفة» وغيرهم عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله يبعثُ لهذه الأمّةِ علىٰ رأس كل مئة سنةٍ من يجدِّدُ لها دينها».

* قيامه بالدعوة والإرشاد:

قام رحمه الله تعالىٰ بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وتعليم الناس، والخروج إلىٰ البوادي والجبال من أجل ذلك، حتىٰ إنّ البربري والأعرابي الذي لم يكن يجيد ذكر الشهادتَين أصبح يحفظ القرآن الكريم ويواظبُ علىٰ الأوراد والأذكار النبوية وملازمة دقائق السنن التي لم تكن معروفةً ومتَّبعة في حواضر الأمة الإسلامية ذلك الوقت بله غيرها.

وربّاهم علىٰ الأخلاق الإسلامية المحمدية، وحفظ السُّنَن، وتعلم الفقه، والجهاد في النهار ضد المستعمر، والصيام، والقيام في الليل تهجُّداً إلىٰ الله تعالىٰ.

وانطلق الناسُ إليه أفواجاً أفواجاً في سبيل ذلك، حتى تتلمذ له بعضُ شيوخه وأبناءُ الملوك بَلْهَ مَن دونهم، وأحيىٰ في بلاد المغرب رَسْمَ الإسلام بعدما كاد

---

(١) اختلف العلماء في إمكانية الاجتماع يقظةً برسول الله ﷺ، وألف في نصرة ذلك الحافظُ السيوطي مؤلفاً مستقلاً، ونصر المترجمُ ذلك طويلاً في كتابه «خبيئة الكون»، ومن أدلة المجيزين ما صحَّ عنه ﷺ: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة»، رواه البخاري (٦٩٩٣)، واجتماعُ رسول الله ﷺ بالأنبياء في الحياة الدنيا كما في أحاديث الإسراء والمعراج، ومعلوم أنه: ما كان معجزة للنبي جاز أن يكون كرامة للولي.

يخبو، ونشرَ العلوم، وانتشر تلاميذُه وتلاميذُ تلاميذِه في شمال إفريقيا والحجاز واليمن والشام ومصر والهند وجاوا وغير ذلك من البلاد، داعين إلىٰ التزام الكتاب والسنة والشعائر المحمدية، والابتعاد عن البِدَع والأهواء والضلالات والعمالات.

حتىٰ قال فيهم شيخ الإسلام في الآستانة الشيخ محمد المكّي ابن عَزُّوز في رسالةٍ مطولةٍ للحافظ عبد الحي الكتاني: «إن في الزوايا خفايا، وفي الرجال بقايا، وإن أولئك السادات الكتانيين هم الطائفة القائمة بأمر الله ورسوله، هم العلماء بالله ورسوله وبالدين، هم المعانون من الله في أوقاتهم وكتبهم، هؤلاء الذين كلامهم أشد وقعاً علىٰ المبتدعة من مواقع المترليوز[1]، لا المكي بن عزوز...».

* ابتلاؤه بمَرّاكُش:

ولما كثر أتباعه، وفاق مشايخَه في العلوم بَلْهَ مَن دونهم، كثر حاسدوه ومُبغضوه، حتىٰ أوعزوا إلىٰ السلطان عبد العزيز بن الحسن العَلَوي الحسني ـ ملك المغرب وقتذاك ـ أنه يريد الملكَ وأنه زنديق، فاستدعاه السلطانُ إلىٰ حاضرة مراكش، وذلك عام ١٣١٤ هجرية، وأكرمه، ثم دعاه إلىٰ المناظرة مع كبار علماء الوقت، واستمرت المناظرة في شتىٰ العلوم لمدة ثلاثة أشهر، وانتهت بانكسار أعدائه وانتصاره ضدهم الانتصارَ الكبير مما هو مدوَّنٌ في كتب التاريخ، وكتبَ شيخُ الإسلام الشريف ماء العينَين الشنقيطي الإدريسي الحسني وثيقته الشهيرة في تبرئته، والتي ضمنها الملك في مرسومه الملكي بتاريخ ١٣١٤/٧/١٥هـ، وقسَّمَ مخالفيه إلىٰ ثلاثة أقسام:

١) قسمٌ حاسدون.
٢) قسمٌ لم يشربوا مشربَه.
٣) قسمٌ لم يبلغوا ما بلغه من العلم ولم يتعمقوا في علوم الشريعة.

---

(١) المترليوز: مدفعٌ رشاش كان يُستعمل في بداية القرن الهجري المنصرم في الحروب.

فكان ذلك مدعاةً لتعظيمه أكثر وأكثر في أعين العامة والعلماء والمَلِك، الذي اصطفاه بعدَ ذلك مستشاراً له.

وقد حج عام ١٣٢١، واجتمع بكبار علماء المشرق واستجازهم واستجازوه، حتىٰ إنه كان يخيط الليلَ بالنهار في كتابة الإجازات لهم، وزار الشريفَ عَوْنَ الرفيق بمكةَ المكرمةَ ونصحه، وفرحَ به الشريفُ غايةً حتى كان يقوم إجلالاً له ويقول:

قيامي للعزيز عليَّ فرضٌ　　　وتركُ الفَرْضِ أنىٰ يستقيمُ
وهل أحدٌ له عقلٌ ولبٌّ　　　ومعرفةٌ يَراكَ ولا يقومُ ؟!

ووشىٰ له البعض فيه، فقال له: اسكت يا حمار، وهل مثلُ هذا يكون كما تقول ؟!

ودرَّسَ في المسجد الحرام فترةً هو ومجموعةٌ من علماء تلاميذه، وأخذ عنه الجمُّ من الحجيج وعلماء الحجاز العلمَ والإجازةَ وطريقته الأحمدية الكتانية.

وزارَ المدينةَ المنورة علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وكان احتفاءُ أهلها به كما كان بمكةَ المكرمة.

وفي مصرَ ـ وهو في طريقه إلىٰ الحج ـ درَّس بالأزهر درساً في شرح حديث: «بُني الإسلامُ علىٰ خمس»، فأوعبه من أحدَ عشرَ مطمحاً دُهِشَ جميعُ علماء الأزهر له وبقُوا يتناقلونه أكثرَ من ثلاثين عاماً، قال الشيخ أحمد رواق الشامي في قصيدةٍ في مدحه:

والأزهرُ المعمورُ من درسِهِ　　　قد كاد من فرحٍ به أن يطير

وأخذ عنه كثيرٌ من علماء مصر وعامَّتِها الإجازةَ والطريقةَ وتتلمذوا له.

وكذلك التقىٰ بالخديوي إسماعيل، واجتمع به فتراتٍ طويلة، وحاول التنسيقَ بينه وبين الدولة العثمانية والدولة المغربية لمواجهة الهجمة الاستعمارية، غير أنّ محاولاته باءت بعد ذلك بالفشل لغَلَبة الدنيا علىٰ القلوب.

وقد دوَّنَ رحلتَه هذه العلامةُ الشيخ عبدُ السلام بن المُعْطي العَمْراني الإدريسي الحسني، وأسماها: «اللؤلؤة الفاشية في الرحلة الحجازية».

*** الرجوع إلىٰ المغرب واستشهاده:**

وفي تلك السنة وهي عام ١٣٢٢ عاد إلىٰ المغرب وكان علمَ حقَّ اليقين نيةَ المستعمر في احتلاله، فبدأ يرشد القبائلَ للجهاد وتوحيد الصف ونزْعِ ما بينها من غِل، ونَشِطَ أكثرَ في نشر العلم والمعرفة والتربية والسلوك بين الناس.

وفي عام ١٣٢٥ بعدَ أن بدأ يَدُبُّ داءُ الاستعمار في المغرب والاحتلال، وحاكمُ الوقتِ لم يكن بذلك المهتم، بل كان ذائباً في شهواته، عمل بما كان لَدَيه من نفوذ ومركز علمي علىٰ جمع علماء فاس والقضاء بخلع السلطان عبد العزيز وتولية شقيقه العالم السُّلطان عبد الحفيظ بشروطٍ اشترطها وكتبها هو بموافقة علماء المغرب ذلك الوقت، فتمت البيعةُ علىٰ شروط الشورىٰ والجهاد، وكان ذلك بتاريخ ٢/١١/١٣٢٥هـ.

وفي عام ١٣٢٦ جمع زعماءَ القبائل المغربية بمِكْناس، وعقد بينها رابطةَ الصلح والسلام والأخوة، وأن لا تطالب قبيلةٌ الأخرى بدَم ولا بغيره، وبقيت هذه الحالةُ من السلام إلىٰ الآن بحمده تعالىٰ، فلم تعدْ القبائلُ تسطو علىٰ بعضها وتحارب بعضَها لأدنىَ سبب.

ثم كان ما كان مما هو مذكور في كتب التاريخ من خذلان السلطان عبدالحفيظ ـ غفر الله له ـ لشروط البيعة وتقريبه الأجانب، ثم خذلان العلماء الذين وقَّعوا علىٰ العارضة للشيخ رضيَ الله عنه، ونصح كثيراً وما تم النصح، ثم حاولت فرنسا إغراء الشيخ رضيَ الله عنه بالمال والنفوذ من أجل أن يسكتَ عن دخولهم المغرب، وذلك عن طريق قنصلهم «كيار»، فرفضَ وجمعَ أخصَّ الناسِ من أهله وأتباعه وهرب بهم نحو الجبال للجهاد بنفسه وأتباعه، وإزالة ما شابَ الأمةَ من الظلم والهَوان.

غير أن الاستخباراتِ الفرنسيةَ كانت بالمرصاد، فأخبرت السلطانَ أنّ الشيخَ رضيَ الله عنه، أرادَ القيامَ عليه، فأرسلَ إليه جيشاً أدركه قبلَ الوصول للجبال وأرجعه علىٰ الأمان.

ثم ـ وفي قصةٍ طويلة ـ وبعدَ خذلان الأمان، عمل السلطان علىٰ جلد الشيخ رضيَ الله عنه بالسِّياط إلىٰ أن وقع شهيداً، وذلك صبيحةَ يوم الثلاثاء ١٣ ربيع الثاني عامَ ١٣٢٧، وله من العمر سبعةٌ وثلاثون عاماً، وأُخفِيَ جثمانُه رضيَ الله عنه.

قال العلامة المجاهد محمد بن عبد الكريم الخَطّابي: «فقد اقترن استشهاد هذا العالم الجليل باستشهاد أمةٍ كاملة، وهي أمة المغرب». وكان مثالُه في نهاية الأمة كمثال جده[١] الإمام الشهيد الحسين بن عليٍ عليهما السلام في بداية هذه الأمة، شهيدِ كَرْبلاء[٢].

* تلاميذُ الشيخ رضيَ الله عنه:

ترك الشيخُ رضيَ الله عنه تلاميذ كُثُراً في المشرق والمغرب كانوا أئمة التجديد علىٰ مختلف النطاقات، وأذكر منهم علىٰ سبيل الذكر لا الحصر:

---

(١) حيثُ والدةُ والده شريفةٌ حسينيةٌ من بيت الصِّقِلّي الفاسيين، فهو حسنيٌّ حسيني.

(٢) لم أتطرق لكرامات الشيخ رضي الله عنه، لأن الكرامات ليست من أصول التصوف، فالأصل الاستقامة، والكرامات إنما هي كالعَرَض بالنسبة للجوهر، بل هي في حدّ ذاتها عوارضُ في الطريق، ولذلك كان العارفون يستحيون من إبرازها كما تستحي العذراء من الحيض ـ كما قال الصوفيةُ رضيَ اللهُ عنهم ـ ولكن أشيرُ إلى أن نجلَ المصنف الإمامَ أبا الهدىٰ محمد الباقر الكتاني جمع أكثر من ثلاثمئةٍ منها في كتابٍ خاص سمّاه: «كنز البراهين المادية في كرامات المشيخة الكتانية»، ولا يزال مخطوطاً.

(١) شقيقه خاتمة الحفّاظ الأعلام وشيخَ الإسلام أبا الإسعاد وأبا الإقبال الشيخ عبدَ الحي بن عبد الكبير الكتاني صاحب «التراتيب الإدارية في الحكومة النبوية» و«فهرس الفهارس والأثبات»، وغيرها من التصانيف السائرة.

(٢) ابنَ خاله الإمام علم الأعلام أبا العباس أحمد بن جعفر الكتاني، صاحبَ شرحَي البخاري والحِكَمِ العطائية.

(٣) نجلَه الإمامَ العلامة أبا الفضل محمد المهدي الكتاني صاحب «النصيحة» في عدة مجلدات.

(٤) نجلَه ومؤرِّخَ حياته الإمامَ المجدِّدَ الحافظ أبا الهدىٰ محمد الباقر بن محمد الكتاني[١].

(٥) شيخَ الجماعة بالرباط الإمامَ محمد المكّي بن علي البَطاوْرِيّ الحسني.

(٦) الإمام أبا العباس أحمد بن محمد الفِيلالي الگـاوزي الإدريسي الحسني.

(٧) العلامة الكبير شارحَ «الجامع الصغير» أبا عبد الله محمد بن محمد بن المُعْطِي العَمْراني الإدريسي الحسني.

(٨) الإمام العلامة محمد الزمزمي بن محمد بن جعفر الكتاني مؤرِّخَ القرن المنصرم.

(٩) شيخ الطريقة الشاذلية بفاس الإمام العارف أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الفاسي.

(١٠) الشيخَ الإمامَ العارفَ الكبير أبا عبد الله محمد بن الصديق بن أحمد الغُماري الإدريسي الحسني.

---

(١) خص المترجَمَ بثلاثة مؤلفات: «بلوغ الأماني في ترجمة الشيخ محمد الكتاني» في مجلد مطبوع، و«التاج المرصع بالجوهر الفريد في ترجمة الإمام الشيخ محمد الكتاني الشهيد» في ثلاث مجلدات، و«دائرة المعارف والعلوم الكتانية» في ثماني مجلدات. علاوةً علىٰ ما جمعه له من المعاجم والأثبات، وضمنه في كتبه الخاصة بالتراجم.

(١١) شيخَ علماء الشام ومجَدِّدَ الإسلام به أبا الفضل محمد المكي بن محمد بن جعفر الكتاني.

(١٢) شيخَ علماء الحجاز الإمام أبا حفص عمر بن حمدان المَحْرِسِيّ وهو نائبه بالمدينة المنورة.

(١٣) مفتيَ الجيش العثماني العلامة محمود باشا التركي.

(١٤) علامة الحجاز الشيخ عبد القادر بن توفيق الشلَبيَّ الطرابلسي وهو نائبه في الحجاز.

(١٥) العلامة المسند الشيخ عبد الستار بن عبد الوهاب الهندي ثم المكي.

(١٦) العلامةَ بُوصيري عصره يوسفَ بن إسماعيلَ النبهاني.

(١٧) العلامة الشيخ جعفر الجاوي.

(١٨) العلامة شيخ الحنابلة بمصر أبا العباس أحمد البستيوني.

(١٩) مؤرِّخَ مِكْناس العلامة الكبير عبد الرحمٰن بن زَيدان العلوي الحسني.

(٢٠) مؤرِّخَ مَرَاكُش العلامة الكبير العبّاس بن إبراهيم.

(٢١) العلامة الكبير شارح البخاري أبا عبد الله محمد الفضيل الشبيهي الإدريسي الحسني.

وغيرهم كثيرٌ ممن ذكروا مفصّلاً في غير هذا الموضع.

* مؤلفاته:

ترك الشيخ رضي الله عنه ما يزيد عن ثلاثمئةٍ وأربعين مؤلفاً بين مجلداتٍ كبار وتصانيفَ في أوراق، وحوالي عشرة آلافِ رسالة. وقد ذكرتُ حوالي (١٦٠) مؤلفاً له في كتابي «السُّبْحة النورانية، في ذكر ألفِ من المؤلفات الكتانية، وتراجم أصحابها ذوي المزايا السامية».

أذكر منها هنا:

(١) الفتاوىٰ الحديثية.

(٢) الفتاوىٰ الفقهية.

(٣) الفتاوىٰ الصوفية.

(٤) شرح حديث الخَمِيصة المخرَّج في الصحيح، في مجلد ضخم.

(٥) أجوبةٌ عما أشكل في القرآن في جانب التوحيد.

(٦) أجوبةٌ عما أشكل في الصحيحين في جانب المقام المحمدي.

(٧) أسرار الاستعاذة، طُبع.

(٨) الأمالي في علم الأمهات، طُبع.

(٩) الأجوبة التفسيرية.

(١٠) بيان الآفات في حكم تضييع الأوقات، باللعبات المسماة بالكارطة (الشَّدَة) والضامة وما شاكلهما مما ينطبق عليه اسم المَيْسِر.

(١١) تفاسير خمسة للبسملة من علم الكلام والتصوف والحقائق والنحو.

(١٢) تشريح أسرار الشريعة في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾.

(١٣) تأليفٌ في الخشوع في الصلاة.

(١٤) تأليفٌ في الفرق بين طريقة الاجتباء وطريقة الإنابة.

(١٥) حياة الأنبياء، في مجلدَين ضخمَين يُثبت حياتهم في قبورهم.

(١٦) حديقة الجنان، أجاب فيها عن أمورٍ تنكَر علىٰ الصوفية.

(١٧) ختمة البخاري، من بضعٍ وعشرين علماً. طُبع.

(١٨) خبيئة الكون في شرح الصلاة الأنموذجية، في عدة مجلدات، طُبعَ الأولُ منها.

(١٩) الدرة البيضاء في معنى الصلاح الذي تطلبه الأنبياء.

(٢٠) رسالةٌ في أن البسملة آية من كل سورة.

(٢١) روح الفصوص في الفلسفة الإسلامية، في مجلد ضخم.

(٢٢) رسالة في أبوته ﷺ وكلُّ نبيٍ أبٌ لأمته، طُبعت.

(٢٣) الرسائل الكتانية في الهداية والإرشاد، في عدة مجلدات.

(٢٤) زبدة المرام في حكم دخول الحمام.

(٢٥) الطلاسم في الكمالات المحمدية.

(٢٦) كشف اللثام عن سر الصيام.

(٢٧) الكشف والتبيان عما خفي عن العِيان في سر آية: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾.

(٢٨) لسان الحجة البُرهانية في الذب عن شعائر الطريقة الكتانية، طبع بفاس ثم ببيروت.

(٢٩) الكمال المتلالي والاستدلالاتُ العوالي، في محاججة أهل التفريط والتغالي، وأنّ فيضانَ الربوبية والمحمدية لا ينقطع بل متتالي. طبع.

(٣٠) الاجتباء.

(٣١) الاستباقات إلىٰ حضور صلة الحق للموجودات. طبع.

(٣٢) مقدمة للشمائل الترمذية.

(٣٣) النهر المُزْبِد في شرح خطبة ميارة علىٰ المرشد، في الفقه.

(٣٤) القهرمان الأقدس.

(٣٥) القول الشافي والبيان الكافي في أن فاعلَ القبض في الفريضة غير جافي.

(٣٦) مجمع البحرين في مشروعية البسملة جهراً في الصلاة الفرضية.

(٣٧) الوصايا الكتانية.

(٣٨) السر الصمداني والفيض الحقّاني في أنّ العارف لا يُزايله الخوف ولو بعدَ دخول الجنة.

وغيرها.

*** ثناء العلماء عليه:**

كثيرٌ ثناء العلماء الأعلام رضيَ الله عنهم عليه وعلىٰ مقداره العلمي، وأذكر هنا شيئاً من ذلك:

قال الإمام أبو الحسن علي بن محمد العَدْلُوني الحسني: «ولو حضرتَ يا أخا الهدىٰ مجالسَ إمام أهل الحضرات العليا والسفلىٰ لأبهر عقلك في علم التفسير حتى تخال أن لا مفسر سواه، ولو خلي وسبيلَه:

ـ أُعيــــذُهُ بـــالـــواحِــــدْ مِـن شَـرِّ كـلّ حـاسِـدْ ـ

لبقيَ يتكلم في الآية القرآنية إذا شرع في تفسيرها حتىٰ يخرج الإمام المهدي، ولو حضرتَ وقتَ أماليه في المجالس الخاصة، بل والعامة، لرأيتَ ما لا تتأسف معه علىٰ عدم إدراك جميع من تقدمه من أهل الله تعالىٰ.

ولو حضرتَ ذكره لأسرار الشريعة لأبهجك ثم أبهتك، ثم حيرك ثم فتنك، ثم أذهلك ثم أخرسك، ولقلت: إن عيني رأت العالَمَ في وقتٍ واحد.

ولو حضرتَ في وقتٍ مزجه لعلم الأحكام بعلم الأصول، بعلم الكلام، بعلم الحقائق، لقلتَ: إن إحدىٰ لسنه ﷺ يتكلم.

قلْ ما تشاءُ فأنتَ فيه مصدَّقٌ الحبُّ يقضي والمحاسِنُ تشهدُ

ولو حضرتَ أماليه علىٰ الدوام، لحصَّنْته بوجه الله العظيم وقلتَ: إنه الكتابُ المسطور، والبحرُ المسجور، والبيتُ المعمور بأنواع العلوم والمعارف والأسرار المحمدية التي لم يبثها ﷺ لأحد سواه». اهـ باختصار.

وقال فيه شيخُ الإسلام محمد بن جعفر الكتاني الحسني في «النبذة اليسيرة» بعد ترجمة والده: «ومنهم: ولدُه الذي طبَّق ذكرُه الآفاق، وشاع صيتُه في الحواضر والبوادي وسائر الرفاق، العلامة الأبهر، الصوفي الأكبر، من تفجرت

ألسنته وأقلامه بالعلوم، وبهر بما يبديه الخصوصُ والعموم، المربي النفّاع، الكثيرُ التلاميذِ والأتباع. . .».

ومنهم شيخ الهند الإمام الشهير الشيخ محمد حسين بن تفضل حسين العمري الهندي المتوفىٰ عام ١٣٢٢، تدبَّج معه وحلاه في إجازته له بـ: «العَلَم الأوحد، الفاضل المفرَد، مالك المَلَكات، صاحب الكمالاتِ الوهبية والكسبية، البحر الخِضَم الحلاحل المُطمطم، قرة عَين الزمان، إنسان عين الإنسان، الذي يباهي بكماله الكمال، وحامت حولَ بحره العذبِ ألبابُ الرجال، العارف الشهير. . .».

وقال فيه علامة مصرَ ومفتيها الشيخ عبد القادر الرافعي: «هو من نخبة العلماء العاملين، وخيرة الأتقياء المرشدين، وقد رقىٰ أعلىٰ مراتب الكمالات، مع غزارة علم، وسعة اطلاع في المنقولات والمعقولات. . .».

ووصفه الإمام الحافظ أبو شعيب بن عبد الرحمٰن الدُّكّالي في إجازته لنجله الشيخ محمد المهدي بقوله: «الشريف الأجل، العالم الأمثل، الحافظ اللافظ، الذي كرع من بحري الشريعة والحقيقة حتىٰ ارتوىٰ، سيدي محمد بن سيدي ومولاي عبد الكبير الكتاني الحسني رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم آمين». وقال في بعض مجالسه في مراكُش ـ وكان يحضرها الجم الغفير من الناس ـ: «ما رأت عيني من يحسن دراسة التفسير كالشيخ سيدي محمد الكتاني رحمه الله، سواء في المغرب أو المشرق»، وصار يصف لهم مجالسَ المترجم في الحرم المكي حينما كان يدرس التفسيرَ به عام ١٣٢١.

وقال فيه شيخ الشافعية بالحجاز الإمام الشريف حسين بن محمد الحَبْشي الباعلوي الحسيني في إجازته لابنه المذكور: «إنه من ذوي العلوم الواسعة، والحقائق الجامعة، الذين علت همتهم، وتسامت في العلوم الظاهرة والباطنة رتبتهم، الواصل الموصل إلىٰ طريق الحق والصدق واليقين، البدر السامي

المقدار، الظاهر كالشمس في رابعة النهار، العارف بربه، المستغرق فيه بقلبه، من أرجو باتصالي به الخير، وزيادة النور والبركة ودفع الضير...».

وقال فيه مسندُ الشرق ومحدِّثه الإمام أبو الخير أحمد بن عبد الله مرداد المكي الحنفي: «من سعدي اجتماعي بغَوث هذا الوقت والزمان، خلاصة السادات الأعيان، صاحب الأسرار والعلوم الغزار، مربي المريدين، ومرشد السالكين، مخزن الفوائد واللطائف، ومعدن الحقائق والعوارف، مولانا أبي الفيض سيدي الشريف محمد...».

وقال العلامة المسند عبد الحفيظ بن محمد الطاهر الفاسي الفِهْرِي في «معجم شيوخه»: «صدرٌ من صدور عصره، عالمٌ متبحِّر، حافظٌ من حفّاظ الحديث، بصيرٌ بمعانيه وفقهِه، متمكّنٌ في علم التفسير والأصلين والكلام، متبحرٌ في التصوف، غوّاصٌ علىٰ دقائقه، خبيرٌ بأحوال أهله وطبقاتهم ومنازعهم ومذاهبهم وفِرَقهم ومشاربهم ومقاصدهم واصطلاحاتهم، قديرٌ علىٰ فك المشكلات وفَضِّ المعضلات، مثابرٌ علىٰ نشر العلم، دؤوبٌ علىٰ تقريره وتدريسه، لا يخلو وقتٌ من أوقاته من الخوض في مسائله، حرُّ الفكر والضمير، يجاهر بأفكاره ومبادئه في مؤلفاته ودروسه، مقتدرٌ علىٰ إقامة الحجة وإقناع الخصم والاستيلاء علىٰ أفكاره بما أُوتي من قوة العارضة والقدرة علىٰ البيان والبراعة في الاستدلال، مع فصاحة اللسان، وثبات الجنان، لم يبلغ أحدٌ من أهل عصره بعدَ الشيخ ماء العينين مبلغَه في إقبال الخَلْق، وبُعد الصيت، وشهرة الذكر في المشرق والمغرب...» انتهىٰ باختصارٍ وتصرُّف.

والكلام والنقول في هذا الباب كثيرةٌ جداً، ولا يغني أغلبُها عن غيره، فرحمه الله تعالىٰ ورضيَ عنه ولا حرمنا من بركاته.

* التعريفُ بهذه الرسائل:

لقد انتقينا إحدىٰ عشرةَ رسالةً من رسائل الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني، الأولىٰ: رسالة المؤاخاة، في المؤاخاة والتربية وإظهار أسباب تخلف الأمة الإسلامية في هذا العصر، والثانية: سفينة المحبة، في السلوك والتربية، والثالثة: نسخةُ من غابَ عنه المطرِب، في الفلسفة الإسلامية وإقناع النفس بالمثول بين يدي خالقها رَغَباً أو رَهَباً، والرابعة: الفرق بين الواردات الرحمانية والملكية والنفسانية والشيطانية وكلامٌ في طريقة التصرُّف، والخامسة: الرسالة إلى أهل سَلا في فضل الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ والحضِّ عليها، والسادسة: وجوب اقتران ذكر رسول الله ﷺ بذكر الله تعالىٰ وكلامٌ في وجوب التزام الأدب، والسابعة: الإجازة الطرقية وشروط وأركان الطريق، والثامنة: الوصايا الكتانية، والتاسعة: سُفُن النجاة وكُهُوف العباد، والعاشرة: الأمالي في علم الأمهات، والحادية عشرة: تائيتُه العرفانية المباركة، في المعارف والسلوك.

ونُسَخُ التسع الأولىٰ هي بخط تلميذ المؤلف شارحِ «الجامع الصغير» في عشر مجلدات وغير ذلك: الإمام العلامة المحدِّث الشريف أبي عبد الله محمد بن محمد بن المُعْطِي العَمْراني الإدريسي الحسني، وكانت في ملك عمِّ والدتي شيخ الطريقة الكتانية العلامة الداعية إلىٰ الله تعالىٰ العارف بالله أبي الأنوار مَحمد بن محمد الباقر بن محمد بن عبد الكبير الكتاني رحمه الله تعالىٰ.

ـ الرسالة الأولى:

وهي «رسالة المؤاخاة»، رسالةٌ أرسلها إلىٰ أعيان طريقته في مراكش مؤاخياً بينهم، ورافعاً من بينهم الكلفة، علىٰ شروطٍ وضعها لتتمة المؤاخاة، مظهِراً أسباب انهيار وتضعضع الأمة المحمدية، فهي رسالةٌ في السلوك والإخاء، وفي السياسة، وتعتبر وثيقةً تاريخيةً لحال الأمة الإسلامية في تلك الحِقْبة من الزمان، أي:قُبَيل الاستعمار.

أما العلماء الذين آخىٰ بينهم رضيَ الله عنه، فهم:

الإمام العلامة العارف بالله المؤلف المُجيد الشاعر الناثر أبو الحسن علي بن محمد بن عبد القادر الحسني العَدْلُوني الدِمْناتي ثم المراكشي، خليفة المؤلف في دِمْنات، ترك نحو أربعين مؤلفاً في العلم والأدب والتصوف، وكان له دورٌ مَجيدٌ ضد الاستعمار.

والإمام العلامة المحدِّث العارف الكبير أبو عبد الله محمد بن محمد بن المُعْطِي العَمْراني، خليفة المؤلف بمراكش، وأستاذ الجامعة اليُوسُفية، له مؤلفاتٌ ورسائلُ عديدة، وشعرٌ كثيرٌ في مدح النبي ﷺ ومدح المترجَمِ وعائلته، وهو شارح «الجامع الصغير» للسيوطي في عشر مجلدات، وصاحب المؤلفات الحديثية والفقهية والتربوية الصوفية النفيسة.

العلامة الفقيه النوازلي عبد السلام بن محمد بن المُعْطِي العَمْراني الإدريسي الحسني، مفتي مراكش وعضو مجلس الاستئناف الشرعي الأعلىٰ بالرباط، علامةٌ كبيرٌ مؤرِّخ داعية شاعرٌ ناثر، وهو صاحبُ «اللؤلؤة الفاشية في الرحلة الحجازية»، وهي الرحلة التي رحلها مع المترجَم.

والإمام العلامة الفقيه شيخ الجماعة[1] بمراكش أبو عبد الله محمد الصالح بن المدني العَمْراني الإدريسي الحسني السرغيني، وهو أحد نماذج السلف الصالح في العصور المتأخرة.

والعلامة الجليل العارف بالله ذو العزيمة الماضية والضمير الحي محمد خير الدين التونسي. رضيَ الله عن الجميع.

---

(١) «شيخ الجماعة» لقبٌ يُعطىٰ لمن بلغ البراعةَ في مختلف العلوم الشرعية وتلمذَ له أغلبُ علماء بلده، وهي نفسُ رتبةِ «شيخِ الإسلام» في المشرق.

ـــ الرسالة الثانية:

وهي «سفينةُ المحبة»، في السلوك، والتزكية والتربية، ألّفها لجمعية القلب علىٰ الله تعالىٰ، وجعل لها أربعَ زوايا:

- الزاوية الأولىٰ: في الصبر.

- الزاوية الثانية: في الشكر.

- الزاوية الثالثة: في التوبة، وفصَّلَ فيها الكلام حولَ الذين يظلهم اللهُ تعالىٰ في ظله يوم القيامة يوم لاظلَّ إلاّ ظِلُّه.

- الزاوية الرابعة: في الحياء.

وهي رسالةٌ جامعةٌ مانعةٌ في الوصول إلىٰ الله ختمها بقوله:

«ولكن: إنّ السفينةَ لا تجري علىٰ اليَبَسِ

وكنت أردتُ أن أذكرَ محلَّ جَرَيانها، وبم تجري، ومن أين مبدؤها، وإلىٰ أين تنتهي، وما يرىٰ راكبها في الطريق من التباشير والمخاويف، لكن منعني من ذلك الضعف وخفتُ أن أزيدَ من قيام الحجة عليكم بزيادة البيان...».

ـــ الرسالة الثالثة:

وهي «نسخةُ مَن غاب عنه المُطْرِب»، قال في أولها: «أردتُ أن أكتبَ رسالةً لنفسي بقصد محاورتها ومناظرتها وإبداء عواراتها ومعايبها وإنصافي منها...».

وقد جاءت محاورةً عجيبةً بين ذاته وروحه أو عقله وروحه، فلسفيةً عميقةً بلسانٍ جامعٍ لَدُنّي، حتىٰ إنها احتوت علىٰ مواضع تشكل علىٰ من لم يتأملها ويتفحصها لأول مرة. وقصدُه إقناعُ النفس من الناحية العقلية بمتابعة أوامر خالقها عز وجل، وعبادته طوعاً لا كرهاً، فجاءت بحمد الله تعالىٰ فريدةً في بابها ومضمونها.

ـــ الرسالة الرابعة:

«الفرق بين الواردات»، تطرّق فيها لذكر الواردات الرحمانية والملكية والإنسية والشيطانية، والفرق بينها، ثم طريقة الاستحضار في الذكر وتطهير الباطن، ثم طريقة التوجه في الذكر، وبعد ذلك طريقة التصرف في الكون، ومعرفة المستقبليات.. إلخ ذلك.

وقد أرسلها إلىٰ أئمةٍ عارفين من أتباعه، فلا يقدرها إلا من بلغ مقاماتٍ عاليةً في العبادة، وقال في آخرها: «وروح هذه المسألة: التجرُّد من الغواشي البدنية، ومحو النقوش الكونية..».

ـــ الرسالة الخامسة:

«الرسالة إلىٰ أهل سَلا»، وهي رسالةٌ إلىٰ أتباع طريقته في مدينة سَلا بالمغرب (وهي مدينةٌ كبيرةٌ مجاورة للعاصمة الرباط، عرفت بالعراقة والعلم، واستيطان الأندلسيين بها) يحضهم فيها علىٰ الإكثار من الصلاة علىٰ النبي ﷺ، مستدلاً علىٰ ذلك بالأحاديث والآيات، مستعرضاً بعضاً من محاسن رسول الله عليه وعلىٰ آله أفضل الصلاة والسلام.

ـــ الرسالة السادسة:

«وجوبُ اقتران ذكره ﷺ بذكر الله تعالىٰ، وشيءٌ في الآداب»، وهي جوابٌ أرسله من مصر عام حجه ١٣٢١ علىٰ رسالة والده رضيَ الله عنهما، استدل فيها بالبراهين النقلية والعقلية علىٰ وجوب ما ذُكر، ورد علىٰ من أنكر ذلك، ثم استدل لوجوب التزام الأدب والتخلق به، واتخاذ شيخ تربيةٍ يعين عليه.

وهذه الرسالة جعلها رداً علىٰ بعض أصحاب الطرق الصوفية الذين يذكرون الهيللة ثلاث مرات ثم يتبعونها بذكر «محمد رسول الله» مرةً واحدة.

ـ الرسالة السابعة:

«الإجازة الطرقية»، وهي إجازةٌ كتبها لبعض الأعلام الصالحين، ذكر فيها شروط الطريقة الأحمدية الكتانية، طريقته، وأركانها، ثم فصل في مسألة استحضاره صلىٰ الله عليه وآله وسلم في الذكر، ومشرب الطريقة الكتانية في ذلك، ومشاهِدِها. وقد طُبعت في مصر سابقاً، غير أنني لم أظفر بنسخة من طبعة مصر.

ـ الرسالة الثامنة:

«الوصايا الكتانية»، وهي وصايا كتبها لأتباعه يرشدهم فيها للمسائل والأدواء التي تقطع السالكين عن طريقهم، وسبيل إزاحة الحجب عن القلوب وتخليص القوالب من آفاتِ التكاسل والتواني عن طلب المراتب العليّة.

ـ الرسالة التاسعة:

«سفن النجاة وكهوف العباد»، وهي عهودٌ أحد عشر، عاهد عليها أتباعه وأمرهم بالتزام مقتضياتها، ويمكن اعتبارها تذييلاً علىٰ «الوصايا».

ـ الرسالة العاشرة:

«الأمالي في علم الأمهات» والنسخة التي اعتمدتها فيها هي الطبعة الفاسية الحجرية.

وهذه الرسالة جواب أرسله إلىٰ تلميذه العلامة أستاذ جامعة القرويين الشيخ أحمد بن محمد بن الطيب الفِلالي الجاوزي الإدريسي الحسني، عن سؤالٍ هو: أن كثيراً من العارفين كل واحدٍ منهم يذكر أنه أفضل الناس وأوسعهم معرفة بالله تعالىٰ، وأنّ علمَ من قبله إلىٰ علمه ككذا إلىٰ كذا، وأن طريقته أفضل الطرق وأوصلها إلىٰ الله تعالىٰ، فكيف يُفَكُّ هذا التعارض؟

فأجابه الشيخ رضي الله عنه عن ذلك بهذه الرسالة، وذكر فيها علوم القوم العالية، ذكر منها بضعاً وتسعين علماً، ثم تطرق إلىٰ مراتب القطبية والغوثية والختمية وغيرها، ذاكراً علاماتها، منتسباً في نهاية المطاف إلىٰ مقام الختمية الكبرىٰ الذي دندن حوله جمعٌ من العارفين بالله تعالىٰ، مثل الحكيم الترمذي والإمام الحاتمي وغيرهما. وأتىٰ فيها بمباحث تحيِّرُ الألباب.

وقد بَشَّر ـ رضي الله عنه ـ في بعض رسائله أن هذه الرسالة سوف تنتشر في المشرق وسوف يعرف أهلُهُ قيمتَها.

وأقول بأنه إن لم يفهم القارىء معناها، فإن فيها ـ مع ذلك ـ سراً عجيباً، وهو أن مداركَ القارىء تتفتح وصدرَه يتسع بشكلٍ كبيرٍ للخلاف، وبالأخص خلاف أهل السنة من المتكلمين وأصحاب الحديث، في الاعتقاد وغير الاعتقاد، ويصبح المرء يرىٰ المسألة الواحدة بملاحظَ ووجوهٍ كثيرة، ومن أنكر فليجرِّب.

ــ الرسالة الحادية عشرة:

وهي قصيدتُه التائية العرفانية في مئةٍ وثلاثةَ عشرَ بيتاً، ضمّنها علوماً جمّةً بلسان القوم، وقد استعصت علىٰ كثيرٍ من العارفين، وقام بشرحها بعض أتباعه من العلماء الكبار لم يحضرني اسمُه الآن، وقد قامت عليها ضجةٌ كبيرةٌ بين موافقٍ ومخالفٍ لما فيها، وهي من أسباب محنة المؤلف المرّاكشية، وقد ألفها وعمره ٢١ عاماً فقط، أما تحقيقها فقد قمت به أنا وشقيقي المهندس النابغة محمد الحسين ـ حفظه الله تعالىٰ ـ علىٰ عدّة نسخ، منها النسخة المطبوعة بالمطبعة الحجرية، ونسخةٌ بخط نجل المؤلف الشيخ محمد الباقر الكتاني وتخميسه لها[1].

---

(١) مراجع البحث والترجمة:

١ - «ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد» لنجله الإمام محمد الباقر الكتاني، واعتمدتُ عليها اعتماداً كبيراً حتى إني نقلتُ بعضَها باللفظ، وهي نفسها المسمّاة: «بلوغ الأماني». =

* عملنا في تحقيق هذه الرسائل:

١ - قمت بانتساخ المخطوطات من الأصل ـ الذي هو بخط كوفي مغربي ـ إلىٰ الخط المشرقي.

٢ - زودت النصَّ بعلامات الترقيم من فواصل ونقاط وغيرها.

٣ - قسمتُ النص إلىٰ عناوين شارحةٍ ومفهمةٍ له.

٤ - قمتُ بالتعليق علىٰ بعض المواضع وتفسير بعض الكلماتِ غير المعروفة.

٥ - قمت بعزو الأبيات وأقوال العلماء إلىٰ مصادرها ما أمكن.

٦ - قام أخي غسّان أبو صوفة بتخريج الأحاديث الواردة في المتن وعزوها إلىٰ مصادرها الأصلية ما أمكن. وذلك في أربعة من هذه الرسائل، وهي: سفينة المحبة، ونسخة من غاب عنه المطرب، ورسالة المؤاخاة، ورسالة اقتران ذكر رسول الله بذكر الله تعالىٰ، والباقي قمت بمفردي بتخريجه وخدمته بعون المولىٰ تعالىٰ.

= ٢ - «المظاهر السامية في النسبة والطريقة الكتانية» للإمام الحافظ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني.

٣ - «رياض الجنة» وهو معجم شيوخ العلامة المسند عبد الحفيظ بن الطاهر الفاسي الفِهْري.

٤ - «اللؤلؤة الفاشية في الرحلة الحجازية»، تأليف شيخ الجماعة الإمام عبد السلام بن المُعطي العَمراني. وغيرها.

وقد أفردَتْ سيرةُ المترجَم رضيَ الله عنه بأكثرَ من أربعين مؤلفاً، وتُرجِمَ ضمن ثمانين مصدراً، ذكر جميعها أو أغلبها نجلُه الشيخ محمد الباقر الكتاني في كتابه: «التاج المرصَّع بالجوهر الفريد، في ترجمة الشيخ الإمام محمد الكتاني الشهيد»، الواقع في ثلاث مجلدات.

ولا أنسىٰ أن أشكر خالي وشيخي العلامة المدرس النفّاع الأستاذ بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء سيدي بدر الدين بن عبد الرحمٰن بن محمد الباقر الكتاني الحسني، الذي سهّل عليَّ الوصولَ إلىٰ كافة المخطوطات والاطّلاعَ عليها، مع إفادتي بجميع المعلومات عن جدنا الإمام أبي الفيض رضي الله عنه وطريقته خاصةً، ومختلف العلوم والمعارف عامةً، فجزاه الله عني كل خير.

والحمد لله رب العالمين

وكتبه سبط حفيد المؤلف

الشريف محمد حمزة بن محمد علي الكتاني

١٣ من محرَّم الحرام سنةَ ١٤١٩ هجرية

بعمّان الأردن من بلاد الشام

حرسَها اللهُ تعالىٰ

النفائس الكتانيـة

١

رسالة المؤاخاة

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهدِ بفاس سنةَ ١٣٢٧ هجرية

رضي الله تعالى عنه

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

[illegible]

الحمد لله [illegible] وأصلي وأسلم على نبيه سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه الكرام
البررة، من محمد بن الشيخ محمد الكبير الكتاني إلى الفقراء [illegible] أن الله تعالى [illegible]
من أجله [illegible] الله تعالى ورسوله [illegible]
[illegible] والعارف بالله تعالى سيدي محمد بن [illegible] وبقية [illegible]
[illegible] القارئ [illegible]
العلم [illegible] النور [illegible]
محمد [illegible] البيع [illegible] لا إله إلا [illegible]
فقد علمتم [illegible] اليوم [illegible]
[illegible] العالم [illegible]
[illegible]
[illegible] بالله تعالى [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
الكتانية [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

ومن عندك تالب من تلاميذنا فليجتهد وليتمرن في الزاوية حتى تختم
جميع كتبنا وما احتجتموه فارسلوا اليه وبما ازدوج الاخوان للكتب
انتجة لك نفع في العالم ولما زوج الانتباه والاطلبة والا وبة في انتيعتهم
انتجوا كله مصون في العالم

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام
هبا بذل النفس فيما اتى الهوى فان قبلتها منك يا حبذا البذل
ومن لم يجد في حب نعم بنفسه وان جاد بالدنيا اليه انتهى البخل

في المرتيب على هذا كله تحصلت الثمرة وانتم كالعهد والمرجو
منهم مجتهدين في الدين فانه لا نجاح ولا فلاح ولا نجاة الا روحا محمدية ان رحمت
عبور على المراتب اصحابه لا انفكاك لها عنها والحق عند ذلك اهمية افضاد
وتدريبها واماتة ومشيخة وتولية وتقديما وتصحا ومن همة رحم الله
عبدا اكمل من نفسه قوله فالاكمل من نفسه قوله في ذات الله وان لم
يستطيعه فيستوجب هذا الدعاء النبوي فليتوكل دون الاعتصاب
واستودعكم الله والسلام على جميع الاحباب

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا أحمد، وآله وصحبه وسلم

الله َ جلَّ مجدُه أحمد، وأصلي وأسلم علىٰ نبيه سيدنا ومولانا أحمد، وعلىٰ آله وصحبه الركع السُّجَّد.

من محمد بن الشيخ عبد الكبير الكتاني إلىٰ إخواننا في ذات الله تعالىٰ، وأَصفيائنا من أجله، وأودائنا وأنصارنا في جانب الله تعالىٰ ورسوله الكريم الأسنىٰ: الكبريت الأحمر(١) مولاي علي الدمناتي، والعارف بالله تعالىٰ سيدي محمد بن المُعطي العَمْراني، وبقية السلف وبركة الخلف سيدي الصالح، والمشارك المتفنِّن الفارس البطل سيدي عبد السلام، العمرانيِّين، وشعلة الذكاء ونبراس النباهة وقطعة النور، العضد سيدي محمد خير الدين، إني أحمد إليكم جلال الله الذي لا إلٰه إلا هو، أما بعد:

---

(١) الكبريت الأحمر: هو مصطلح عن كل شيء نادر الوجود، وفي لسان التصوف: إشارة إلىٰ مقام الختمية. ولست أدري مقصود المؤلف هنا، رضي الله عنه، علماً أن مقام الختمية يتدرج ويتعدد. كما فصله نجل المصنف، العارف بالله الشيخ محمد الباقر الكتاني في كتابه: «الروضة الندية، في إثبات السقي من الحقيقة الأحمدية»، بما لا يوجد في غيره، وهو مخطوط.

[المقدمة]

قد علمتم إخواني أن شمسَ الدين اليوم كُوِّرت، ونجومَها انكَدَرَت، وجبالَه سُيِّرت، وعشاره عُطِّلت، ونفوسَ العالم زُوِّجت، كلٌّ انتظم إلىٰ هواه، وصحفَ الضمائر والأسرار نُشرت، وسماء المعالي واقتنائها والمعاني واكتسابها وادخارها كُشِطَت، وإذا الجحيمُ سُعِّرت، جحيمُ الجهل بالله تعالىٰ وبرسوله الكريم، وجحيمُ العوائد الرديّة والأعراف المخالفة للسنة الطاهرة الغراء البلجاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك؛ سعرت وأضرمت وشبت نيرانها وتوهجت وقامت في كل ربع وحي.

وأنتم أظهرَكم الحقُّ جلَّ قدسُه في هذه الطائفة الكتانية[١]، والناس مُشْرئِبُّون إليكم اشرئباب الهِيم إلىٰ الورود، فإني أردت أن أواخي بينكم في ذات الله جل قدسه، وتكون مؤاخاتكم علىٰ نظري لا علىٰ نظركم، فأنيخوا إليّ، وحُطّوا رواحلكم بين يدَي، وأعطوني الطواعيةَ والانقيادَ من أنفسكم طبق البطن[٢].

[شروط المؤاخاة الدينية]

وشروط المؤاخاة الدينية أن أقول:

وأنه جلَّ عدلُه أمّنكم علىٰ تبليغ شرعه إلىٰ أعبُدِه، وجعلكم أوعية لحمله، ومكنكم من الإفصاح والتبيان عما استحفظكم، وأعطاكم فسحةً من عز تمشون بها في الناس، وأعطاكم مقاليدَ النفوذ فيهم.

---

(١) إشارة إلىٰ الطريقة الأحمدية الكتانية التي هو مؤسسها رضي الله عنه، وكان لها دور مهم في التعليم والتوعية الدينية والسياسية والجهادية في القرن الرابع عشر وامتد أتباعها من المغرب إلىٰ جاوا.

(٢) أي: بجميعكم ظاهراً وباطناً.

فما عذركم مع الله سبحانه ومع رسوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله، ومع أملاكه الكرام، ومع العلم الذي حُملتموه، ومع الإنسانية التي بها عرفتم، ومع تطويق الخلافة عن أهل الله سبحانه مما ائتمنوكم علىٰ أصحابهم ومريديهم وتلامذتهم في هذا التقاعد والتكاسل والعجز، وعدمِ النهضة الإيمانية، وعدمِ القيام علىٰ ساقٍ في النصح لعباد الله وتذكيرهم بأيام الله، وعدم إرشادهم ودلالَتهم علىٰ الله تعالىٰ، والسكوتِ والمحاباة، والتلبس بالأغراض الشخصية، والتذرع بالأحوال الطبيعية، وعدم النهضة لله بالله مع الله في الله لا لأمر نفساني أصلاً و [لا] لمحبة محمدة ولا ليُقالَ ولا لقصدِ ثواب ولا حظِ أخروي؟

[المساواة والعدل]

وصورة الأخوّة التي أعقدُ بينكم عن إذن إلٰهي محمدي: أن تتجردوا كلكم عن الأحوال الشخصية والأغراض الطبيعية، وتتحركوا حركةً إيمانية ونهضة روحانية بعضكم بعضاً، وتكونوا في الحق سواء.

وكان عمر رضي الله عنه وقافاً عند كتاب الله تعالىٰ، لا يكن فيكم عالٍ ولا نازل، ولا مقدَّمٌ ولا مؤخَّر، ولا شريفٌ ولا عالم، ولا رئيسٌ ولا متعالٍ، بل كونوا في الحق سواءً ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

أمر سبحانه عبيده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط؛ أي: العدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذَهم في الله لومة لائم، ولا يصرفَهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه.

[الإخلاص في الدعوة إلىٰ الله والنصح]

وقوله سبحانه: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ هو كقوله جل ثناؤه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، أي: أدوها ابتغاء وجه الله، فـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾

[القصص:٨٨]، أي: كل شيء ابتُغي به غير وجه الله هالكٌ مضمحِلٌ لا أثرَ له ولا نورَ ولا تهذيب للنفس يصحب فعلَه، ولا نتيجةَ يجدها المكلف من التلبس بفعله، إذ الشرائعُ كلها أدويةٌ روحانية، وطبٌ إلٰهيٌ للأمراض الحاصلة للأرواح والعقول، والنفوس والأسرار، فإنما سمّاه جل اسمه هالكاً لأنه لا أثر له في الوجود ولا في نفس العامل ولا في الواقع، ولا يجد له المكلف ثمرةً يوم التغابن. ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، أي: إلاّ ما ابتُغِيَ به وجهُهُ جل سناه.

فإذا أديتَ الشهادةَ ابتغاء وجه الله كانت صحيحةً خاليةً من التحريف والتبديل والكفران وفق ذلك، قال جل علاه: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: اشهد الحق ولو عاد ضررُه عليك، وإذا سئلتَ عن الأمر فقل الحقَّ فيه ولو عاد ضرره عليك.

[لا يحدث من الصدع بالحق ضرر أصلاً]

ولا يحدث من الصدع بالحق ضررٌ أصلاً؛ لقول الله جلَّ مجده: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ ولم يقل سبحانه: يخذلكم، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝﴾ [محمد: ٧]، ولم يقل سبحانه: ويزلزل أقدامكم. فالوهم والخيال نسخَ هذه الآية الكريمة وأشباهها.

وفي الحقيقة محبتُنا المنزلةَ في قلوب الخَلْق وحبُ المحمدة والعلو في الأرض هو الذي نسخها، فلذلك لم ننصر الله ولذلك لم ينصرنا، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝﴾ [الحج: ٤٠].

يتوهم أهل الحجاب أن أمرَهم بالمعروف ونهيَهم عن المنكر يُسقطهم من قلوب الخلق، وهو وهمٌ كاذب؛ إذ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والورثة الكاملون لم يسكتوا طرفةَ عينٍ عن النصح للخلق كافة، لكن مع السياسة العادلة الشرعية، فَنَتَجَ نصحهم وقُبل رشدهم، وصار محلاً للقبول.

إنما كان قصدُهم بالنهي عن المنكر: حفظ الأمة، والأخذ بزمام الشهوات والشبهات في الدين، فرَدُّوها كما تُرد جِمَاحُ الخيلِ باللُّجُمِ.

وكان قصدُهم: امتثالُ أمر الله جل قُدْسُه بما طوقهم من حسن الرعاية في الرعية والقيام علىٰ حفظها عن أمر الله سبحانه.

وقد بلغ الخاتم الماحي ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ من النصح وردَّ الشوارد وقمع الأوابد إلىٰ جلال الربوبية إلىٰ أن أسلم شيطانُه صلوات الله وسلامه عليه، فصار لا يأمره إلا بخير[1]، وللعلماء الوارثين حظٌ من هذا الباب أيضاً، فإذا لم يرثوا موروثهم في المراتب الأربع فما ورثوه: الورث في الأقوال، الورث في الأفعال؛ وهذا هو مجموع كتاب الشمائل، الورث في الأحوال، الورث في المنازلات؛ وهذا هو مجموع منازل السائرين.

أما ورث النبوة في الأحوال والمنازلات فهو أقسام في البدايات؛ وهي: اليقظة والتوبة، والمحاسبة والإنابة، والتفكُّر والتذكر، والاعتصام والفِرار، والرياضة والسماع.

وفي الأبواب: وهي الحُزن والخوف، والإشفاق والخشوع، والإخبات والزهد، والورع والتبتل، والرجاء والرغبة.

وفي المعاملات: وهي الرعاية والمراقبة، والحُرمة والإخلاص، والتهذيب والاستقامة، والتوكل والتفويض، والثقة والتسليم.

وفي الأخلاق: وهي الصبر والرضىٰ، والشكر والحياء، والصدق والإيثار، والخُلُقُ والتواضع، والفتوة والانبساط.

وفي الأصول: وهي القصد والعزم، والإرادة والأدب، واليقين والأُنس، والذكر والفقر، والغنىٰ ومقام المراد.

---

(١) كما أخرج ذلك مسلمٌ في «صحيحه» (٢٨١٥) من حديث عائشة بنت الصديق رضي الله عنها.

وفي الأدوية: وهي الإحصان والعلم، والحكمة والبصيرة، والفراسة والتعظيم، والإلهام والسكينة، والطمأنينة والهِمّة.

وفي الأحوال: وهي المحبة والغيرة، والشوق والقَلَقُ، والعطَشُ والوُجْدُ والدهَشُ والهَيَمان، والبرق والذوق.

وفي قسم الولايات: وهي اللحْظُ والوقت، والصَّفا والسرور، والسر والنفس، والغربة والاستغراق، والغَيْبَة والتمكن.

وفي قسم الحقائق: وهي المكاشفة والمشاهدة، والمعاينة والحياة، والقبض والبسط، والسُكر والصحْو، والاتصال والانفصال.

وفي قسم النهايات: وهي المعرفة والفناء، والبقاء والتحقيق، والتلبُّس والوجود، والتجريد والتفريد، والجمع والتوجيه[١].

فهذه عشرة أصول في كل أصل عشرة مقامات، هي مائة منزل إذا ألقيت بالك للأحاديث النبوية، وتجردت عن علوم الكسب[٢]، وتخليت عن الرسوم، واستطعمت ربك جل جلاله، واستكسوته واستسقيته: يطعمك ويكسك ويسقك، فيداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء.

وليقل كل عبد عند إرادة العلم أو التعطش للعمل: يا هادي اهدنا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك، بقلبٍ قويٍ ولسانٍ روحاني، ولسانِ الافتقار

---

(١) انظر في ذلك كتاب «منازل السائرين، بين مراتب إياك نعبد وإياك نستعين» لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي وشرحه مدارج السالكين شرح منازل السائرين للإمام الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية.

(٢) أي: وصلتَ إلىٰ معاني الألفاظ دون الضياع بين اختلافات العلماء فيه ومقارنة اختلافاتهم، وليس في هذا دعوة إلىٰ الإعراض عن العلم والعلماء، وحاشا، بل من منهج المؤلف رضي الله عنه الدعوة إلىٰ العلم.

والذلة، يجد الأثر في نفسه حالاً؛ فإن الله سبحانه حييٌ كريمٌ يستحي إذا رفع عبده يديه إليه أن يردهما صفراوتين[١].

[الرسول ﷺ كان يتكلم في منازل الكمال]

تجده صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله يتكلم في هذه المنازل ويخوض عُبابها، وينوِّع أفانين التأديب والتهذيب والإرشاد علىٰ حسب الشرح لها والدلالة عليها، إذ هي المنازل التي سار عليها السائرون إلىٰ معرفة ربهم سبحانه.

فأحبُّ أن تبحثوا عن «منازل السائرين» للإمام الهَرَوي، كتابٌ صغير الجِرْم عظيم الجدوىٰ والفائدة، وإن لم يوجد هناك فكاتبونا عليه، واختموه فيما بينكم المرةَ بعدَ المرة، وتكلموا فيه حسبما يهبكم واهبُ الجود جلَّ أمره.

وتكون المذاكرة مناوبةً لا مناهبة، كما كان الصحابة الكرام، فإن الأمر جِدٌّ والناقدَ بصير، والعلماء إذا لم يرثوا نبيهم ومتبوعَهم صلىٰ الله عليه في هذه الأحوال ففيما يرثون؟! لم يبق إلا الأغراض والشوائب، والحظوظ والرياسات التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا يحصد الإنسان منها ثمرةَ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، أي مما سواه جلَّ سلطانه.

وكل من يقوم مع حظوظ نفسه وشهواته وأغراضه فقد أهمل الإنسانية وأضاعها، وكل من لا إقدامَ له علىٰ المعالي والمعاني والتجرد عن الأحوال الشخصية لم يظهر شرفاً لإنسانيته، إذ من خاصية الإنسانية: الشهامة والإقدام، بل من خواص الحيوانية أيضاً.

---

(١) يشيرُ إلى حديث: «إنّ ربكم حيي كريم، يستحيي من عبده أن يرفعَ إليه يدَيه أن يرُدَّهما صِفْراً خائبتين»، أخرجه الترمذي (٣٥٥٦) وقال: حسن غريب، (١٤٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٥) عن سلمان رضي الله عنه.

[من أسبابُ تقدم الأجانب]

وقد علمتم ما وصل إليه الأجانب اليومَ من النفوذ في العالم، فإنما وصلوا لذلك بأمور؛ ومنها: الحريةُ ـ التي عبر عنها الشرع الكريم بالقسط ـ والعدلُ والنصح، وعدم المحاباة، والقيامُ في كل موطن وما يقتضيه، ومعرفة كل منصب وما يطلبه، وعدم إهمال بعضهم بعضاً، ومعرفتهم بحق من ظهر فيه أدنىٰ نبوغ وتيقظ، وعدم إهماله حقَّه، وعدم رفضه. بخلاف غيرهم.

[من أسباب انحطاط الأمة: إهمال من نبغ فيهم]

فإن من أسباب انحطاط الأمة الإسلامية في كل صقع: إهمال من نبغ فيهم كاتباً أو شاعراً أو مشيراً، أو صانعاً يحسن صنعة التجبيص أو البناء أو الأواني أو الثياب، أو صاحب صوتٍ حسن، أو تنحاش إليه الخلق؛ يرمونه رميةً واحدةً عن قوسٍ واحدة. ولم يكن صدر الإسلام كذلك.

[من أسباب الانحطاط: عدمُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

ومن أسباب انحطاط الملة أيضاً: عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واشترطوا له شروطاً قل أن تتفق، فعرقلوا مساعيَ الشرع بتلك الشرائط، والله سبحانه يقول: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]، وقال بعد أن قسَّم بني إسرائيلَ فرقاً: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ [الأعراف: ١٦٤-١٦٥]، فطائفةٌ أمرت ونهت نجاها سبحانه.

وطائفةٌ نهت من نهىٰ عن المنكر وقالوا: ﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾، وطائفةٌ لم تأتمر ولم تنته، فأهلك الله جل سلطانه الطائفتين ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ

بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٥-١٦٦]، ﴿ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ٦٦]، مع أن النهي وقع عن المكروه زمن النبوة وعن ترك المندوب وعن ترك السنن.

وأما قولهم في باب الجهاد وفي آخر البيوع الفاسدة: «لا يُنكر إلاّ ما أجمع عليه» أي مع الإلزام والتحتيم، وأصل هذا الكلام لعياض أولَ «الإكمال»[١]، ونحوه للإمام النووي مدمِجاً كلام عياض قائلاً: «أما المختلف فيه فلا إنكار، وليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترضَ عليه ما خالفه، إذا لم يخالف نص القرآن أو السنة أو الإجماع»[٢] ونقله في «سَنَن المهتدين»[٣]، وزاد المواّق في «شرح المختصر»[٤] عن القرافي وعزّ الدين نحوه، وهو مشكلٌ.

لأنّ في المذهب مسائلَ صرحوا فيها بالأدب مع شهرة الخلاف فيها، بل صرّحوا بالتأديب في فعل المكروه، وذكر الحطّاب فقال بعد ذكر الخلاف ما نصه: «فالظاهرُ أن لا معارضة، وأن مَن واظب علىٰ ترك السنن وعلىٰ فعل المكروه فهو الذي يؤدَّب ويجرَّم، ومن كان ذلك من مرة لم يؤدب». اهـ.

وقال الإمام المازَرِي أول كتاب الإيمان من «المُعْلم» ما نصه: «والتمادي علىٰ ترك سائر السنن مذمومٌ يُوجب الأدبَ عندَ بعض أهل العلم» اهـ.

وبه يُعلم ما في جوابٍ في «المِعْيار» لمؤلفه ونصه: «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتعلقان إلا بواجبٍ أو حرامٍ عند المحققين». اهـ. فإنه

---

(١) «الإكمال» للقاضي عياض (١: ٢٨٩).

(٢) «شرح مسلم» للإمام النووي (١: ١٩٢).

(٣) «سنن المهتدين» لابن المواّق ص٥ من الملزمة الثانية من طبعته الفاسية المطبوعة سنةَ ١٣١٤هـ.

(٤) لم أجده في شرحه المُسمّىٰ بـ «التاج والإكليل»، وربما هو في الشرح الكبير له.

ليس بظاهرٍ إن قلنا إنه يؤدَّب علىٰ فعل المكروه وتركِ السنن، لأن الأمرَ والنهيَ باللسان أحق من التأديب.

مع أنّ كلامَ الأُبّي في «شرح مسلم»[١] يفيد أنه لا خلافَ أن ذلك مطلوب، فإنه إنما حكىٰ الخلافَ في الوجوب فقط، ويأتي لفظه علىٰ الإثر، وقد وقع النهي عن المكروه وتكرر في زمن الصحابة فمن بعدهم.

ففي «الصحيحين» أن أبا سعيدٍ الخُدْري رضيَ الله تعالىٰ عنه أنكر علىٰ مروان تقديمه الخطبة علىٰ الصلاة في العيد[٢]. قال في «الإكمال»: «وقوله: «لا تأتون بخير مما أعلم»: تصريحٌ بالحق وإن لم يكن في الواجبات». اهـ. ونقله الأبي في «إكمال الإكمال» وقال عقبه: «قلت: اختُلف في وجوب التغيير لمخالفة المندوب»[٣].

وقد أمر النبي ﷺ وعلىٰ آله حسبما في أصح الصحيح أن يقال لمن ينشد الضالة في المسجد: «لا ردها الله عليك»[٤]، وفي «الصحيحين» وغيرهما أن سيدنا عمرَ قال لسيدنا عثمانَ رضيَ الله عنهما حين تأخر يومَ الجمعة عن التهجير: أية ساعة هذه[٥]، ثم قال له ثانياً[٦].

---

(١) «إكمال إكمال المعلم» (١: ٢٥٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٩٥٦)، «صحيح مسلم» (٨٨٩).

(٣) شرح الأُبّي علىٰ مسلم المسمّىٰ «إكمالَ الإكمال» (٣: ٢٦٢).

(٤) مسلم (٢٥٤). واختلف المغاربة في أي الصحيحين أفضل.

(٥) انظر البخاري (٨٧٨)، ومسلم (٤٠٤).

(٦) بعد هذه الجملة، كلام لا علاقة له بالسياق حذفته، ونصه، «والوضوء أيضاً»، «وسن غسل متصل بالرواح، ولو لم تلزمه، وأعاد إن تغذى أو نام اختياراً، إلاَّ لأكل خف». وهي من مختصر خليل.

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس رضيَ الله تعالىٰ عنهما: كنت أضرب الناسَ مع عمرَ رضيَ الله تعالىٰ عنهما علىٰ الصلاة بعدَ صلاة العصر[١]. وفيهما أيضاً قولُ عمرَ للرجلين الذين كانا يرفعان أصواتهما في المسجد: لولا أنكما غريبان لأوجعتكما ضرباً[٢]، وفي «الصحيح» أيضاً قولُ سيدنا عمرَ لسيدنا عبد الرحمٰن بن عوف رضيَ الله تعالىٰ عنهم عند لبسه وهو محرمٌ ثوباً مصبوغاً بما يكره للمحرم لبسُه ولا يحرم: «إنكم أئمةٌ يقتدىٰ بكم»[٣].

وفي «المعيار» نفسِه عن «المَدْخَل»: «وردت السنة أنّ من إكرام الميت تعجيلَ الصلاة عليه ودفنه»[٤]، وقد كان بعض العلماء رحمه الله تعالىٰ يحافظ علىٰ السنة، إذا جاؤوه بالميت إلىٰ المسجد صلىٰ عليه قبلَ الخطبة ويأمر أهله أن يخرجوا إلىٰ دفنه». فجزاه الله خيراً عن نفسه وعلىٰ محافظته علىٰ السنّة.

فلو كان العلماءُ ماشين علىٰ ما مشىٰ عليه هذا السيد الغيور؛ لانسدت هذه الثلمة التي وقعت، وهي: أن من أحدث شيئاً سُكت عنه فتزايد الأمر لذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ونقل كلامُ صاحب «المدخل» غيرُ واحد من شُرّاح «المختصر» وسلموه كما سلمه صاحبُ «المعيار»، وبه يُعلم ما في كلامه المتقدم.

وقد وصل الحالُ من سكوت أهل العلم إلىٰ أن صار الكفرة الفجرة يعلّمون المسلمين ما يصلحهم في طريق دينهم ومعاشهم، ولا أقلَّ إن أصابتنا [هذه الداهية] من النهي عموماً، فلا أقلَّ من نفس الإنسان وأهله وعشائره وتلامذته

---

(١) البخاري (١٢٣٣)، ومسلم (٨٣٤) بمعناه.

(٢) البخاري (٤٧٠).

(٣) لم أجد لفظه، وهو بهذا المعنىٰ وقريب من هذا اللفظ في «الموطأ» (١:٣٢٦)، وفيه ذكر طلحة بن عبيد الله بدل عبد الرحمٰن بن عوف.

(٤) كلامُ ابن الحاج في «مدخله» (٣:٢٦٨).

ومن يدخل تحت حكمه ونفوذه، وقد جعل جل شأنه إثمَ الساكت أعظمَ من إثم الفاعل في القرآن.

وكثيراً ما ينظر الإنسانُ المريدَ يدخل الزاوية علىٰ غير نظر السُنة فلا يُحدِث في نفسه أدنىٰ انزعاج ولا حزازة ولا حدّةٍ ولا غضبٍ إلٰهي إذ خالفَ أمرَ ربه سبحانه. ويا ترىٰ إذا رأيناه أساء الأدبَ علينا لكُنا كذلك؟! لا والله، بل يتمعَّرُ وجهنا ويتربَّك[1] ويتلكّأ لسانُنا غضباً. ونعدُّ ذلك من الغضبَ لله، والحالُ أنه حالٌ شخصيٌ يعود علىٰ ذاتنا بالنفع الذي هو أشبه شيءٍ بالسراب لا أثرَ له ولا وجودَ في الخارج.

[التناصح بين الإخوان لله]

وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تَبَعاً لما جئتُ به»[2] فيُعلَّم الإخوانُ كيف الدخول للمسجد والخروج منه، وأوراد الدخول والخروج، وكيفية الدخول للمنزل، وأي الرجلين تقدَّم، وفي الدخول للمرحاض.

وكثيراً ما ترون المؤذن يؤذن ثم يقيم الصلاةَ غيرُه، وفي الحديث: «من أذن فليقم»[3]، وكثيراً ما ترون المأمومَ يبادر الإمامَ في الصلاة ولا يُنهىٰ مع أنه من الكبائر، وقد توعَّد عليه الشارعُ بالمسخ فقال: «أما يخشىٰ أحدكم إذا رفع رأسه قبلَ الإمام أن يحوِّلَ الله رأسَه رأسَ كلبٍ أو رأسَ حمار»[4]، وكذلك

---

(١) يتغير ويختلط.

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٤: ٣٦٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١: ١٢)، والبغوي في «شرح السنة» (١: ٢١٢). صححه أبو نعيم والنووي، وضعفه ابن رجب.

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٩) وضعفه عن زياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه، وأبو داود (٥١٤)، وابن ماجه (٧١٧)، وأحمد في «مسنده» (٤: ١٦٩). وحسنه الحازمي وقواه العقيلي وابن الجوزي. والعمل عليه كما نص الترمذي عند أكثر أهل العلم.

(٤) أخرجه البخاري (٦٩١)، ومسلمٌ (٤٢٧)، وأبو داود (٦٢٣)، والترمذي (٥٨٢)، والنَّسائي (٢: ٩٦ برقم ٨٢٨)، وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

التلميذ إذا رفع رأسه قبلَ إمامه لا يأمن أن يحول الله رأسه رأس كلب أو رأس حمار كما في الحديث.

وكثيراً ما يُرىٰ المؤذن يساوي الإمام في التكبيرات ولا يُنهىٰ، مع أن السنة أن لا يبدأ المأمومون عموماً بالتكبير إلا بعد فراغ الإمام من التكبير، وهو فائدة التعقيب بالفاء في قوله: «إنما جُعِلَ الإمام ليؤتم به، فإذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا»[١].

[بعض مزايا الطريقة الكتانية]

وجُلُّ الإخوان لا يعرفون أن مما امتازت به الطائفة: عشر تسبيحاتٍ في الركوع والسجود لا بد منها، وهو السنة كما في «سنن أبي داود»[٢]، وأما ما في كتب المذهب في مسألة الطمأنينة والاعتدال فليس بمحرَّر؛ وإني شارعٌ في كتاب «الصلاة» علىٰ الشرع الغضِّ الطري، لا الآراء والأقوال والاختلافات التي توارت عندها شموسُ النبوة وأقمار الرسالة.

ومما امتازت به أيضاً: طولٌ خاصٌ بعد الرفع من الركوع وبين السجدتين كما في «الصحيح» من قول أنس: «كان صلىٰ الله عليه يطيل في الموضعين حتىٰ نقول إنه قد نسي، أو نقول إنه قد أوهم، أو نقول إنه قد مات»[٣]، وتمثيل الفقهاء للطول بمحل لم يُشرع به علىٰ الأظهر لما بعدَ الرفع من الركوع مصادمةٌ للسنة، وهي سنةٌ تركها جميعُ الخلق، فليُعِدُّوا لتركها جواباً!

---

(١) أخرجه البخاري (١١١٣)، ومسلمٌ (٤١١)، وابن ماجه (١٢٣٩)، وأحمد (٢: ٢٣٠، ٣١٤، ٤١١، ٤٣٨)، وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) برقم (٨٨٨) عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً النَّسائي في «الكبرى» برقم (٦٣٤). رجال إسناده كلهم ثقات إلاَّ أبا يزيد الصنعاني، قال أبو حاتم: صالح الحديث، وقال النسائي: ليس به بأس.

(٣) الحديث بالمعنى، وانظر بمعناه في مسلم (١٩٦)، وأحمد (٣: ٢٠٣)، بلفظ «أوهم» فقط، وفي أحمد (٣: ١٦١) بلفظ «أنسي» فقط.

[الاهتمام بمسائل المعاملات]

وجُلُّ الإخوان لا يعرفون أحكامَ البيع والشراء والبيوعات الفاسدة، وأحكام الربىٰ، ولا يأكل الإنسانُ أكلةً إلا حارب الله ورسوله، مع أن محاربةَ الله أعظمُ من هدم الكعبة مئةَ ألفِ ألفِ مرة، ولا مفهومَ للعدد مع أنه لا يقدر الواحدُ منا أن يرىٰ أعظم شخص في الدنيا يهدم الكعبةَ ولا يغضب لله ولرسوله ولدينه، ولا شَرَفَ تعبِهِ في الدنيا، فكيف بالربىٰ؟! وهي محاربةُ الله ورسوله صِرْفاً.

فتداركوا أَخْذَ صحبِهِ ﷺ وعلىٰ آله[1] ـ وخصوصاً من استُرْعِيتم بالنصيحة وهم الإخوان في الزاوية ـ: ﴿ كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ [النساء: ١٣٥]، أي: ولو كانت الشهادة علىٰ والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها، فإن الحق حاكمٌ علىٰ كل أحد.

[العدل بين الناس والإنصاف]

وقوله: ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أي: لا تَرْعَهُ[2] لغناه ولا تشفق عليه لفقره فالله أولىٰ بهما منك، وأعلمُ بما فيه صلاحهما، ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ﴾ [النساء: ١٣٥]، أي لا يحملنكم الهوىٰ والعصبية وبغض الناس إليكم علىٰ ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل علىٰ أي حال كان. كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ ﴾ أي بُغْض ﴿ قَوْمٍ ﴾ لكم ﴿ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ أي: لا يحملنكم بُغضُ قومٍ علىٰ أن تجوروا عليهم، ولا تجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم وإن أساؤوا عليكم، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا في إيحاشكم، فهو خطابٌ عامٌ ﴿ ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

---

(١) أي طريقتهم ومنهجهم رضي الله عنهم في الأخذ بالأوامر الشرعية المذكورة في الآية التالية.
(٢) في الأصل بخط الناسخ: ترعاه.

ومنه: قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله يخرص علىٰ أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: «والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم أبغض الخلق إليّ مَن عُدَّتُكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم علىٰ أن لا أعدل فيكم»، فقالوا: بهذا قامت السماء والأرض. ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥][1].

فقوله جل سلطانه: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، تضمنت أن التكاليفَ وإن كثرت إلا أنها انحصرت في نوعين: التعظيمُ لأوامر الله سبحانه، والشفقةُ علىٰ خلق الله.

فقوله: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ إشارة إلىٰ التعظيم لأمر الله. ومعنىٰ القيام لله: أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من إظهار شعائر العبودية وإعظام الرب سبحانه. وقوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ إشارة إلىٰ الشفقة علىٰ خلق الله.

[ترك حظوظ النفس]

فرُوح هذا الإخاء أن تكونوا عارِين عن الحظوظ الطبيعية وعن ملاحظة الأحوال الشخصية، وأن تكونوا عوناً علىٰ الحق لا علىٰ مقتضيات النفوس. وإذا قمتم فقوموا بالله لله عن أمر الله مراعاة لحقوق الله، ولو علىٰ أنفسكم.

وإذا أردتم إبرامَ أمرٍ فليكن شورىٰ بينكم، وليس أحدٌ منكم أحقَّ بالإيثار بالحق من الآخر، فمن لاح علىٰ لسانه الحق فليتبع، واستحضروا سرَّ قولِ الشارع: «والله لو سرقَتْ ـ فلانة ـ لقطعتُ يدها»[2] يعني فاطمةَ الزهراء عليها السلام، وحاشاها.

---

(١) انظر «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير (٤:٥٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٨)، ومسلمٌ (١٦٨٨)، والنَّسائي (٨:٧١ برقم ٤٨٨٨)، وأحمد (٣:٣٨٦، ٣٩٥) عن عائشة رضي الله عنها.

وتذكروا قولَه عند قرب أجله صلىٰ الله عليه: «من ضربته ـ أو كذا أو كذا ـ فليقتَصَّ مني»[١]، ومن يعدل إذا لم يعدل الله ولا رسوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه؟!

وتذكروا نقلَه عن الله ـ جلَّ سلطانُه ـ آياتٍ مفزعةً محرقةً مَهُولةً لولا أنَّ الأمرَ حقٌّ ونبوةٌ لما ظهرت تلك الآيات ولكُتِمَت، وكان ذلك من إحدىٰ دلائل النبوة.

وقد نبه علىٰ ذلك فقهاء الصحابة رضيَ الله تعالىٰ عنهم فقالوا: «لو كتم ـ صلىٰ الله تعالىٰ عليه ـ شيئاً من الوحي لكتم هذه» في آيٍ كثيرةٍ نحو: ﴿ وَأَتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ونحو: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٨]، ونحو: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ ﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٤][٢]، الآيات البينات، ونحو: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، ونحو: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ ﴾ [عبس: ١-٢]، الآيَ الكريمات، ونحو: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣]، إلىٰ آخر ما يُدرَك بمطالعة القرآن بمُقْلةٍ مَلَكُوتية، ولَحْظٍ رُوحاني، وجَفْنٍ جبروتي، ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝ ﴾ [الإسراء: ٧٢].

[ترك المداهنة والنفاق]

وروحُ هذا الإخاء أن تناصحوا فيما بينكم، ولا تُداهنوا بعضَكم بعضاً ولا تُحابُوا ولا تنافقوا، فإن جُلَّ أخوةِ الناسِ اليومَ نفاقٌ.

---

(١) لم أجده.

(٢) انظر كلام الصحابة في هذه الآيات في: «تفسير القرطبي» (١٣:١٦٦).

ولم يستح الشارع من الصحابة إذ قال: «أثقلُ صلاةٍ علىٰ المنافقين صلاةُ العشاء وصلاة الفجر»[١] وقال الصحابي: ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها ـ أي الصبح ـ في الجماعة إلا منافق.

وفي البخاري: «ما أمن النفاقَ علىٰ نفسه إلا منافقٌ وما خافه إلا مؤمنٌ»[٢]، وفيه: «اجلس بنا نؤمن ساعة»[٣].

[الاهتمام بشؤون العبادة والإكثار من الذكر]

وفي القرآن في وصف المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [النساء: ١٤٢]، فمَن منا يذكر الله ذكراً كثيراً كما أمر؟

وفيه: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤]، وكأنها جبلٌ علىٰ كواهلنا يثقل علينا الحالُ متىٰ نؤديها، عكس ما كان عليه الصحبُ الكرام: «أرحنا بها يا بلال»[٤]، أي: أدخل علينا الراحة والسرور بسببها؛ فإنها معراجُ المؤمن. «وجُعلت قرّة عيني في الصلاة»[٥]، «المصلِّي يناجي ربه»[٦]، «ولا تأتوها وأنتم تسعَون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»[٧]، وقال لأبي بكرةَ لما صلىٰ خلفَ الصف: «زادك الله حرصاً ولا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧)، وأبو داود (٥٤٨)، وابن ماجه (٧٩٧)، والدارمي (١٢١٥، ١٢٧٦)، وابنُ خزيمة (١٤٨٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «صحيح البخاري» من كلام الحسن البصري قال: «ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلاَّ منافق»، أخرجه البخاري في باب خوف في أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

(٣) «صحيح البخاري» كتاب الإيمانُ (١:١) من كلام معاذ.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٥:٣٧١) عن أبي علي الأنصاري، والطبرانيُّ وغيرُه.

(٥) أخرجه أحمد (٣:١٢٨)، والنَّسائي (٧:٦١) عن أنس رضي الله عنه. وحسنه الحافظ في «التلخيص».

(٦) أخرجه البخاري (٤١٣)، (٤١٦)، ومسلم (٥٤)، (٥٥١) عن أنس رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري (٦٣٦)، ومسلمٌ (٦٠٢) بمعناه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تَعُد»[١] حتىٰ أخذ بظاهر النهي - إذ يقتضي الفسادَ - الظاهريةُ، فأبطَلُوا صلاةَ المصلي خلفَ الصف.

وفي الحديث: «لا يزال الرجلُ يتأخر عن الصف الأول حتىٰ يتأخر في النار»[٢]، وفي الحديث: «لتسوُّن صفوفكم أو ليخالفنَّ اللهُ بين وجوهكم»[٣]، فأوعد علىٰ عدم سد الفُرَج بالمسخ، وكان الفاروق وابنه يضربان الناس علىٰ عدم تسوية الصفوف، ففيه أن السنةَ يُعاقَبُ تاركُها.

وأخذ الظاهرية وجوبَ تسوية الصف من قوله: «فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة»[٤] وكل هذه التشعيبات من مقتضيات برودة حلاوة الإقبال علىٰ الله تعالىٰ، فتنشأَ عنها هذا التسلسل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ [التوبة: ١٢٧].

وما جاءنا الخلافُ بين قلوبنا إلاّ من عدم سدنا الخلل في الصفوف لما في الحديث: «لتسوُّن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم»[٥]، وقد وقع ذلك فتجد المسلمين كأنهم مِلَلٌ لا يتوارثون؛ يُعرض هذا بوجهه ويُعرض هذا بوجهه وفي الحديث: «لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتىٰ تَحابُّوا، ألا أدلكم علىٰ شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلامَ بينكم»[٦]، وفي الحديث:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٨٣)، وغيرُه من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) لم أجده.

(٣) أخرجه البخاري (٧١٧)، ومسلمٌ (٤٣٦) من حديث النعمان بن بشر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٧٢٣)، ومسلمٌ (٤٣٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٧١٧)، ومسلمٌ (٤٣٦) كما مرَّ.

(٦) أخرجه مسلمٌ (٩٣) عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«تصافحوا يذهب الغِلُّ من قلوبكم»[١]؛ فالمصافحة السُّنِّية طبٌّ إلٰهي مذهبٌ للضغائن والأحقاد[٢].

[ترك العداوة والبغضاء، والتزام محبة المسلمين]

وقد جعل جل ثناؤه العداوةَ والبغضاءَ في القرآن أشدَّ من شرب الخمر وأقبح وأظلم وأشنع، فقال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾، فالخمر والميسر وسيلةٌ عند الشيطان لإيقاع العداوة والبغضاء ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: ٩١].

ووصف سبحانه أهلَ الجنة بصفتين فمن وُجدتا فيه فهو من أهل الجنة، ومَن لا فلا: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحِجْر: ٤٧]، والثانية: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]، أي مجالسُهم طاهرةٌ من اللغو فضلاً عن آفاتِ اللسان المذكورة في «الإحياء»، فلا حولَ ولا قوةَ إلاّ بالله العلي العظيم.

[أصلُ كل معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ الرضىٰ عن النفس]

فأصلُ كل معصية وغفلة وشهوة: الرضىٰ عن النفس، وأصلُ كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضىٰ منك عنها، ولأن تصحبَ جاهلاً لا يرضىٰ عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحبَ عالماً يرضىٰ عن نفسه، وأي عِلْمٍ لعالِم يرضىٰ عن نفسه، وأي جهلٍ لجاهل لا يرضىٰ عن نفسه.

---

(١) أخرجه الإمام مالكٌ في «الموطّأ» (١٦) من حديث عطاء الخراساني مرسلاً، ويتصل في وجوه عديدة.

(٢) انظر مفصَّلاً في المصافحة كتاب: «المناصحة في أحكام المصافحة» لخال المؤلف: شيخ الإسلام جعفر بن إدريس الكتاني.

حظ النفس في المعصية ظاهرٌ جلي، وحظها في الطاعة باطنٌ خفي، ومداواة ما يخفىٰ صعبٌ علاجه. ربما دخل الرياءُ عليكَ من حيثُ لا ينظر الخلقُ إليك. معصيةٌ أورثت ذلاً وافتقاراً خيرٌ من طاعة أورثت عزاً واستكباراً. انكسارُ العاصي خيرٌ من صَولة المطيع. لا تطالب ربك بتأخُّر مطلبك، ولكن طالب نفسك بتأخُّر أدبك.

من جهل المريد أن يسيءَ الأدبَ فتؤخرَ العقوبةُ عنه فيقول: لو كان هذا سوءَ أدب لَقَطَعَ الأمدادَ وأوجب الإبعاد، فقد يُقطع المدد عنه من حيثُ لا يشعر، ولو لم يكن إلاّ منعُ المزيد، وقد يقامُ مقامَ البعد وهو لا يدري، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد.

العلمُ إن قارَنَتْه خشيةٌ فلك، وإلاّ فعليك، لا ترحل من كونٍ إلىٰ كونٍ فتكون كحمار الرَّحىٰ يسير، ولكن ارحل من الأكوان إلىٰ المكوِّن، وإنَّ إلىٰ ربك المنتهىٰ[١].

وانظر قولَه في الحديث الشريف: «فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو إلىٰ امرأةٍ يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجرَ إليه»[٢].

إذا طلبتَ عوضاً علىٰ عمل لست له فاعلاً طولبت بوجود الصدق فيه، ويكفي المريبَ وجدانُ السلامة. أنت إلىٰ حِلْمِهِ إذا أطعته أحوجُ منك إلىٰ حلمه إذا عصيته. لولا جميل ستره لم يكن عملٌ أهلاً للقبول.

---

(١) هذه حكمٌ متفرقة عن الحكم العطائية للإمام ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤)، ومسلمٌ (٩٩٠٧)، وأصحاب السُّنَن من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ]

ومن روح هذا الإخاء الانتصابُ لدوام النصح لعبيد الله تعالىٰ، وتلوُّن الدعوة إليهم كل علىٰ حسب قابليته، وكم من واحدٍ ينجع فيه النصح ويُساء به الظن أنه لا يقبله، وأقربُ الناس من الله أبعدُهم منه، وأبعدُ الناس من الله أقربهم منه.

وإذا حضرتم مجلساً فليكن كله ذكراً وتلاوة ومذاكرة، وسردَ كتب القوم أو «شرح الجامع الصغير»، فإن الأمةَ لا ينفعها إلا إرشادُ نبيها وعلمه الغير المشوب، الغض الطري القريب العهد من الله سبحانه.

[من أسباب الانحطاط تركُ العمل بالحديث وصحيح المذهب، وعدم مجالسة الورثة المحمديين]

ومن أسباب انحطاط الإسلام :عدمُ العمل علىٰ كتب الحديث في باب التأديب والتهذيب والأخلاق والمعاشرة والرقائق والآداب، وأما الأحكامُ الحلال والحرام فعلىٰ صحيح المذهب[1].

وكل هذا التوحُّش جاء الناس من عدم مخالطتهم للورثة المحمديين العالمين بالله وبأحكامه، وفي الحديث: «سائلوا العلماء» ـ أي: بالأحكام، أي: ولا تخالطوهم ـ «وجالسوا الكبراء»[2]، أي وهم المستغرقون في جلال الله وشهوده وليسو متبحِّرين في علوم الشرائع.

---

(١) صحيح المذهب هو: ما عضده الدليل.

(٢) في كنز العمال رقم (٢٩٢٦٣)، «سائل العلماء، وخالل الحكماء، وجالس الكبراء» وعزاه إلىٰ الحكيم الترمذي عن أبي جحيفة. وانظر «إتحاف السادة المتقين» للإمام الزبيدي (٥:٢٧٥)، (٦:٢٠٤).

فأمرَ بمجالستهم ليُكتسب من أنوارهم وقوتهم ومعارفهم ومحبتهم في الله تعالىٰ، وشوقهم إليه والشغل به جلَّ اسمُه خاصة، واكتساب شعائر الإيمان.

فتعلَّموا اليقين والتوكل، والزهد والخوف، والتوبة والشكر، والصبر والرضىٰ عن الله، والمحبة بمجالسة أهلها، فإن هذه العلومَ إنما تُؤخذ من قلب إلىٰ قلب، وكل إخواننا مرشحين لذلك.

«وخالطوا الحكماء»[١]، وهم الجالسون علىٰ الخط المشترك بين عالم المعاني وعالم الأسباب، آخذون بالطرفين، ساكنون بالعالمين، شاربون بالكاسين، قائمون بالشعارين، جعلنا الله وإياكم من أشرفهم وأعلمهم وأقربهم؛ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ [مريم: ٤٧].

[الحث علىٰ المذاكرة وسرد الحِكَم العطائية]

ولتُسرد الحِكَمَ العطائية[٢] كلَّ يوم بين العشائين، مع شرحها ومشاركة الفقهاء بالزاوية في البيان والإفصاح والتبيان والشرح، من غير مَيْزٍ لهذا عن هذا، فهذا من قوَّاميتكم بالقسط فيما بينكم، ولا تُصلحوا الجماعة ما لم تصلحوا أنتم وتكونوا علىٰ قلب رجلٍ واحد، وتتجردوا عن الحظوظ النفسية والأغراض الشخصية، وتتذاكروا كلكم وتتباحثوا كلكم.

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) وصف الإمامُ أحمد زَرُّوق كتاب الحكم العطائية في مقدمة شرحه لها ص٢١ فقال: «عباراتُه رائقةٌ جامعة، وإشاراته فائقةٌ نافعة، تثلج الصدرَ وتبهج الخاطر، وتحرِّكُ السامعَ لها والناظر، مع تداخل علومه وحِكَمِه، وتناسُبِ حروفه وكَلِمِه»، وقد بلغت الحِكَمُ الغايةَ القصوىٰ في وجازة اللفظ البديع البليغ، مع فخامة المعاني ورقَّتِها ودقتها، حتىٰ قال الفقيه البناني: «كادت حِكَمُ ابن عطاء الله أن تكون وحياً، ولو كانت الصلاة تجوز بغير القرآن لجازت بكلام الحكم» كما في «إيقاظ الهِمَم» لابن عجيبة ص٤. الناشر.

والذي يسرد يقول للجماعة: ما ظهرَ لكم؟، بقلبٍ سليمٍ مُخبِتٍ أوّاهٍ أوّابٍ منيب. فإنّ القلوبَ ليس بينها وبين الله حجاب، فاقرعوها، واستخرجوا ما لله جلَّ اسمُه من الخبايا والأسرار في عباده.

وتمعَّنوا أسرارَ النبوة في قوله: «من رأى منكم رؤيا فليقصَّها علينا»[1] ذلك منه ليطَّلع علىٰ أسرار الله في خلقه، إذ كل أحدٍ بينه وبين الله سبحانه وِجْهةٌ خاصةٌ لا يشاركه فيها غيره.

وقد كان الناسُ زماناً لا يتصدرون في الزوايا حتىٰ يحفظوا[2] أربعة كتب:

١ ـ «إحياء علوم الدين» للغزالي.

٢ ـ «العوارف» للسهروردي.

٣ ـ «الرسالة» للقشيري.

٤ ـ «منازل السائرين» للهروي.

وابحثوا لنا عن شرح منازل السائرين، فقد شرحها خلقٌ، ومنهم الإمام ابنُ القَيِّم في أربعة أسفار، فياضيعةَ الأعمار تمشي سَبَهْلَلاً.

ونحن نعيب علىٰ الولاة عدمَ سياستهم رعاياهم بالنصيحة والتفقد، ونحن عجزنا عن إصلاح زوايانا وسياستها والألفة فيما بيننا[3]، واعلموا أن صحبةَ يومٍ نَسَبٌ قريب، وذمةٌ يحفظها اللبيب، وقال الإمام الجنيد: المواكلة مراضعة، فمن

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣٨٦)، بقريب من لفظه عن سمرة بن جندب، وهو في عدة مواضع فيه، وغيره.

(٢) في الأصل بخط الناسخ: يحفظون.

(٣) هذا من باب هضم النفس والطموح إلىٰ الأعلىٰ فقد أنتجت الطريقة في زمن مؤسسها رضي الله عنه أئمة فحولاً كباراً في العلم والعمل والجهاد، انظر ذلك في «ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد» تأليف نجل المؤلف الإمام أبي الهدىٰ محمد الباقر بن محمد الكتاني ص١٦٠.

واكلتموه صارَ رحماً في الدين تتأكد مواصلته، ويتأكد الذب عنه والدفاع عنه، والسعي في وصول الخيرات إليه.

وكل مَن أخلَّ منكم بضابطٍ من هذه الضوابط المرعية، فأعلمونا بذلك حتىٰ لا يختل أمرُ أحوال الإخوان، وقد استرعانا ـ جَلَّ أمرُه ـ هذه الرعية فإذا لم نحطها بالنصيحة أوشك أن يعمنا الله سبحانه بعذابه، عَفْوَكَ يا لطيف.

[الدعوة إلىٰ تأليف رسائل في الطريق]

وكل ما يُحتاج إليه من الرسائل في هذا الباب فألِّفوه، ألِّفوا رسائلَ في مداخل الشيطان، وليكن التعبير عنها بالأذواق لا بالتقوّل، فإن دائرةَ المعاني أوسع من دائرة الألفاظ، ودائرةَ الصدور أوسع من دائرة المعاني، فما أحوج الناس إلىٰ رسالةٍ في هذا الموضوع.

وألِّفوا رسائلَ في الفرق بين اللمّة الملكية واللمّة الشيطانية وعلاماتِ كلٍ، وذكر الخواطر وتشعباتها، وقد كنا أرسلنا رسالةً في ذلك[1]، فلعلها تُنوسِيَت، أو لعلها أُهمِلَت، أو لعلها لم تُقرأ، أو لعلها لم تكن منها النُسَخُ، وليت شعري لو سأل سائلٌ الإخوانَ عن هذه الضروريات في الطريق ماذا كانوا يجيبونه به ؟!

وألِّفوا في أمراض القلوب وعِلَلِها ومراتب الظلام مثلَ ما عندَ صاحب «الإبريز»[2]، فما أحوج المسلمين لعلم هذا العلم لأنه لا يقبـل ـ جلَّ علمُه ـ

---

(١) فيه إشارةٌ إلىٰ مؤلَّفٍ له رضي الله عنه، وهو: «الفرق بين الواردات الإلٰهية والملكية والنفسانية والشيطانية»، وهو أحدُ رسائل هذه المجموعة المباركة ولله الحمد.

(٢) «الإبريز من كلام الشيخ عبد العزيز»، أي الإمام العارف الشريف عبد العزيز بن مسعود الدباغ الإدريسي الحسني، جمع تلميذه الإمام الفقيه المجتهد أبي العباس أحمد بن مبارك اللمطي الفاسي.

إلّا الطيب، وهذا هو الطيب: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وألِّفوا في شؤم الغفلة، وأنها هي التي أفسدت الدين وأهملت أمورَ الإسلام وشعائره، وتتبعوا آدابَ الشرع، فإنه كله في الحقيقة طردٌ لجيش الغفلة وحربٌ قدسيٌ معها، عن عقلٍ لمَن عَقَلَ أسرارَ الشريعة.

ولكن أظنكم استغنيتم عنا، فإنه لا يأتي منكم سؤالٌ عن شيء، لا في الأصول ولا في الفروع، ولا في مشكل الكتاب والسنة، ولا في باب الشهود والتجلِّي، ولكن غِناكم عنا صيَّرَ القلوبَ خراباً بَلْقَعاً يباباً: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، حتى كأنه لا شيخَ لأهلِ زاويتكم، فالأمورُ فوضىٰ عندكم.

وألِّفوا في آكدية الخشوع في الصلاة فإنه من آكد مسائل الطريق، وانظروا «إحياءَ علوم الدين» في كتاب الصلاة، فما أُتي علىٰ الملة إلّا من عدم تأبطهم للإحياء حضراً وسفراً، قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم.

ولو كنت متوليًا، وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، لسجنتُ كل من لا يخطب بها، والجموعَ التي لا تقرأ فيها، والولائم، وقد صارت جموع المسلمين اليوم كلها خوضاً في الباطل، وقد ذكر سبحانه قوماً سئلوا لأي شيء سلكوا سقر؟! فقال: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [المدثر: ٤٣-٤٥]، وكأن أعمالَ الناس اليومَ صارت أعمالَ من لا يؤمن بيوم الحساب.

[من أسباب الانحطاط ذكرُ الأحكام مجرَّدة عن أسرارها]

وألِّفوا في أسرار الشريعة ومقاصدها، فإن من أسباب انحطاط الملة ذكرُ الأحكام مجردة عن أسرارها، وقولُ أهل الفروع: هذا تعبدي. وهو عجزٌ منهم

عن بيان الحكمة والسر، والشرع كله مكشوفٌ لأهل العلم بالله، ليس عندَهم فيه شيءٌ غيرُ معقولِ المعنىٰ، «ومن يُرد الله به خيراً يُفقهه»[١]، والفقه: الفهم، أي عن الله تعالىٰ في شرعه، وهو المسمّىٰ بالغريزة في حديث: «إذا حفظ الرجلُ القرآنَ واحتسىٰ من أحاديث رسول الله وكانت هناك غريزةٌ، فهو خليفةٌ من خلفاء الرسل»[٢].

[الحض علىٰ مقاومة الإعلام الأجنبي]

وكان ينبغي لعلماء الملة لما رأوا هذه الجرائد العجمية انتشرت أن يفهموا أن ظهورَها حربٌ بالأقلام في الحقيقة لأهل الملة، فكان ينبغي لهم أن يضعوا تأليفاً، ولو أن تشترك فيه جمعيةٌ دينية، ويكلِّفَ كلُّ واحدٍ بتحرير كتابٍ فيه، ويُنسَبَ الكتبُ لجميعهم، في أسرار الشريعة المطهرة، وبيان مواقع نجومها المُقْسَم بها في قوله سبحانه: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦].

ويطبعون هذه التآليف مجاناً لله ولرسوله، وشكراً للأمانة، وحفظاً للإيمان في قلوب الأمة، ورعياً للمواطن ومقابلةِ الحرب بالسلم، وإدحاضاً للأباطيل وعرقلةً لمساعيها بالحجج الدامغة.

ويطبعوا منه الآلافَ من النسخ ويفرقوه في الدنيا لله. ولو وقع مثل هذا لحدثت أمورٌ أيضاً في العالم خيرية وسماوية، ولكن إهمال القرائح وعقمها أنتج نتائجَ وخيمةً لا تُحمد، فأنيبوا إخواني وأحبائي وتداركوا ما أمكن تداركه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١)، (٣١١٦)، ومسلمٌ (١٠٣٧)، وغيرهما عن معاوية رضي الله عنه.
(٢) لم أجده.

[الحض على المذاكرة في الأمور الذوقية]

وليتذاكر كلُّ واحدٍ يومَ جمعةٍ منكم في الأمور الذوقية النافعة بلسانٍ عامي حتىٰ يفهم كل الجُلّاس، وراعوا [حكمة] النبوة، فقد كان يعيد الكلمة ثلاثاً لتفهم عنه، هذا وهو يخاطب الصحابة، فكيف بأمثالنا؟ والله الهادي، ولتكن المذاكرة في «شرح الحكم العطائية» لابن عَبَّاد[1].

وأما الدرس في الزاوية فليدرِّس كل واحد منكم إما «الرسالةَ القيروانية»، وإما «المرشدَ»، وإما «الشمائلَ»[2]، فإذا [انتهىٰ الواحدُ] ابتدأ الآخرُ قراءةَ درس.

ولو سَلِمَت منا الصدور لحضرنا مجالسَ بعضنا بعضاً، لأنّا طالبون للحق[3] والمزيد، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها.

وأقْسَمَتْ حضرة الملك القدوس [أن لا] يجاورها أهلُ النفوس، فإن لم تكن تراه، أي: إذا زال وجودُك الوهمي [ومِتَّ]، «وربَّكَ لن يرىٰ أحدُكم ربَّه حتىٰ يموت»[4] إما الموتَ الطبيعي، وإما الموت الذي تعنيه الطائفة، وهو الفناء الحقيقي، فأديموا مجالسةَ [الحق] حتىٰ تلدَ لكم كلَّ خيرٍ وفتح، والسلام.

---

(١) المسمّىٰ «غيثَ المواهب العلية بشرح الحِكَم العطائية»، مطبوع غير طبعة. الناشر.

(٢) «الرسالة» للإمام أبي محمد ابن أبي زَيْدٍ القيرواني، مشهورةٌ سائرة، و«المرشد» هو «المرشد المعين في الضروريات من علوم الدين» للإمام عبد الواحد ابن عاشر الفاسي، كلاهما في الفقه المالكي، و«الشمائل» أي: «المحمدية» للإمام الحافظ أبي عيسىٰ الترمذي. الناشر.

(٣) في الأصل بخط الناسخ: الحق.

(٤) حديثٌ أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» (٢٩٣٠)، وأحمد (٥:٣٢٤)، وا بن ماجه (٤٠٧٧)، من حديث عمر بن الخطاب، وعبادة بن الصامت وأبي أمامة الباهلي رضي الله عنهم.

[الخاتمة: في الحض علىٰ عدم الغفلة عن الله تعالىٰ]

وعجيبٌ: يطيلُ العبدُ الغفلةَ عن ربه سبحانه فلا تجد الإنسانَ مختلياً في داره أو زاويته أو [مسجده] ويتبتل إلىٰ ربه سبحانه، حتىٰ كأنه سبحانه ما خُلقنا له وإنما خُلقنا لشهواتنا وأغراضنا! عفوَك يا حليم.

وما فرض سبحانه خمسَ صلواتٍ في اليوم والليلة إلا علىٰ أهل الغفلة والفتور، وأما الذين هم أشد حباً لربهم؛ علىٰ صلاتهم دائمون(١):

قالوا أتنسىٰ الذي تهوىٰ فقلتُ لهم ... يا قومُ مَن هوَ روحي كيف أنساه!
وكيف أنساهُ والأشيا بِهِ حَسُنَتْ ... مِن العجائبِ يَنسىٰ العبدُ مَولاه!

ومن عندَه تأليفٌ من تآليفنا فليخرجه، وليُسْرَد في الزاوية حتىٰ تُختم جميعُ كتبنا، وما احتجتموه فأرسلوا إليه.

ولما زُوِّجَ العجزُ الكَسَلَ أنتجا كل عقمٍ في العالم، ولما زُوِّجَ الانتباهَ والإنابةَ والأوبةَ والتيقظَ: أنتجوا كل حسنٍ في العالم.

وإذا كانت النفوسُ كباراً ... تَعِبَت في مُرادها الأجسامُ

فنافِسْ ببَذْلِ النفسِ فيها أخا الهوىٰ ... فإنْ قَبِلَتْها منكَ يا حَبذا البَذْلُ
ومَنْ لم يَجُدْ في حُب نُعْمٍ بنفسه ... وإن جادَ بالدنيا؛ إليه انتهىٰ البُخْلُ(٢)

والرقيبُ علىٰ هذا كله: شعلةُ النور والذكاء، العضدُ والركب سيدي محمد خير الدين؛ فإنه لا يحابي ولا يماري ولا يداري.

---

(١) أي: أن أهل الغفلة لا يهتمون بذكر الله تعالىٰ فكان ذلك فرضاً عليهم، أما أهل الولاية فتلك من بدهيّات أعمالهم، بل لهم أكثر من ذلك من قيام الليل والمجاهدات والصيام وضبط النفس، لا أن الفرائض ليست عليهم فرائض، وحاشا، فليتأمل.

(٢) البيتانِ لسلطان العاشقين عمرَ ابن الفارض. الناشر.

وسامحوني فإني رجلٌ غيورٌ علىٰ المراتب، أحبُّ أن لا تُفارِقَ صاحبَها إلا وهيَ عنه راضية، إفتاءً وتدريساً، وإمامةً ومشيخةً، وتوليةً وتقديماً، ونصحاً وخدمةً، «رحمَ الله عبداً أظهر من نفسه قوة»[١].

فالمُظْهِرُ من نفسه قوةً في دين الله ـ وإن لم يستطعها ـ يستوجبُ هذا الدعاء النبوي الذي ليس له دون الله حجاب، وأستودعكم الله والسلام علىٰ جميع الأحباب. اهـ.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢:٣٠٦)، والبخاري (٣:٣٧٦).

النفائس الكتانية
٢

سفينة المحبة

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهَدِ سنةَ ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله
وأنك رسول الله وصليت الخمس وأديت الزكاة وصمت رمضان فقال النبي
صلى الله عليه وسلم من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء
يوم القيامة هكذا ونصب إصبعيه ما لم يعق والديه رواه
الإمام أحمد والطبراني بإسناد حسن صحيح ورواه ابن خزيمة وابن حبان
في صحيحيهما باختصار قال الحافظ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ثلاثة لا
ينفع معهن عمل الشرك بالله وعقوق الوالدين والفرار من الزحف
وفي حديث سيدنا أبي هريرة أربعة يصبحون في غضب الله ويمسون في سخطه
وزاد اللعنة على واحد منهم ثلاثا ونص كلهم واحد منهم ثلاث مرات
ملعون من عمل عمل قوم لوط ملعون من عمل عمل قوم لوط ملعون من عمل عمل
قوم لوط ملعون من ذبح لغير الله ملعون من عق والديه الحديث وعن أبي
بكرة رضي الله تعالى عنه مرفوعا كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم
القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات
رواه الحاكم وإذا أصبحت فانظر إلى الله واعلم أنك لا تقدر على نفسك إلا بالله
فلا تجري حركة من نار ولا جرت جرية بالسيف ولا جرت ضربات ولا جرى النار إلا بقدرة
الله فتطلع على الأسرار وتنجو من غضب الرحمن وأكثر ما كان يدعو به صلى الله
عليه وسلم في صلاة الضحى اللهم إني أسألك توفيق أهل الهدى وأعمال أهل اليقين
ومناصحة أهل التوبة وعزم أهل الصبر وجد أهل الخشية وطلب أهل الرغبة
وتعبد أهل الورع وعرفان أهل العلم حتى أخافك اللهم إني أسألك مخافة
تحجزني عن معاصيك حتى أعمل بطاعتك عملا أستحق به رضاك وحتى أناصحك
بالتوبة خوفا منك وحتى أخلص لك النصيحة حبا لك وحتى أتوكل عليك
في الأمور حسن ظن بك سبحان خالق النار ويعود السلام على محمد وآله
ومنها أما بعد فإنه من خواص رسائل التوحيد وأعظمها النظر في فوائد
يعلم منها بالنظر والطلب أنواعه في الحكم المراد لمن فقها بلغ المؤمن من الخلق
بالضرورات والنظريات والحجج فتبين في هذا أن لبيت من أراد الله منه الحب لا
شيء من أمره وتفرع جميع القلب حول الله وجعله العلم الواحد الذي يبقى صاحبه
العلوم في جميعها صاحبه بحث المعارف في عالم الكون والفساد فيطلع على

خطايا

إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب
والحكمة وما يعترض عليه هذا التفسير بعد تفسيره صلى الله عليه وسلم لأنه قال هو
تعلم أرباب التأويل ويعلم العربية التفسير والتأويل ولا يعلمه إلا
الراسخون في العلم فطريق العلم النور والبصيرة والطهارة والتقوى بما يبشر الذي
صراط مستقيم فلا تحيدوا عنه في هذه السفينة فما بعد ذلك سبيلا إلا
الوصول إلى دار السفينة لا نجاة من تخلف عنها ولكن إذا أكرم على عبد
في نعماء بحر من أبيات وفروعها والتي أتت تنتهي وما بين واستفاد الطريق من
الشاطر والفنا وبعد ذلك يتمتع من ذلك الضعف وحفظنا من بيوت قيام الحجة
عليكم بزيادة السنة فلله الحمد والثناء على السنة بحكم الحديث واستغفر الله
لي ولكم واشكر الله لي ولكم واستوهبه لي ولكم ورضي جميعا والحمد لله رب العالمين رحيم
والصلاة على الرسول الرحيم وآله وصحبه وشيعته والسلام ومنه أما بعد
فاعلموا إخواني أن الله تعالى أعطى الذين آمنوا زيادة الخير وأعطى الجنة والظلم
وجعل الشيطان إذ بيد الكفر وما سبق إلا والذي يعرض منه حتى تضحك على أرض
الأرض النفحات الإلهية والرحمات العظيمة فيغفر ما اندرج فيهما ما أخفى
ما اختار الله نفسكما من ترضيه لدينكما محبة وعشقا وروحة وعزوة واختاره
الذي لنا ولكم وحيدا فيها الأسرار المحمدية وتنبع السنن الأحمدية فيها من رحم
ميزان الشريعة من يريد الجنة فيها ما يمسكها بغيره ما جعلها على دينه
ويفعل بكما في جانب ربكما فإنه تبارك رب العالمين لا يتخلف عن أوقات المعاينة
مع أمانة ولا يجزي إلا من خاف الله إذا عمل واتقى الله عنده سلم
عليه ها هنا أبدا لما ينقطع من ذلك في نقض العهد مع الله على نقض العهد
من بين الخلق فيكفيكما الشيطان وجميع ما يجمعكما ويجرحكما ويديكما ورجليكما
وحفظكما ومن حكمها ما تلقيا به خاصة منهم ويرض عنكما ويبرز لكم
المنزل الرحب منه ومن تقلب في الله فيغفر له بعض أهل الله وكرمت ذنوب أهل
الإسلام فليلم إذ فيه أعظم من الغفلة عن الله والظنة أبا القاسم الجنيد سيد
الطائفة وهو كذا الأولياء أهل الكرم يقيسه هو الغفلة فما تري عليه وعن
أنس بن مالك الشفاء واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإن
نسي التقم قلبه رواه ابن أبي الدنيا وأبو يعلى وخطمه فمه وعن ابن عمر رفعه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، وصلىٰ الله وسلم علىٰ سِرِّ الذات وآله وصحبه

أما بعد:

فإني فكَّرتُ في توالي رَزايا الدهر، وأمعنتُ النظرَ في تواتر سهام منايا القهر، وأطلتُ الجَوَلانَ في الحِكَمِ المُرادة من مقابلة المؤمن المُخلِصِ بالصدمات والنكبات والمِحَن، فأنتجَ لي هذا أنْ ليس مُراداً للهِ من ذلك إلا شيءٌ واحد: وهو جَمْعِيةُ القلبِ علىٰ الله، وجَعْلُهُ الهَمَّ الواحدَ الذي يكفي صاحبَهُ الهُمُوم، ويُدخِلُ صاحِبَهُ تحتَ المعارفِ في عالم الكون والفساد قبلَ التطلُّعِ علىٰ خفايا عالم القرار.

لأن الإنسانَ وُلِدَ وحدَه، وعاش وحدَه، ورَبَّتْهُ ـ رُغْماً علىٰ أنفه ـ المقاديرُ وحدَه، وماتَ وحدَه، ودخلَ قبرَه وحدَه، وسُئل وحدَه وبُعِثَ ويُسألُ يومَ القيامة وحدَه، ويدخل الجنةَ أو النارَ وحدَه.

وبعدَ أن ظهر هذا فأي فائدةٍ في الانحياشِ للخَلْقِ وجمعِ القلب عليهم، والفزع إليهم، مع أن المواضعَ التي يُحتاجون فيها كلِّها ما وجدنا واحداً منهم معنا فيها !

[صفة الصَّديق الحق]

وأيضاً العاقلُ لا يصاحب إلا مَن يُغضي عن زلاته إذا أساء، ويكون أقدرَ على وُصلتك إذا قطعته، وعلىٰ الإحسانِ أقوىٰ منكَ علىٰ الإساءة، ويحفظكَ حياً

وبعدَ المماتِ بما عندَه، ويُشتِّتُ شملَه فيكَ ليجمعَكَ، ومَن يضُرُّ نفسَه لينفعَكَ، ومن يُؤثِرُكَ بالمشتَهَيات والملذُوذاتِ وكل ما تهواه النفس، فإذا التفَتَت النفسُ وجَدَتْ هذا الأخَ أعزَّ من الكبريتِ الأحمر.

ولكن في الخبايا بقايا، [و] في الزوايا خبايا، وإذا وجدَ صاحبُ الهمّةِ العليا من يُذَكِّره اللهَ إذا رآه، ويقوِّيه ويعينُه إذا ذكرَه، ويذكِّرُه إذا نسيَه، ويُطْلِعُهُ علىٰ أسرارِ الذكر وأنوارِه ولوامِعِه ولوائحه، وطوالِعِه وبوادِهِه وشوارقه، فَلْيُفْنِ هو أيضاً أعماره فيه، ولا يَبْغِ به بدلاً، ولا يشغله عنه شاغلٌ.

[أركانُ سفينة المحبة]

سيما إنْ أركبَهُ ونصبَ له سفينةً عجيبةً تُسمّىٰ «سفينةَ المحبة»، ألواحُها من التوفيق، ومساميرُها من الجَذْبةِ الإلٰهية، وعلىٰ أركانها زواوي أربع:

[الركنُ الأول: الصبر]

الأولىٰ: مكتوبٌ عليها: هذه زاويةُ الصبر، فإن مَن لا يصبر لا ينال المُنْيَةَ والبُغية، لِمَا أنّ الغاليَ لا يكونُ الظَّفَرُ به رخيصاً، وإذا كان غالياً فغيرُ عجيبٍ بَذْلُكَ الغاليَ في الغالي، إنما العجيبُ بَذْلُكَ الغاليَ - وهو هَمُّكَ ونفسُكَ وأُوَيْقاتك، وخَلَواتُك وجَلَواتُك، وعَمَارةُ أرواحك - في الأمور الفانيةِ المتلاشية الزائلة، التي إن أصبحَتْ لا تمسي، وإن أمسَتْ لا تُصبح.

[الركنُ الثاني: الشكر]

وعلىٰ الركن **الثاني**: هذه زاويةُ الشكر، فإن الشكرَ ملزومٌ يلزمه الزيادة، ومن كان في زيادة، فهو في تَرَقٍّ، ومن كان في تَرَقٍ فهو في كمال، ومن كان

في كمالٍ فقد أصلح نفسَه، ومن أصلح فقد أخلص، ومن أخلص فقد قَرُبَ، ومن قَرُبَ فُتِحَتْ له السُّرادِقات[١]، ومن أَدْلَجَ[٢] نزلَ وعَرَّس[٣]:

إذا نحـنُ أَدْلَجْنـا وأنـتَ إمـامُنـا ... كفىٰ لِمَطـايـانـا بِـذِكْـرَاكَ هـادِيـا

ألا أيهـا الرَّكْـبُ اليَمـانُـونَ عَـرِّجُـوا ... علينـا فقـد أمسـىٰ هَـوانـا يَمـانِيـا

ومن نزلَ استقَر، ومن استقَرَّ تَمكَّن، ومن تَمكَّن تلوَّن في نفسِ التمكين، ومن تمكَّنَ طَلَبَ، ومن طلبَ وَجَدَ، ومن وَجَدَ شاهَد، ومن شاهَدَ اندَهَش، ومن اندَهَشَ طاش، ومن طاشَ مات، ومن ماتَ عاش، ومن عاشَ فات، ومن فاتَ تكلَّمَ بالمَكْنُوناتِ الغيبية، وافْتَضَّ الأبكارَ اللدُنِّيَّة، ووصلَ المعانيَ القدسية، ولاحَتْ له اللوائحُ الاكتتامية، وزُفَّتْ له العرائسُ الجَبَرُوتية، وأُعطِيَ المفاتيحَ الغيبية[٤].

وربما أحالوه علىٰ أرض المعرفة، فَزُجَّ به فيها، فشاهد أن العَرَضَ يقوم بنفسه[٥]، وعجائبَ كم آذانا أهلُ السُّوء بإفشائها.

فأُحِيلُكم إخواني علىٰ الذوق[٦]، فجِدُّوا في السير فإن الشمسَ علىٰ طرف النخيل[٧]، واجتهدوا أن لا يمرَّ بكم وقتٌ إلاَّ ولسانُكم رَطبٌ مِن ذكرِ الله، كي تأتوا بِخُبْرِ الزاوية الثانية من زوايا سفينة المحبة.

---

(١) السرادقات: جمعُ سُرادِق، وهو كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب أو خباء.

(٢) أدلج بالتخفيف: إذا سار من أول الليل.

(٣) التَّعْرِيس: نزول المسافر آخرَ الليل نزلةً للنوم والاستراحة.

(٤) أي أعطي الملكةَ في استنباط المعاني والإشارات.

(٥) عند علماء الكلام: العَرَضُ لا يقوم بنفسه.

(٦) الذوق: التمعن واستطعام المعاني ومراداتها.

(٧) في إشارةٍ إلىٰ قرب فوات الوقت، وانقضاء العمر.

[الركن الثالث: التوبة]

وعلىٰ الركن **الثالث**: هذه زاوية التوبة، فيتسارعُ طالبُ الله للاستلام بأحجارها، وتقبيلِ أماكنها، والتمرُّغ بأعتابها، ولُزُوقِ صفحاتِ الشَّيْبِ بِبقاعِها، وجَرَيانِ لآلىء الدموع السَّواكِبِ بفِنائها، والاغتسالِ بمَعِينِ عَذْبِ زُلالها، والطهارةِ من كل قاطعٍ لا يرضىٰ به عنّا، وننسلخُ من كل حالةٍ لا يرضاها اللهُ ورسولُه، ونظرُ إليها، وننظرُ أنْ لو اطَّلعَ علينا أخصُّ أوِدّائنا علىٰ هذه الحالة ـ فأحرىٰ الأجانب ـ أنرضىٰ ذلك منه ومنّا أم لا؟!، فلا أقلَّ من أن نعاملَ اللهَ هذه المعاملةَ، أنْ نعامله معاملةَ مَن إذا آستروَحْنا أنّ أحداً نستحي منه بمرأىً منا ومسمعٍ أَفَنُقْدِمُ علىٰ ذلك الفعل أم لا، حتىٰ نَدَعَهُ يطَّلعُ علينا ولا نأمنَ غائلتَه ونستحيَ من مقابلته مرةً أخرىٰ؟!

فمن كان يعلم أن الله مطَّلعٌ عليه فليعامل اللهَ معاملةَ من يَعْبدُ والناسُ ينظرون إليه، أفيَدَعُ شيئاً من التحسين والتنميق؟! لا، لا، وإن ادعىٰ أنه لا يرضىٰ بهذه الرتبة فليعامل معاملةَ مَن كأنه يرىٰ الله حالة العمل، فلينظر أيَّ شيءٍ يعمل، أيعملُ: وأعضاؤه تتقَطَّع، وفؤادُه يتفتَّت، وروحُه تضطرب، ونفسُه تتصاعدُ شوقاً إلىٰ لقائه، وعقلُه ينازعه في ترك الأغيار[1] والغِشاوات، ويدُه لا تفترُ عن العمل، ولسانُه لا يسكنُ من الذِّكر، ورجلُه لا تزال مقيمةً بالأماكن المقدَّسةِ كي يُظِلَّه اللهُ في ظله يومَ لا ظل إلاّ ظله؟ «ومنهم رجلٌ قلبُه معلَّقٌ بالمساجد، ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضت عيناه»[2].

ولا تُشترط الخلوةُ المعلومةُ في نَيل هذا الأجر، بل المرادُ منه ذكرُ الله ولو في المَلأ، غير أن قلبَه خلا عن ملاحظة غير الله، واعتبارِه: بفَنائه فيه،

---

(١) الأغيار جمع غير، والمقصود به: ما سوىٰ الله تعالىٰ.

(٢) جزءٌ من حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يومَ القيامة، أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلمٌ (٣٨) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

واستغراقِه: في محبته، واصطلامِه: تحتَ أنوار مشاهدته، وغيبوبةِ فكره: في أنوار جَبَرُوته، ووَقْفَ عقلِهِ: علىٰ اقتناص الشوارد من ميادين القُرْب، وتحبيسِ نفسه: علىٰ الفناء عن المشتهَيات والملذوذات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات والمشمومات، شُغلاً بربه، وامتلاءً بحبه، وتقرُّباً بشوقه، مؤتزِراً بصبره، متعمِّماً بخوفه، متقمِّصاً برجائه، متَمنْطِقاً بإيمانه، متسَرْوِلاً بهدايته.

ومن كان لا يعلم أن اللهَ مُطَّلعٌ عليه حالةَ العمل فالخللُ في إيمانه، وفي الحديث القدسي: «إن كنتم تعلمون أني مطلعٌ عليكم فلِمَ جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم! وإن كنتم لا تعلمون أني مطّلعٌ عليكم فالخللُ في إيمانكم»[١]، وهذا في القرآن أيضاً فاقرأوا: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ [النساء: ١٠٨]، فذَمَّ مَن يستخفي ويستحي من الناس باطّلاعهم عليه، ولا يستخفي من الله باطّلاعه عليه فيبارزُه بالعظائم.

وروىٰ الطبراني عن أبي أمامةَ رفَعه: «ثلاثةٌ في ظل الله يوم القيامة: رجلٌ حيثُ توجَّه عَلِمَ أن الله معه، ورجلٌ دعته امرأةٌ إلىٰ نفسها فتركها من خشية الله، ورجلٌ يحب الناس لجلال الله»، وفي هذا الحديث رجلٌ متروك[٢].

وفي الحديث: «من أطاع اللهَ فقد ذكر اللهَ وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومن عصىٰ اللهَ فقد نسيَ اللهَ وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن»[٣].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٨:٢٨٦ برقم ٧٩٣٥)، قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠:٢٧٩): فيه بشر بن نمير، وهو متروك.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في «سُنَنه» (٢:٦٣٠ برقم ٢٣٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١:٤٥٢ برقم ٦٨٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٢:١٥٤ برقم ٤١٣) عن واقد مولىٰ رسول الله ﷺ.

وأخرج الإمام أحمد عن عطاء بن يسار: «إن موسىٰ عليه السلام سأل الله: من تؤويه في ظل عرشك؟ قال: هم الطاهرة قلوبهم، البريئة أبدانهم، الذين إذا ذُكِرْتُ ذُكِرُوا بي، وإذا ذُكِرُوا ذُكِرْتُ بهم، الذين يُنِيبُون إلىٰ ذكري، ويغضبون لمحارمي، ويَكْلَفُون بحُبّي[١]»، زاد ابنُ المبارك: «الذين يعمرون مساجدي، ويستغفرونني بالأسحار»[٢].

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة: «ألا تدرون من السابق إلىٰ ظل الله يومَ القيامة؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: الذين إذا أُعطوا الحقَّ قبلوه، وإذا سُئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم» وهو من الأحاديث الغريبة[٣].

وفي أحاديث من يظلهم الله في ظله: «ورجلٌ يراعي الشمسَ لمواقيت الصلاة، ورجلٌ إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكتَ سكتَ عن حلم»[٤].

فهؤلاء ثمانيةَ عشرَ ممن يظلهم الله في ظله، يُزادون علىٰ السبعة في الحديث الصحيح[٥] فتصيرُ خمسةً وعشرين، وهي فائدةٌ حسنةٌ حديثية، ومن جَدَّ

---

(١) أي: يُولَعُونَ به.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» ص٧٤، وابن المبارك في «الزهد» أيضاً ص٧١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٦: ٦٧، ٦٩)، وأبو نُعيم في «الحلية» (١: ١٦) و(٢: ١٨٦-١٨٧) وقال: «هذا حديثٌ غريبٌ تفرَّدَ به ابن لهيعة عن خالد، حدّث به أحمد ابن حنبل عن يحيىٰ بن إسحاق في مسنده».

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» ص١٨٩.

(٥) وهم: «إمامٌ عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه معلَّقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتىٰ يعود إليه، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا علىٰ ذلك وافترقا عليه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». كذا لفظُ مسلمٍ في «صحيحه» (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجدَ أكثرَ من هذا، فلسنا بصدد جمعها[١].

فما دام الإنسان لم ينسلخ من كل ما لا يرضاه الله فلا يصح له التقريبُ أصلاً، لقوله تعالىٰ: «وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه»[٢].

ولا يخفاكم إخواني أن معاصي كل أحد وسيئاته بحسبه، وتذكروا قولَ الصادق: «حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين»[٣]، فاتقوا محقَّرات الذنوب فإنها تكدر معيشةَ الأرواح واقتطافاتِ العقول[٤].

وقد قال سيدنا أنس: «إنكم لتفعلون أعمالاً هي في أعينكم كالذَّرّ، وكنا نعُدُّها علىٰ عهد رسول الله من المُوبقات»، أي الكبائر والمهلكات.

فإذا أتقن هذه الزاويةَ وما تَخَطّىٰ خُطوةً إلاّ وما كُتِبَ علىٰ زاوية الركن الثالث بين عينَيه لا يفارق، لِيُعِينَه علىٰ التنصُّل، والاستغفار، والذل، والانكسارِ بين يدَي الملك القهّار: خالطت بَشاشةُ الإيمانِ القلوبَ، فيصير المرءُ يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، ويكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، ويكره أن

---

(١) عمل علىٰ جمعها غير واحدٍ من أهل العلم منهم الحافظ ابن حجر في كتابه «معرفة الخصال الموصلة للظلال»، والإمام السيوطي في كتابه «تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش» واختصره في آخرَ سمّاه «بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال»، وقد أوصلها إلىٰ سبعين خصلة.

(٢) حديثٌ قدسيٌّ أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ليس بحديث، إنما هو من كلام أبي سعيدٍ الخرّاز رضي الله عنه أحد أكابر الصوفية كما رواه عنه ابن عساكر. قاله العجلوني في «كشف الخفاء» (١:٤٢٨). ولعل المؤلفَ عناه ـ أي الخرّاز ـ بقوله: الصادق.

(٤) وفي الحديث: «إيّاكم ومحقَّرات الذنوب، فإنهنَّ يجتمِعْن علىٰ الرجل حتىٰ يُهْلِكْنَه»، أخرجه أحمد (١:٤٠٢) من حديث ابن مسعود، وأخرجه كذلك (٥:٣٣١) من حديث سهل بن سعدٍ الساعدي، رضي الله عنهما، وكذلك أخرجه الطبراني عنهما في «الكبير» (١٠٥٠٠، ٥٨٧٢). الناشر.

يُقذَفَ في الكفر بعدَ أن أنقذه الله منه كما في «صحيح البخاري» في وصف من ذاق طعم الإيمان[١].

فاحرصوا إخواني في دَرْكِ طعمِ الإيمان كي يحملَكم ذلك علىٰ المجاهدة في الطاعاتِ وامتثال القربات، وعدم المَلَل والكسل، وعدم مراقبةِ الخَلْقِ، وعدمِ الخوف منهم، وعدمِ رجاء شيءٍ منهم، وعدم جعلِهم العُمَدَ[٢] إذا دهمَتكَ المضايق الدهرية، فليكنِ اللهُ أجلَّ وأعظمَ منهم في هذا كلِّه، ذَوقاً لا لساناً وشَقْشَقةً، فإن من ذاق هذا المقام ـ ولو بطرف لسان ـ تراه ذا سكينةٍ ووقارٍ وخشيةٍ ومراقبةٍ علىٰ الدوام، ولو في حالة الأكل والشرب والتَّطيُّب والجماع والبَسْط، وصاحبَ فكرةٍ مشغولةٍ مشغولة، وصاحبَ ذكرٍ دائم، وصاحبَ إقبالٍ علىٰ الله دائم، وصاحبَ ضَحِكٍ بتبسُّمٍ وعدمِ رفعِ الصوت بالضحك، لأنه من الغَيْبَة عن الله، وعدمِ مَدِّ الرجلِ إلاّ إن استحكمَتِ الغفلةُ أو طرأ النسيان، فإن مَن عرفَ جمالَ الله وجلالَه وكمالَه جالَسه علىٰ الدوام كما تنبغي مجالسةُ الملوك، ومن لم يعرف هيبةَ الله وسطْوتَه فقد دَلَلْناهُ عليها، فليقتفِ آثارَ قومٍ طلَّقُوا الدنيا وخافوا الفِتَنا[٣].

---

(١) وهو حديثُ أنسٍ مرفوعاً: «ثلاثٌ من كُنّ فيه وجد بهنّ حلاوةَ الإيمان: مَن كان الله ورسولُهُ أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحبُّهُ إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذَف في النار»، واللفظ لمسلم (٤٣) عن أبي قلابة رضي الله عنه.

(٢) جمع عُمْدة، وهي ما يُعتمَدُ عليه، كقُرْبةٍ وقُرَب.

(٣) يشيرُ إلىٰ الأبيات المشهورة:

إنّ لله عبـاداً فُطَنـا ... طلَّقـوا الـدنيـا وخـافـوا الفِتَنـا

نظـروا فيهـا فَلَمَّـا عَلِمـوا ... أنهـا ليسـت لحـيٍّ وطنـا

جعلـوهـا لُجَّـةً واتخـذوا ... صـالـحَ الأعمـال فيهـا سُفُنـا

قال ابنُ العربي المالكي المعافري: كان كثيراً ما ينشدنا محمد بن الوليد [أي الطرطوشي].. ثم ذكر الأبيات، انظر «الصلة» لابن بشكوال (٢: ٥٧٥).

وإن قال قائلٌ: هذا الأدبُ ليس من المؤكَّدات، نقولُ له: نعم، لكن عندَ أهل الغفلة، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق: ١٤]، وفي الحديث: «استحيوا من الله حقَّ الحياء»[١]، وكان الخليلُ ﷺ يُسْمَعُ وَجِيبُ قلبه علىٰ مسافة ميلَين، أي صوتُ سقوطِ قلبه. وروت عائشةُ أنه ﷺ: «كان يُسمع من صدره أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَل، حتىٰ كان يُسمَعُ في بعض سِكَكِ المدينة»[٢]، وروىٰ ابنُ أبي شيبةَ في «المصنَّف» من قول سعيد بن المسيّب أنه رأىٰ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحُه»[٣]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقيل لخَلَف بن أيوبِ العامري البَلْخي[٤] الفقيه العابد: ألا يؤذيك الذبابُ في صلاتك فتطردها؟ قال: لا أُعوِّد نفسي شيئاً يُفسد عليَّ صلاتي، قيل له: وكيف تصبر على ذلك؟ قال: «بلغني أن الفُسّاقَ يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال: فلانٌ صبور، ويفتخرون بذلك، وأنا قائمٌ بين يدي ربي أفأتحرك لذبابة ؟!».

---

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٤: ٥٥٠ برقم ٢٤٥٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرج أبو داود (٩٠٤) وأحمد في «مسنده» (٤: ٢٥، ٢٦) وابن خزيمة في «صحيحه» (٢: ٥٣ برقم ٩٠٠) من حديث عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه: «أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يصلي - وفي رواية: رأيت النبيَّ ﷺ وهو يصلي - ولصدره أزيزٌ كأزيز المِرْجَل».

(٣) «المصنَّف» لابن أبي شيبة (٢: ٢٨٩).

(٤) الإمام المحدِّثُ المفتي العابد خلف بن أيوب أبو سعيدٍ العامري البلخي الحنفي، فقيهُ أهل بَلْخ وزاهدهم، أخذ الفقهَ عن أبي يوسفَ وابن أبي ليلىٰ، والزهدَ عن إبراهيم بن أدهم، وسمع الحديثَ من عوف بن أبي جميلة وإسرائيل ومعمر وغيرهم، قال الحافظ الخليليُّ في «الإرشاد» (١: ٢٧٤): «كبيرٌ، قديمٌ، ثقةٌ، يُذكَرُ بالزهد»، وقال في موضع آخر (٣: ٩٢٩): «صدوقٌ مشهورٌ بخراسان.. كان يُوصَفُ بالستر والصلاح والزهد، وكانَ فقيهاً علىٰ رأي الكوفيين» أي الحنفية. وفاته سنة ٢٠٥ هجرية، رحمه الله تعالىٰ. وانظر «سير النبلاء» (٩: ٥٤١). الناشر.

ويروىٰ أن أبا الحسن علياً بن أبي طالب إذا حضر وقتُ الصلاة يتزلزل ـ أي يرتعد ـ بدنُه ويتلوَّن، فقيلَ لـه: مالكَ يا أمير المؤمنين، فيقول: «جاء وقتُ أمانةٍ عرضها اللهُ علىٰ السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبَيْنَ أن يحمِلْنَها وأشفقن منها».

وقال عليُّ بن الحسين: «من اهتم بالصلوات الخمس في مواقيتها وإكمال طهورها لم يكن له في الدنيا عَيشٌ». كان إذا توضأ للصلاة تغيَّرَ لونُه وارتعد، فقيل له في ذلك فقال: «أتدرون علىٰ مَن أدخل، وبين يدَي من أقف، ولمن أخاطب، وماذا يَرِدُ عليّ ؟!».

وقد طال بنا جوادُ القلم هاهنا، وربما مُن لم يفهم إلا عكسَ ما نحن بصدده من الصَّفاء يقول: وأي مثاباتٍ لذكر الصلاة هاهنا؟! نقول له: يا أخي فإليكَ عنا، لا يكنْ بكَ ما بنا، فإنّا قومٌ نطلب اللهَ أن تكون أوقاتُنا كلُّها صلاةً، فنحن نُرَيِّض أنفسَنا علىٰ الحضور مع الله في الأوقات عسىٰ الرحماتُ الإلٰهيةُ تُلحِقُنا بالسابقين، فقد عُوِّقنا من الزَّلات[1]:

والـوُرْقُ تَشْـدُوا والأراكـةُ تنثنـي	والشمـسُ ترفُـلُ في قميصٍ أصفـرِ
والـرَّوضُ بيـن مُفَضَّـضٍ ومُـذَهَّـبٍ	والـزَّهْـرُ بيـن مُـدَرْهَـمٍ ومُـدَنَّـرِ
والنهـرُ مصقـولُ الأبـاطِـحِ والـرُّبـىٰ	والشـطُّ بيـن مُـزَعْفَـرٍ ومُعَصْفَـرِ
ما أصفَرَّ وجهُ الشمسِ عندَ غروبها	إلا لفُـرْقَـةِ حُسْـنِ هـذا المنظـرِ[2]

---

(١) أي: عُوِّقْنا من كثرة الذنوب والآثام عن الوصول إلى درجاتهم رضي الله عنهم، وهذا من تواضع المؤلف رضي الله عنه وتنزُّله مع المخاطَبين.

(٢) الوُرْق: جمع ورقاء، وهي الحمامة.

الأراكة: شجرةٌ يُستاك بعيدانها، ومنها عود الأراك.

مفضَّض: هو ما يسري فيه الماء، أو فيه بياضٌ كالفضة، والمقصود: الزهور البيضاء.

مذهَّب: أي أصفر كالذهب يعني به الورودَ الصفراء. =

وكأني بكم إخواني أهملتم ذلك الشرطَ الذي عندنا في الوِرْد، وهو محاسبة النفس، فلا تهملوه فإنه سببُ الربح الديني والدنيوي والأخروي.

[الركن الرابع: الحياء]

ثم يُقال لك: التفت إلىٰ الركن الرابع، فإذا مكتوبٌ عليه: زاوية الحياء. فتحُطُّ أثقالك واستحياءاتِكَ من الخلق ومتابعاتك معهم، وتُقْبِلُ علىٰ الله بما وُهِبْتَه من حُلَّة الحياء، و«الحياء لا يأتي إلا بخير»[١].

وارضَ اللهمَّ عن سالمٍ مولىٰ أبي حذيفةَ الذي قال فيه ﷺ: «إن سالماً ليحب اللهَ حباً لو لم يَخَفْهُ ما عصاه»[٢]، وارضَ اللهمَّ عن أبي عبيدةَ ابن الجَرّاح المَقُولِ فيه: «إنه أمينُ هذه الأمة»[٣] حتىٰ لمّا قيل لعمرَ بن الخطّاب لمّا طُعِنَ: لو استخلفتَ؟ قال: «إن تركتكم فقد ترككم مَن هو خيرٌ مني، وإن استخلفتُ فقد استخلفَ عليكم من هو خيرٌ مني، ولو كان أبو عبيدةَ بن الجرّاح حياً لاستخلفتُه، فإن سألني ربي قلتُ: سمعتُ نبيكَ يقول: إنه أمينُ هذه الأمة، ولو

= مدرهم: أي مائل الأغصان، أو أبيض شديد البياض، تشبيهاً بدرهم الفضة.
مدنر: أي أصفر كالدينار، أو لامع مبرق لنضارته.
مصقول: مستوفي الاعتدال، أي: قليل الانخفاض والنتوء.
مُزَغْفَر: أي ورديُّ اللون لكثرة الورود الوردية.
معصفر: أي مليء بنبات العُصْفُر، وهو برتقالي اللون، أو كثير الالتواء.

(١) وهو حديثٌ أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلمٌ (٣٧)، وأحمد (٤: ٤٢٧) من حديث عمرانَ بن الحُصَين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» (١: ١٧٧).

(٣) كما ورد في «صحيح مسلم» (٢٤١٩) أنّ النبيَّ ﷺ أخذ بيد أبي عبيدةَ وقال: «هذا أمين هذه الأمّة»، وفي صحيحَي البخاري (٣٧٤٤) ومسلم (٢٤١٩) عن أبي قلابة رضي الله عنه قولُه ﷺ: «إنّ لكل أمّةٍ أميناً، وإنّ أميننا أيتها الأمّة أبو عبيدة بن الجرّاح».

كان سالمٌ مولىٰ أبي حذيفة حياً لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعتُ نبيكَ يقول..» ما قدمناه آنفاً[١].

ويا لَلعجب من كون الحياء شعبةً من شُعَبِ الإيمان البضع والسبعين ومع ذلك لا توجد الشعبُ كلُّها إلا به، بشاهد ما في الحديث: «إذا لم تَسْتَحِ فاصنع ما شئت»[٢]، أي لم يبقَ لك حاجزٌ ومانعٌ يمنعُكَ عن المعصية، فتَرتَعُ إذ ذاكَ في وادي المَتالف، والله المستعان.

[أهمية الصُّحبة]

فتعلموا اليقينَ بمجالسة أهل اليقين، والخشيةَ بمجالسة أهلها، والحياءَ بمجالسة أهله، والخُلُقَ الحسنَ بمجالسة أهله.

وعن أبي أمامةَ عن النبي ﷺ: «إن لقمانَ قال لابنه: يا بُنيَّ عليكَ بمجالسة العلماء، واسمع كلامَ الحكماء، فإن اللهَ يحيي القلبَ الميتَ بنور الحكمة كما يحيي الأرضَ الميتةَ بوابِلِ المطر» رواه الطبراني في «الكبير»، وهو في «موطأ الإمام» مختصَراً، وهو من بلاغات «الموطأ»[٣].

---

(١) روىٰ نحو هذا الإمام أحمد في «مسنده» (١ :٢٠) دون تقييده بوقت طعنه، وفيه قوله رضي الله عنه: «لو أدركني أحد رجلين ثم جعلتُ إليه الأمر لوثقتُ به: سالم مولىٰ أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجرّاح».

قلت: في سنده علي بن زيدِ بن جدعان، قال الحافظ الذهبي في «سِيَرِ النُّبلاء» (١ :١٧٠): «علي بن زيد ليِّن، فإن صحَّ هذا فهو دالٌّ علىٰ جلالة هذين في نفس عمر..».

(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٠) من حديث أبي مسعودٍ البَدْري رضي الله عنه، وأوله: «إنَّ مما أدركَ الناس من كلام النبوّة الأولىٰ: إذا لم تستحِ..».

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٨:٢٣٥-٢٣٦ برقم ٧٨١٠)، «الموطأ» برواية الليثي (٢ :١٠٠٢)، وعزاه في «كنز العمّال» (٢٥٥٨٣) إلىٰ العسكري.

وعند الطبراني والعسكري عن أبي جُحَيفةَ رفَعه: «جالسوا العلماء، وسائلوا الكبراء، وخالطوا الحكماء»[١]، وعن ابن عباس: قيل يا رسولَ الله من نجالس؟ أو قال: أيُّ جُلسائنا خيرٌ؟ قال: «مَن ذكَّرَكُم اللهَ رؤيتُهُ وزاد في علمكم منطِقُه، وذكَّركم الآخرةَ عملُه»، رواه العسكري[٢].

فهَبْ أنكم لا تجدون مع مَن تجلسون، أليسَ مولانا الوالدُ[٣] يملأ أعينَ من هم أعلىٰ هِمّةً منكم؟! فلازموا مجالسَه ولا تنظروا إلا لأفعاله، ولا تهتدوا إلا بهَدْيه، فنعمَ الناصحُ ونعمَ المؤدِّب، ونعمَ السيد ونعمَ الهمام، ونعمَ الخليل ونعمَ الأخُ ونعمَ الرفيق، فلا تَغُشُّوا إخواني أنفسَكم، ولا تذهبَنَّ بكم الأباطيل.

[الدعوة إلىٰ تفقد الإخوان ومحبتهم]

وعهدَ الله بيننا[٤] إن لم تتفقدوا أحبابنا وإخواننا أينما كانوا، ولا تَدَعوا الشيطانَ يعبث بهم، ولا تزيدوهم علىٰ محبتنا فيكم، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟! وما جزاء من يُحِبُّ إلا أن يُحَبّ، وفي الحديث: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٢: ١٢٥ برقم ٣٢٤)، ولكن بلفظ: «جالسوا الكبراء، وسائلوا العلماء، وخالطوا الحكماء»، وعنده كذلك برقم (٣٢٣): «جالس العلماء، وسائل الكبراء، وخالط الحكماء»، وهو نفس سياق المصنف ولكن بصيغة الإفراد.

(٢) عزاه إلىٰ العسكري في «الأمثال» الهنديُّ في «كنز العمّال» (٢٥٥٨٨).

(٣) والده هو الإمام العلامة المفسر الفقيه المجتهد المحدِّث الحافظ أبو المكارم عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد الكتاني، ولد عام ١٢٦٨، وتوفي عام ١٣٣٣، وكان متفانياً في العلم والتعليم والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، أفنىٰ عمره في ذلك، وكان كثير التهجد، بل لا يرتاح جنبه حتىٰ يقومَ فَزِعاً من أجل قيام الليل، صوّامٌ، ذَكُورٌ، حافظٌ للكتب الستة، يستحضر أحاديثها كأصابع يده، وله مؤلفاتٌ منها: مُبْرِدُ الصوارم والأسنّة في الذبِّ عن السنة، وكتابٌ في وفرته ﷺ، وكتابٌ في شرح أبيات: «توضأ بماء الغيب»، و«نجوم المهتدين» في نصرة الصوفية في مسألة الرقص. وغير ذلك ما يقرب من الأربعين مؤلفاً أو يزيد.

(٤) والتقدير: تكونون قد خالفتموه.

وجدَ حلاوةَ الإيمان وطعمَه: أن يكونَ اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ في الله ويبغض في الله تعالىٰ، وأن توقَدَ نارٌ عظيمةٌ فَيَقَعَ فيها أحبَّ إليه من أن يشرك بالله شيئاً»، رواه البخاري ومسلم والترمذي[١].

وعن أبي هريرةَ مرفوعاً: «من سرَّهُ أن يجدَ حلاوةَ الإيمان فليحِبَّ المرءَ لا يحبه إلاّ لله» رواه الحاكم[٢]. وعن ابن عباسٍ رفَعه: «إن لله جلساءَ يومَ القيامة عن يمين العرش، وكلتا يدَي الله يمين، علىٰ منابرَ من النور، وجوههم من النور، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ولا صديقين»، قيل: يا رسولَ الله من هم؟ قال: «هم المُتحابُّون بجلالِ الله»، رواه أحمد[٣]. وعن أبي سعيدٍ الخُدْري رفَعه: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامَكَ إلا تقيٌّ» رواه ابن حِبّان في «صحيحه»[٤].

اللهم ارزقنا يا أرحمَ الراحمين افتقاراً إليكَ بقَدْرِ استغنائكَ عنّا، ويرحمُ الله أبا الحسن علياً بنَ أبي طالبٍ فإنه دخلت له رقعةٌ من عند بعض رعيته، وهو الحارث بن صَعْصَعة، يتظلم من أحد فَوَقَّعَ تحتها: «ومَن لكَ بأخيك كلِّه؟»، فيا ما أعظمها من كلمة.

وعن سيدنا أبي هريرةَ رفعه: «إنّ رجلاً زار أخاً له في قريةٍ أخرىٰ، فأرصد الله على مَدْرَجته مَلَكاً، فلما أتىٰ عليه قال: أين تريد؟ قال: أريدُ أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمةٍ تَرُبُّها؟[٥] قال: لا، غير أني أحببته في

---

(١) «صحيح البخاري » (١٦)، و«صحيح مسلم» (٦٧، ٦٨)، و«جامع الترمذي» (٢٦٢٤) من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

(٢) «المستدرك» للحاكم (١:٣)، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٢:٢٩٨، ٥٢٠).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢:١٢٤ برقم ١٢٦٨٦)، قال الحافظ الهيثمي في «المجمع» (١٠:٤٩١): «رواه الطبراني ورجاله وُثّقوا»، ولم يعزُهُ لأحمد، ولم أجده فيه.

(٤) برقم (٥٥٤) و(٥٦)، وأخرجه كذلك الترمذي (٢٣٩٥)، وأبو داود (٤٨٣٢)، وأحمد (٣:٣٨).

(٥) تربُّها: أي تقومُ بإصلاحها وتنهض إليها.

الله عز وجل، قال: فإني رسولُ الله إليك، بأن اللهَ تعالى قد أحبك كما أحببته فيه»، رواه مسلمٌ في «صحيحه»[١].

وعن عبد الله بن عمرو رضيَ الله عنهما رفَعه: «خيرُ الأصحاب عندَ الله خيرُهم لصاحبه، وخيرُ الجيران عند الله خيرُهم لجاره» رواه الترمذي وحَسَّنه[٢]. وعن أنس بن مالك رفَعه: «ما تحابَّ رجلان في الله تعالىٰ إلا كان أحبهما لله أشدهما حباً لصاحبه» رواه الطبراني وأبو يعلىٰ[٣].

وكان مولانا رسولُ الله كثيراً ما يزور رجلاً مكفوفَ البصر بالمدينة، ويجلس عنده. وفي الحديث: «من زار أخاه المسلم شيّعه سبعون ألفَ مَلَكٍ يصلُّون عليه ويقولون: اللهم كما وَصَلَه فيكَ فَصِلْه»[٤]. وفي حديث البخاري ومسلمٍ: «سبعةٌ يظلهم اللهُ في ظله يومَ لا ظلَّ إلاَّ ظلُّه»، ومنهم: «شابٌ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه معلَّقٌ بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه»[٥].

---

(١) «صحيح مسلم» (٣٨)، وهو عند الترمذي (٢٣٩١)، وأحمد (٢:٤٣٩)، وابن خزيمةَ (٣٥٨)، وغيرهم.

(٢) «الجامع الصحيح» للترمذي (١٩٤٤)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب. وأخرجه أيضاً الحاكم في «المستدرك» (١:٤٤٣)، والدارمي (٢:٢٨٤ برقم ٢٤٣٧)، وابن خزيمة (٢٥٣٩).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٠:٣٦ برقم ٥٢)، «مسند أبي يعلىٰ» (٦:١٦٣ برقم ٣٤١٩)، وأخرجه كذلك البزّار (٣٦٠٠)، وابن حبان (٥٦٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤:١٧١). قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠:٢٧٦): «رجال أبي يعلىٰ والبزّار رجالُ الصحيح غير مبارك بن فضالة، وقد وثّقه غير واحد على ضعفٍ فيه».

قلت: ومباركٌ مدلس، ولكنه صرّح بالسماع كما في «صحيح ابن حبّان» و«الأدب المفرد»، فزال المحذور من روايته إن شاء الله تعالىٰ.

(٤) عزاه في «كنز العمّال» (٢٤٦٦٤) إلىٰ «حلية الأولياء» عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٥) وقد تقدّم.

وعن أبي مسلمٍ قال: قلتُ لمعاذ: واللهِ إني لأحبُّكَ لغير دنيا أرجو أن أصيبها منك، ولا قرابةٍ بيني وبينك، قال: فلأي شيء؟ قلت: لله تعالى. قال: فجذبُ حِبْوَتي، ثم قال: أبشر إن كنتَ صادقاً، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «المتحابون في الله في ظل العرش يومَ لا ظل إلا ظله، يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء والصديقون»، قال: ولقيت عبادةَ بنَ الصامت فحدثته بحديث معاذ، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول عن ربه تبارك وتعالىٰ: «حَقَّت محبتي علىٰ المتحابِّين فيّ، [وحَقَّت محبتي علىٰ المتناصحين فيَّ]، وحَقَّت محبتي علىٰ المتزاورين فيّ، وحَقَّت محبتي علىٰ المتباذلين فيَّ، هم علىٰ منابرَ من نورٍ يَغْبِطُهم النبيون والشهداء والصديقون [بمكانهم]»، رواه ابنُ حِبّان في «صحيحه»(١).

وفي حديث شرحبيل بن السمط عن عمرو بن عَبَسة وفي آخره: «وقد حقت محبتي للذين يتصادقون من أجلي»(٢).

فبيعوا إخواني دنياكم بأخراكم، ولا تبيعوا أخراكم بدنياكم فيَصْدُقَ علينا قولُ الله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، فزُوروا في الله إخوانكم، وأطعموا في الله، وتناصحوا في الله، وتصادقوا في الله، وتباذلوا في الله، وتجالسوا في الله، وأعطوا لله، وتحابُّوا لله وفي الله وبالله، وعَظِّمُوا بعضَكم بعضاً، وتعامَوا عن زَلّاتِ بعضِكم بعضاً، فمَن لكَ بأخيكَ كلِّه؟!

---

(١) «صحيح ابن حبّان» (٢: ٣٣٨ برقم ٥٧٧ من الإحسان) قال محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط: «إسناده جيدٌ». وأخرجه الترمذي (٢٣٩٠)، وأحمد في «مسنده» (٥: ٢٣٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٠: ٧٨ بالأرقام ١٤٤-١٤٩، ١٥١، ١٦٧)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٢: ١٣١) و(٥: ١٢١-١٢٢).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١٠: ٢٣٣)، وابنُ أبي الدنيا في كتاب «الإخوان» (٩٨).

[الخاتمة]

وسيسألنا الحقُّ عن النعيم، فإنه بيَّنَ وفَسّرَ ورغَّبَ ورَهَّبَ وحَذَّرَ وأنذر، ويُروىٰ أن جابراً الجُعْفيَّ قال: دخلتُ علىٰ الباقِرِ فقال: ما تقولُ أربابُ التأويل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٨]؟ فقلتُ: يقولون: الظلُّ والماء البارد. فقال: لو أنكَ أدخلتَ بيتكَ أحداً وأقعدته في ظلٍ وأسقيته ماء بارداً، أتَمُنُّ عليه؟! فقلت: لا، قال: فاللهُ أكرمُ مِن أن يُطعِمَ عبدَهُ ويسقِيَهُ ثم يسأله عنه، فقلتُ: ما تأويلُه؟ قال: النعيمُ هو رسولُ الله ﷺ، أنعمَ الله به علىٰ هذا العالَم، فاستنقذهم به من الضلالة، أما سمعتَ قولَه تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ولا يُعترَضُ عليه هذا التفسير بعدَ تفسيره ﷺ، لأنه قال: «ما تقول أرباب التأويل؟»، ومعلومٌ الفرقُ بين التفسير والتأويلُ، والتأويل لا يعلمه إلا الراسخونَ في العلم بطريق الفكر المنوَّر والبصيرة المطهَّرة، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢١٣﴾ [البقرة: ٢١٣].

فاجتهدوا في أن تَركبوا في هذه السفينة، فما بعدَ ركوبها إلا الوصول، لكن:

إنّ السفينةَ لا تجري علىٰ اليَبَسِ[1]

---

(١) وهو شطرُ بيتٍ لأبي العَتاهية، يقول فيه:

ترجو النجاةَ ولم تسلك مسالكها إنّ السفينةَ لا تجري علىٰ اليَبَسِ

وقد جرىٰ مثلاً، انظر: «موسوعة الأمثال العربية» (٦:١١٧). ومقصوده: الحضُّ علىٰ اتخاذ الأسباب والحزم فيها.

وكنتُ أردتُ أن أذكرَ محلَّ جريانها، وبِمَ تجري، ومن أين مبدؤها، وإلىٰ أين تنتهي، وما يرىٰ راكبُها في الطريق من التباشير والمخاويف، لكن منعني من ذلك الضعف[١]، وخفتُ أن أزيدَ من قيام الحُجّة عليكم بزيادة البيان، فإن الله كَرِهَ البيانَ كلَّ البيان كما في الحديث[٢].

وأستغفرُ اللهَ لي ولكم، وأشكرُ اللهَ لي ولكم، وأستوهبه لي ولكم، وأسترحمه لي ولكم، إنه رؤوفٌ رحيم، والصلاةُ على الرؤوف الرحيم، وآله وصحبه وشيعته، والسلام.

* * *

(١) أي ضعف الناس عن مزيد العِظة وإقامة الحجّة.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨: ١٩٤-١٩٥ برقم ٧٦٩٥) من حديث أبي أُمامةَ رضي الله عنه. قال الحافظ الهيثمي في «المجمع» (٨: ١١٦): في إسناده عفير بن معدان، وهو ضعيف.

النفائس الكتانية
٣

نسخةُ مَن غابَ عنه المُطْرِب

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهَدِ بفاس سنةَ ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد نبيه الأمين وسلم
المشكاة والدوح وصحبه وسلم

الفاتحة

الحمد لله ما تبرح أنوار تجليات الغيوب على بساط الأسماء والصفات
الرحمانية الرحيمية بجميع دوائر التحققات ملكية تجري لطيف عوالم أسرار المشكاة [المتبعات]
والابتهاجات والابتهاج بها ملكا وصورة غيابا [illegible] حيثيات إشارة تتجلى
على بساط الذات [illegible] الكتابة من المشكاة كشف الصورة رونقا وبهاء بإزاحة
الحجبات وإشارة مشعشعة وما خصصت بأنوار الفرقان بنعم قرآنية تنزل
كل موضعة عنا الرفعة ونرى أسرار سكرة وما هي بسكرة [illegible] وقد
يكنا على قلوبهم أسرار المناجاة والتجليات إذ ما معنى على شهود زمانا
عبر أيامه كانا يا كل المعبود المعبود جلس كما يجلس المعبر عند قصص العطوانية
لشيوخنا الرقائق المتشعبة بالشغف من مشتهيات أوتيت جوامع الكلم
وبساط تحقيق التوحيد يتخلف على بورجيته وما بين الأكابر القوم وبنهاره
يتفكر في الترهيم الأوراد والقيم بآية على وجه من جهة عنوه باستنهاض
التنبيهات وبساط المقامات حركة الذي أنزلت على نبيه سيادة
حقيقة الشفعة من التنبيهات الذاتية مع نعت الجاهدة إن الذين عند
ربك عنوية مجهورة ربانية والذاكر لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله
يسجدون وحيوا إن الاستار حيز إنما يتجوز على قدم الرحمن أن وجوه الألف ولام
عميم اللطف متنبئة بالقسم على معنى السباحة ببيان شيء من الرموز

أنه شوهد الزوج مجهولا بالحجاز فيجد ولا يدفع عن عليه الغطاء لا تنزع تلك الأزرار الطلق
مجراه باطلاق النقل كريها من شيء يشعر به من أن ينقطع عنده هذا الغطاء كما تلك الأرواح هنا
لك مجهولة وطأ به واحملة وهذا من عادات المجاهدين النقباء إذ أو عن اطلق وإذا لقي
خان وإذا حدث كذا وأيضا وصف أيضا الحنابلة بأنهم لا يذكرونه الله إلا قليلا [illegible]
بأنه بينا ونشيج الجلد لا عندنا لا ينقطع معاني دائرة و[illegible] بالله و[illegible]
التسليمات لا [illegible] لأنها تنفر [illegible] من [illegible] إلا الخلق والأشرار
وهذا لا يعترض عليه [illegible] [illegible] على [illegible] الأشياء [illegible]
أحسن على [illegible] ومع كثرة [illegible] المشاهد [illegible] [illegible]
ومولانا الشيخ وهو [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] هذا القرن [illegible] رضي الله عنه ونفعنا بهم كما نفعنا [illegible]
[illegible]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اللهم صلِّ علىٰ سيدنا ومولانا أحمد، كهفِ الذات، ولوحِ التشكُّلات، وآله وصحبه وسلم.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ رتْقِ الأنموذُجات، ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ علىٰ بساط الأسماء والصفات، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بجميع ذرات المُنْفَعِلات، ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ لفَتْكِ عُرىٰ أزْرار التشكيكات والإيهامات والإبهامات في صورة غيابات جُبٍّ: «فزادني ثلاث حَثَيات»[(١)]، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ علىٰ بساط: إذا تَجَرَّدَت اللطائف من الشكوك كست الصورة رونقاً وبهاء بإزاحة الحيثيات، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ في الاصطفاف بأنّات القرباتِ ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ [الحج: ٢]، بنفثِ ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أزرَ المكافحاتِ والتلقِّيات إذ قاموا علىٰ شأن: «إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»[(٢)]، عند همس الفَهْوانِيّات[(٣)]، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ بالسقي في

---

(١) إشارة إلىٰ حديث أبي أمامة مرفوعاً: «إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمتي ألفاً بغير حساب» فقال يزيد بن الأخنس: والله ما أولئك في أمتك إلا كالذباب الأصهب في الذباب، فقال رسول الله ﷺ: «قد وعدني سبعين ألفاً، مع كل ألفٍ سبعون ألفاً وزادني ثلاث حثيات». رواه أحمد (٥: ٢٥٠) والترمذي (٢٤٣٧) وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجة (٤٢٨٦)، وقال المنذري في الترغيب (٤: ٤١٨): ورواته محتجٌ بهم في الصحيح.

(٢) عزاه في مجمع الزوائد ـ أي الهيثمي ـ (٩: ٢١) إلىٰ البزار وقال: وفيه حفص بن عمارة الطاحي ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا (اهـ) بغير قوله: «أجلس..!». ولكن أورد آثاراً بمعناه.

(٣) يقال فهوتُ عنه أي سهوتُ.

مُسمياتِ: «أوتيت جوامع الكلم»[١]، في بساطِ بحثية الوجود المطلق علىٰ برزخية «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء علىٰ وجهه في جنة عدن»[٢] باستهلاك الأثْنَيْنِيَات في بساط المنادمات، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بأن هُيِّؤوا للسقي من التجليات الذاتية مع نعت المجاهدات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ عندية مجهولةَ العين والأثر ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، في جدولِ: «إنما الساجدُ يسجد علىٰ قدم الرحمٰن»، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ بالصبر علىٰ مقتضىٰ السياسة ينال شرف الرياسة /١/، لأن النفوسَ المتجوهِرةَ تترك الشهواتِ البهيمية طبعاً لا خوفاً علىٰ ناموس الخيالات، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ في ميادين التحكُّمات العقلية الظلمانية المستقرة تحت مقعَّرِ فلكِ القهر، وكل ذلك في عالم الكثافات، والوجودُ المطلَقُ عزَّ إدراكه حتىٰ من باب الإطلاقات[٣].

أما بعد، فيقول محمد بن عبد الكبير الأحمدي الإبراهيمي الصديقي الأويسي الكتاني: هذا قانونٌ سمّاه: «نسخةُ من غاب عنه المطرب».

[المقدمة: في العدل]

وإنّ أحقَّ ما استحكمت فيه نفوسُ أولي النظر وانقادت إليه آراء أهل الفِكَر وحلّت الشبهَ عنه نواظرُ المتصفِّحين، وأمضت به عزائمَها قلوبُ المعتبرين: العدل، فإنه سُنْحُ[٤] العقل، وجليق[٥] النهر، وصِنْوُ الفهم، وعدو الهوىٰ، وبه امتاز الوجود الحق.

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٥٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، والإمام أحمد في «مسنده» (٢: ٣١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٤) عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه بلفظ «الكبر»، ومسلم كتاب الإيمان (١٨٠).

(٣) هذه مقدمةٌ بلسان جامع لدنيّ، فنُحيل معرفتها للذوق لطول شرحها وعُسْره.

(٤) السنحُ: بالضم اليمن والبركة.

(٥) جليق: أي وعاء، والمقصود محل نهر المعرفة.

ونحن التحفنا بالجَوْر فلأجل هذا اختل نظامُ العالم، ولم يقم علىٰ ساق، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، فالباء نقول نحن هاهنا جزائيةٌ أي: ظهر الفساد والاختلال والاعوجاج في البر والبحر جزاءً عما كسبت أيدي الناس، أي الذين نسوا توفيةَ العهد الذي عاهدوا الحقَّ عليه، فلم يوفوا بنهاهم الذي قام بهم هذا الوصف.

وأما الذين ليسوا بناسٍ، أعني الذين لم ينسوا العهدَ الذي بين الرب والمربوب في حضرة الذر، وهذا وصفٌ ذميمٌ عندَ من لا يفقه المسائل الإلهية، ووصفٌ حميدٌ عند الفقيه، فوفوا أحق ما عاهدوا عليه، ومنهم الخليل صلوات الله وسلامه عليه فوفىٰ، وفي القرآن ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النجم: ٣٧]، فوفىٰ الحقُّ عهدَه معهم فنصرَهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم: ٤٧]، ولم يضيع أجرهم كما قال يوسفُ الحُسْنِ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: ٩٠]، بل حَفِظَ مَن بَعْدَ منهم حيثُ قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، وكان بينهما سبعون جَدّاً، ومع ذلك حُفِظوا بصلاحه[1].

[الحق تعالىٰ جامعٌ للإطلاق والتقييد]

وينقدح لك يا وليّ مسألةٌ إلٰهيةٌ، وهي: أنّ الحقَّ قيد نفسَه، فهو جامعٌ للإطلاق والتقييد، والمحال هو أن نقيده بعقولنا، وآرائنا، أما هو حيث قيد نفسه فليس لنا إلا الإيمان بالغيب.

---

(١) قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية في كتابه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (٥: ٤٢٢): «حفظ الصلاح لأبيهما وما ذكر عنهما صلاحاً، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في ذريته. . .، وأخرج أحمد في «الزهد» عن كعبٍ قال: إنّ اللهَ يخلف العبدَ المؤمن في ولده ثمانين عاماً».

وهب أننا لم نطلع علىٰ ماهية المسألة فنؤمن بها إيماناً بالغيب، وبابُ الإيمان بالغيب يا وليِّ بابٌ متسعُ المجال فلا ينحصر.

ولما كان كلام الحق من هذا القبيل ولا يسع سامعَه إلا التصديق، صدَّر الحقُّ ديباجةَ كتابه فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، ثم فسَّر المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣]، فهي قاعدةٌ كليةٌ لا تنخرم ولو اجتمع الأنبياءُ والمرسلون علىٰ هذه الآية بحسب مكنوناتها عند الله ما قدروا قدرَها.

فإنّ كثيراً ممن يدّعي الإيمان بالغيب لو فتح الله له أبوابَ الغيوبات لاختل إيمانه ولم يثبت لعدم مؤالفاته إلا لعالم المحسوسات.

[سر تحسرنا علىٰ المعترضِ علينا من أهل الغفلة]

ومن هذا ينقدح لك معنىٰ تحسرنا علىٰ من يعترض علينا في إبرازنا للعلوم الخارجة عن طور العقول الظلمانية، فلو آمن بها إيماناً بالغيب لآمن بالحق وأن له شؤوناً غيبية لا تقبلها العقول التقييدية، لكن لما أنكرَنا علمنَا أنه لو برقت عليه بوارق في غيوبات الفيض الأقدس لربما تمايلت شجرةُ إيمانه فتنتثر أوراق شعب إيمانه، وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1]، لأن من اطّلع علىٰ تراكيب الكائنات وجد هذه الجزئيات متحداً بعضُها ببعض، وهذا مرتبطٌ بهذا، ومتصلٌ به كما أفصح عن ذلك حديث: «المؤمن مرآة المؤمن»[2].

ولا يخفىٰ أنك إن قابلتَ من جهة اليمين والشمال والفوق والتحت مرائي، بالضرورة ما هنا ينعكس هاهنا وبالعكس، فقوله: «المؤمن مرآة / ٣/

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلمٌ (٧١،٧٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ولكن بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ...».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أخيه»[١] المرادُ أن الانفعالَ الظاهرَ في هذه المرآة والمؤثرَ في هذه هو أثر تأثير الأسماء والصفات، المراد: أن ما في هذه المرآة يظهرُ في هذه.

ولا يخفىٰ أنا إذا قابلنا شخصاً لا نطّلع علىٰ ما في سرائره إلا مَنْ ومَنْ[٢]، وعليه فيتضح معنىٰ الحديث بما تلوناه.

وهذا الحديث يا وليُّ من أمهات الأحاديث المأخوذ منها تحقيقُ المسائل الإلٰهية الفلسفية.

[سبب اختلاف الطبائع في الإنسان]

ولما كانت هذه الهياكل مركبةً من إطلاقٍ وتقييد، وكان الوصفان علىٰ طرفَي نقيض: صار كلُّ شكلٍ يجر إلىٰ أصله. فالكثافات العنصرية تنجذب إلىٰ وكر عناصرها الظلمانية، فلا تألَفُ إلا ارتكاب النواهي ومجانبة الأوامر، وعدم المشي على متن الأخلاق وشيم المكارم، واللطافاتُ لاحقةٌ بعوالمها فلا تألف إلا امتثال الأوامر، فلا تقدر علىٰ الزجر والإقماع من الخطابات الإلٰهية، لأنها علىٰ بساط القرب فلا تألف إلا مقتضيات العصمة. فهما دائماً في التشاجر والتنافر.

فالأشكال لاحقةٌ بأشكالها كما أن الأضدادَ مباينةٌ لأضدادها، وفي معنىٰ التشاجر:

هَبَطَتْ إليكَ من المحَلِّ الأرفعِ وَرْقاءُ ذاتُ تعـزُّزٍ وتمنُّعِ[٣]

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٩١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «المؤمن مرآة المؤمن». وفي محل آخر (١٩٢٩): «إن أحدكم مرآة أخيه».

(٢) أي: إلا بصعوبةٍ ومشقّة.

(٣) ورقاء: أي حمامة.

محجوبةٌ عن كل مُقْلَةِ عارف ... وهِيَ التي سَفَرَتْ ولم تَتَبَرْقَعِ[١]
وصلت علىٰ كُرْهٍ إليكَ وربما ... كرِهَتْ فراقَكَ وهْيَ ذاتُ تفجُّعَ
أنِفَتْ وما أَلِقَتْ[٢] فلما وصلت ... أَلِفَت[٣] مجاورةَ الخرابِ البَلْقَعِ[٤]
وأظنها نسيَتْ عهوداً بالحمىٰ ... ومنازِلاً بفراقِها لم تَقْنَعِ
حتىٰ إذا اتصلت بِهَاء هُبوطها[٥] ... من فيح مركزها بذات الأجرعِ[٦]
عَلِقتْ بها هاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالمِ والطلول الخُضَّعِ
تبكي وقد نسيَتْ عهوداً بالحمىٰ ... بمدامعٍ تهمي ولمَّا تُقْلِعِ[٧]
حتىٰ إذا قَرُبَ المسيرُ إلىٰ الحِمىٰ ... ودَنَا الرحيلُ إلىٰ الفضاء الأوسعِ
وغدَتْ تُغَرِّد فوقَ ذِروة شاهقٍ ... والعِلْمُ يرفعُ كلَّ / ٤/ مَن لم يُرْفَعِ[٨]
وتعودُ عالمةً بكلِّ خَفِيَّة ... في العالَمِين فَخَرْقُها لم يُرْقَعِ
فهُبُوطُها إذْ كان ضربةَ لازمٍ ... لتكونَ سامعةً لما لم تَسْمَعِ[٩]
فلأيِّ شيءٍ أُهْبِطَتْ من شاهقٍ ... سامٍ إلىٰ قَعْرِ الحَضِيضِ الأوقَعِ[١٠]

(١) سفرت ولم تتبرقع: أي أظهرت جمالها دون ستره.
(٢) ألقت: أي ما تزينت، أو ما قامت للنزاع.
(٣) إلف: محل.
(٤) البلقع: الأرض القفر.
(٥) هاء هبوطها: أي بداية هبوطها أو حيث يظن هبوطها.
(٦) الأجرُع: أي منها ما به حجاره، ومنها رمل. أي قاسية صعبة. وعند الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في كتابه عن ابن سينا ص٨٦: «في ميم مركزها» علىٰ أن عنده سقطاً في الأبيات التي أوردها.
(٧) في المصدر السابق: تبكي إذا ذكرت دياراً بالحمىٰ.
(٨) في المصدر السابق: وبدت تغرد.
(٩) في المصدر السابق:
فهبوطها ـ إن كان ضربة لازب ـ ... لتكون سامعة بما لم تسمع
(١٠) في المصدر السابق: لازب بدل: لازم، والأوضع بدل: الأوقع.

إن كـان أرسلهـا الإلـٰـه لحكمـة　　طُويت عن الفَطِنِ اللبيبِ الأروعِ[١]
إذ عاقها الشَّرِدُ[٢] الكثيفُ فصَدَّها　　قفصٌ عن الأوجِ الفسيح الأرفع
فكـأنهـا بَـرْقٌ تـألَّـقَ[٣] بـالحمـىٰ　　ثـم انطـوىٰ فكـأنـه لـم يَلْمَـع[٤]

وكأنْ لا سبيلَ إلىٰ صيرورة عينِ النفسِ والروحِ واحدةً إلا بسلوك متن الرياضة والمجاهدة، وإلا بقيَ الإنسان منبوذاً بالعراء وهو سقيم، فلا خُبْرَ عنده ولا خَبَرَ.

[حال صوفية الزمان]

وهذا يا وليٌّ بطريق الإنصاف هو حالُ صوفية الزمان، فتجدهم قد مضت سنواتٌ عديدةٌ وهم في الأذكار والمجاهدات ولم تظهر لنا ثمرةُ مواجيدِهم ولا شطحاتِهم، ولا كثرةِ لقيهم بالأشياخ ولا كثرة سياحتهم[٥]، فأين ذهب ما ذُكر؟ مع ما انطووا عليه من كثرة الغِل والحسد والتباغض والشحناء، من تحجير الحق في طريقٍ واحد، وأنه لا يصل إليه إلا مَن سلك طريقهم، فضلّوا وأضلّوا وظنوا أنهم قد زعموا بسلوكهم طريقَ الله، ورحم الله الجنيد حيث أنشد لما رأىٰ فسادَ الحال:

أهـل التصـوّف قـد مضَـوا　　صـارَ التصـوّفُ مخـرقَـةْ
صـارَ التصـوّف ركْـوةً　　وسُجَـادة ومُـزَلَّقَـةْ

(١) الأروع: أفعل، من رائع. ويوجد بتر في الشطر الأول بمقدار كلمة واحدة لا يستقيم الوزن بدونها. وهي: إن كان أهبطها لحكمة [...]، فجبرت الشطر من المصدر السابق.

(٢) الشرد: فَعِل، مبالغة من الشرود، أي: الشارد الهارب. وفي المصدر السابق: الشرك.

(٣) تألق: ارتفع وعلا.

(٤) وهذه القصيدة هي عينية ابن سينا المعروفة. وقد نقلها الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، في ترجمة ابن سينا ضمن سلسلة: «نوابغ الفكر العربي» ص٨٥، مع اختلاف وزيادة ونقصان، واختلاف في التركيب عما بين يدينا.

(٥) في الأصل بخط الناسخ: لسياحتهم.

صـــارَ التصـــوُّفُ صيحـــةً وتَـــواجُـــداً ومطبَّقَـــةْ
كَـــذَبَتْـــكَ نفسُـــك ليـــس ذي سُنَـــنُ الطـــريـــقِ المُلْحِقَـــةْ

والله ما كنا نسمع الطريق هكذا، فما كانت الطريق إلاَّ بالمثابرة علىٰ مرابض الكلاب[1] مجاهدةً، وتحمُّلِ الأذىٰ وكفُّه رياضةً، والرحمة والشفقة والعطف علىٰ الفقراء والمسلمين كافةً تحقيقاً ومعرفة.

أين هم من أهل الصُّفة ومِن مطلَقٍ من وصفهم ذو النون المصري فقال: «هم قومٌ ذكروا الله بقلوبهم تعظيماً لربهم لمعرفتهم /٥/ بجلاله، فهم حجج الله علىٰ خَلْقه، ألبسهم الله النورَ الساطعَ من محبته، ورفعَ لهم أعلامَ الهداية إلىٰ مواصلته، وأقامهم مقامَ الأبطال لإرادته، وأفرغَ عليهم الصبرَ عن مخالفته، وطهَّرَ أبدانهم بمراقبته، وطيبهم بطِيبِ أهل معاملته، وكساهم حللاً من نسج مودته، ووضع علىٰ رؤوسهم تيجانَ مسرّته، ثم أودع القلوبَ من ذخائر الغيوب، فهي معلقةٌ بمواصلته، فِهِمَمُهم إليه سائرة، وأعينُهم بالغيب إليه ناظرة، أقدَمَهم علىٰ باب النظر من قرباته، وأجلسَهم علىٰ كراسيِّ أطباء أهل معرفته، ثم قال عز وجل: «إن أتاكم عليلٌ مِن فقدي فداووه، أو مريضٌ من فَرَقي فعالجوه، أو خائفٌ مني فأمِّنوه، أو آمنٌ مني فحذروه، أو راغبٌ في مواصلتي فمَنُّوه، أو راحلٌ نحوي فزوِّدوه، أو جبانٌ في متاجرتي فشجِّعُوه، أو آيسٌ من فضلي فَعِدُوه، أو راجٍ لإحساني فبشِّروه، أو حَسَنُ الظن فِيَّ فباسطوه، أو محبٌ فواطئوه، أو معظِّمٌ لقدري فعظموه، أو مسيءٌ بعدَ إحسانٍ فعاتبوه، أو مسترشد نحوي فأرشدوه»... إلىٰ آخر كلامه.

فهذه أحوالُ العارفين، وهكذا يا وليِّ تكون عمارةُ البواطن ومكارم الأسرار، وقد ثبت تقريعُ النبي صلىٰ الله عليه به لأصحابه المعذَّبين بمكةَ علىٰ

---

(١) إشارةً إلىٰ التواضع وهضم النفس لا على ظاهر اللفظ.

إسلامهم، ومنهم خبّابٌ رضي الله عنه، وقاسىٰ بلاءً شديداً من أجل إسلامه، وقال: شكونا إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه به ما نلقاه من البلاء وقلنا: ألا تدْعُ الله لنا؟! ألا تستنصر لنا؟! فجلس مُحْمَرّاً وجهُهُ ثم قال: «والله مَن كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيوضع المنشار علىٰ رأسه، فينشق باثنتين ما يصرفه عن دينه شيء، ويُمشط بأمشاط الحديد ما بين عصبٍ ولحمٍ ما يصرفه عن دينه شيء»[١].

أردتُ أن أكتبَ رسالةً لنفسي قصد محاورتها ومناظرتها وإبداء عُواراتها ومعايبها وإنصافي منها، وذلك /٦/ لأن محبتي فيها لها، لا لي.

[الفرق بين مَن أحبك لك ومَن أحبك لنفسك]

وكل من أحبك لك أبرز من معايبك وفضائحك ما تقر به عينكَ يومَ تجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً.

ومن أحبكَ لنفسك كتمَ معايبك، ودامت محبته لك علىٰ بساط المداراة والمداهنة، وبئست الصحبة، وبئس ابنُ عشيرةٍ من يرضىٰ بها وهو يدّعي علوَّ الهمة، وأما قول:

وعين الرضىٰ عن كل عيبٍ كليلةٌ ولكنّ عينَ السُّخْطِ تُبدي المساوِيا

فهو مقامُ من يحبك لنفسه، لا من يحبكَ لنفسك، وفي كلام أرسطوطاليس الحكيم[٢]: من لم يُردك لنفسك فهو النائي عنك وإن كان قريباً، ومن أرادك لنفسك فهو القريب، وإن تناءىٰ قرابة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢)، وأبو داود (٢٦٤٩)، والنسائي (٨:٢٠٨).

(٢) النقل في هذه المسألة نقلٌ عقلي فلسفي، ولذلك كان دأب العلماء في هذه المواطن إجازة النقل عمن سبق هذه الأمة من الحكماء والعقلاء، ومنهم فلاسفةُ اليونان كأرسطو، وأرسطوطاليس، وأفلاطون، وسقراط وغيرهم، انظر كتب الغزالي والرازي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم ممن تطرقوا إلىٰ العقليات.

وقال أيضاً: إذا تجوهرت النفوس الفلسفية لحقت بالعالم العلوي، فلا تسكن إلىٰ الهموم الترابية ولا يعترضها زللٌ.

وإياك والاكتفاء والتطبعَ والتكحُلَ، فقد قال الحكيم أيضاً: مباينة التكلف للمطبوع كمباينة الحق بالباطل. وقال من ظهرت معجزاته في المعاني: ليس التَكَحُلُ بالعينين كالكَحَلِ.

[علل الأفهام أشد من علل الأجسام]

علىٰ أنّ مَن أُصيب في جسمانيته فقد يُعرَضُ علىٰ عقاقير الطب فتنفعل فيه بخلاف من أصيب بداء الرضىٰ عن النفس أو الجهل أو قلة التدبر في الأشياء، أو قلة حُسْن السياسة، فداؤه أعظم.

وقد قال الحكيم: «علل الأفهام أشد من علل الأجسام». ومن كلام أفلاطون: من القبيح أن نمتنع من الطعام اللذيذ لتصح أجسامنا ولا نمتنع من القبائح لتقوىٰ بذلك أنفسنا.

فترىٰ الإنسانَ يدّعي الحكمةَ والعقلَ والتمييزَ والرأيَ السديدَ فإذا سمع أحداً يشتمه غضب غضباً منعه من سائر ملاذّه، وكان من حقه إذا سمع من يتكلم فيه أن يجرِّدَ نفسَه ويقول: يا نفسُ: إن كان هذا فيكِ فلأي شيء تغضبين[١]، وهل هذا إلاّ حمقٌ وجهلٌ مركَّبٌ وتعامٍ. فيتخذ من يتكلم فيه شيخَه، لأنه أطلعه علىٰ عيوب كامنةٍ فيه ولا يطلع هو عليها إلاّ بمرشد، وهذا قد شاركه في هذه /٧/ المنقبة فيُتَّخذُ في هذه المسألة.

وإن لم يكن فيه ما وُصِفَ فما معنىٰ الغضب ولأي شيءٍ يصفرُّ ويحمَرُّ ويزرَقّ؟! فيشكر الله حيثُ قدَّسه من ذلك النقص المنسوب إليه، ويحزن علىٰ

---

(١) في الأصل بخط الناسخ: تغضب.

حسناتِ أخيه كيف اجتُثَّت من أصلها ووضعت في صحيفةِ هذا المتكلِّمِ فيه، كأنه يغضب علىٰ نفسه أن وقعَتْ في مثل هذا.

وهذا الخلق من شعب الإيمان: «وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك»[١]، ثم إنك لا تتكلم في المتكلِّم فيكَ وهو غائبٌ، لأنها غيبة، وهي تعظُمُ عندَ الله بقدر ستٍ وثلاثين زنيةً إن كان ما تكلمتَ به فيه، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه، والحقُّ يقول: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٦-١٧]، فشَرَطَ عدمَ العود إليه بكونه مؤمناً، فإن لم يكن كاملَ الإيمان عادَ إليه، ولا يخلو أيضاً من أن تعيِّره والشارعُ يقول: «لا تظهر الشماتةَ بأخيك فيعافيه الله ويبتليك»[٢].

[خصائص النفس لا تزول]

وإني يا وليُّ ممن يقول بوجوب النفس، ولا يصح عندي انقطاعُ صفاتها أبداً ولا خباثثها لأن مذهبنا أن البقيةَ لا تنقطع، ومنها تنبجس مُقتضيات الأخلاط والمواد.

ومن كلام أرسطو: «النفوس المتجوهرة تأبىٰ مقارنةَ الذل جداً، وأيُّ ذلٍ أعظمُ من تحكُّمِ النفس في الإنسان، ومهما تحكَّمَ فيها وأفناها عن محسوساتها حَيِيَتْ حياةً دائمةً لا تنقطع، والنفوسُ الدَّنِية بضدِّ ذلك، ترىٰ موتَها موتَها مع أن موتَها حياتُها.

ومن كلام أرسطو في رسالةٍ للإسكندر: «واجمع في سياستك بين بِدّار أيِّ عقلٍ لا حدَّة فيه ورأيٍ لا غفلةَ معه، وامزج كل شكلٍ بشكله حتىٰ تزداد قوةً،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١ :٨٨-٨٩) عن علي عليه السلام، وابن ماجه (١٤٣٢)، والدارمي، في «سُنَنه» (٢ :٣٥٧ برقم ٢٦٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٠٦)، وغيره.

وكن عبداً للحق فعبدُ الحق حر، وليكن وَكْرُكَ الإحسان إلىٰ الخلق، ومن الإحسان وضعُ الإساءة في موضعها، وكن نَصِيحَ نفسك فليس لك أرأفُ بكَ منك، ومهما أخطأكَ شيءٌ فلا يخطيك الفكرُ في الرحيل عن هذه الدار..» إلخ.

علىٰ أن من رضيَ بجميع ما يصدر منه سُتِرَتْ عنه نقائصُه، وظهرت كمالاته، مع أن الإنسان لا يخلو من نقائصَ أبداً، فيرىٰ /٨/ غيرُه من نفسه ما لا يراه هو من نفسه، لأنه هو أنزلها منزلة الرضىٰ وغيرُه بالضرورة يفحص عن الأشياء فيرىٰ عُواراته، وصاحبها المتصف بها في غفلةٍ عن هذا لجهله، وهذا يظن أنه يحب نفسه مع أنه ـ بحسب الحقيقة ـ يبغضها لأنه يترك غيرَه يطّلع علىٰ معايبه، وهذا أجلُّ ما تتصف به النفوس الدنية.

وهذا العبرة عندَه بالظواهر وحسن الثياب وتنميق الوجه، مع أن الشارعَ يقول: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم»[1] إذاً: العبرة بالبواطن في هذه المواطن لا بالظواهر.

فالإنسانُ إنسانٌ بجوهره الروحي المتصل بالعالم العلوي لا بإنسانيته، وقد قال أرسطاطاليس: الإنسان شبحُ نورٍ روحاني، ذو عقلٍ غريزي، لا ما تراه العيون من ظاهر الصورة.

[صاحب الهمّة لا يَغترّ بالإقبال ولا بالإدبار]

فصاحبُ الهمّة لا يغترّ بالإقبال ولا بالإدبار، ولا بالذم ولا بالفقر، ولا بالغنىٰ، فالمال والحكمة متغايران فلا يجتمعان، فالحكمةُ حظ النفس الناطقة، والمالُ حظ النفس الشهوانية، والناطقةُ غالبةٌ علىٰ الشهوانية، كذا علّل

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٨:١١) وابن ماجه (٤١٤٣)، وأحمد (٢:٥٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أفلاطون، فكل مَن خاطب نفسه وأمرها بفنائها عن ملاذها وامتنعت فليُخبرها بأنّ هذا العالم خَرِبٌ، وتقدَّمَهُ الخراب، ويعقُبُه الخراب، وهَبْ أنها جَمَعَتْ هَمَّها علىٰ الدنيا ومتعلَّقاتها فعمَّا قليلٍ تفارقُها خُسْراً وحَتْماً عليها.

وإذا كان كذلك؛ فتعلم أن من رأىٰ الأمرَ يفضي إلىٰ آخِرٍ فيصير آخرُه أولاً، وقد روينا في «الصحيح» عن سيدنا ابن عمر أنه ﷺ قال له: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل»(١).

[هذا العالم ليس بمستقَر، ولكن مجازٌ للمستقَر]

ولا يخفىٰ أن هذا العالم ليس بمستقرٍ علىٰ الحقيقة، فهو مجازٌ للمستقر الحقيقي، فقد كنا علىٰ ساحل العدم، ثم أُبرِزْنا لعالَمِ المرور إلىٰ محل الحياة الدائمة إن شاء الله، فأدنىٰ شيءٍ يكفيكِ يا أيتها النفس الدنية. فلتأكل ما تجد، ولتلبس ما تجد، ولتنم علىٰ ما تجد ولو التراب(٢).

فإذا اطَّلَع علىٰ هذا /٩/ هانَتْ عليه الدنيا وسَهُلَ عليه الزهدُ فيها، سيما مع علمه بأن العبرةَ بالجوهر اللطيف السماوي لا الأرضي الترابي، وإلاّ لما بقيٰ فرقٌ بين الدوابِّ وغيرهم.

ويخبرها بأنها: هَبْ أنها ملكَتْ ما ملكَتْ واستولَتْ علىٰ ما استولَتْ، فلا تُخرِجُ معها من هذه الدار غيرَ القطن والكفن مع كثرة التسامح منهم في أنه لا يستاهله، ويكفيه كذا مع كونه ترد عليه الآخرة والحق تعالىٰ في أن يتركه لهم، ومع ذلك فربما يكون قطنه وكفنه شُعَلاً من النار عليه مع أنه شبَّ عليهما وشاب، فهكذا تفعل الدنيا بأهلها.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٤١٦)، وغيره.

(٢) كأن المؤلف ـ رضي الله عنه ـ يمزج بين أسلوب مخاطبة النفس ومخاطبة القارىء، فليتنبه لذلك.

[رفع الهمة أساسُ الكمال]

ومن هذا تعلم يا وليّ أنّ من تقدّست نفسُه عن الشهواتِ البهيمية هانت عليه مفارقةُ هذا العالم، وأما مَن تلطَّخَ بالشهواتِ وانشقَّ من الملاذِّ الحسّية ما التحق بالعالم الدوابّي والبهيمي؛ صَعُبَ عليه مفارقةُ مساكن الأجسام الترابية، فالنظرُ في عواقب الأشياء يزهِّد في حقائقها.

وقد عُلِمَ أنه لكل شيءٍ صناعةٌ، وصناعةُ العقل حسنُ التدبير والاختيار والسياسات، وقد رأىٰ أرسطو إنساناً سمين البدن فقال: ما أشدَّ عنايتكَ برفع سُورِ جسمك[1].

وهذا جافُّ الرطوبات المعنوية، فكأن ذاته شِنٌّ بالٍ، والجسمُ إذا خلا من الثراء المعنوي مات وصار في حكم الإعدام.

وهَبْ أنّ الإنسان تقوّىٰ ما تقوّىٰ ولم يُزِلْ عجزَ نفسه عن اللحوق بعالَمِها، فهو أعجزُ العاجزين، ومن كلام أرسطو: أعجز العَجَزة من قدر أن يزيل العجزَ عن نفسه فلم يقدر.

[من تمام عقل المرء عدمُ الشكوىٰ إلىٰ الآخرين]

ومن تمام عقل المرء وأناته ألا يشكوَ ما به غيرَه، لأن المشكوَّ إليه إما أنْ يواسيكَ في هَمِّك، وهذه الذروة القصوىٰ، وهو الصديق الكريم، وإما أن يسلِّيك وهي الوسطىٰ، وهو الصديق الحكيم ذو التجارب الذي جلب أشطر الدهر، وإما أن يتوجَّعَ وهذه السفلىٰ، وهو الصديق العاجز.

ولا بُدَّ من شكوىٰ إلىٰ ذي مروءةٍ يُواسِيكَ أو يُسْلِيك أو يَتَوَجَّعُ

---

(١) أي: علامتِهِ وشدته وسطوتِهِ واعتدائِهِ.

وأعظمُ الأحبة اليومَ من يتوجع ـ وإن كان فيه شيءٌ من التسلية ـ لكن هذا فرقٌ /١٠/ اتصف به العدو والصديق، فربما اختلسَ العدو وصار يتنصل، وليس مراده إلا أن يجذب ما في خباياك فيحصل له التشبُّع، وذلك أمنِيّته، فاترك الكلَّ.

بل الحيوان كلُّه متقلِّبٌ، فربما شكوته قصدَ أن يفرِّجَ عنك ما بك فتجده حيرانَ مما دهمه وهاله فيشكوك فربما تصدعت، والبنية ضعيفة، فليس من السياسة شكوىٰ بعض إلىٰ بعض، ومن لا يصلح لأحد هذه الأمور فتُترك صحبته لأن كل من أردته اليوم لدفع ملمَّة تجده إحدىٰ المصائب:

إذا كنتَ لا علمٌ لديك تُفِيدُنا ... ولا أنتَ ذو دِينٍ فترجوكَ للدِّينِ
ولا أنتَ ممَّن يُرتجىٰ لكريهةٍ ... عملنا مثالاً مثلَ شخصِكَ من طِينِ

قلت: لو كان صاحبُ هذا البيت ممن يعاشر صبيان الملإ العلوي ويتعلم منهم المدةَ: الغيبةَ المأخوذةَ من السياسة الإلٰهية ما ضيَّع الطين في تمثاله، بل الأذىٰ الذي يصيبك إنما هو ممن تعرف:

جزىٰ اللهُ خيراً كلَّ مَن ليس بيننا ... ولا بينَهُ ودٌّ ولا متعرَّف
فما هالني ضَيْمٌ ولا مَسَّنِي أذىٰ ... من الناس إلا من فتىً كنتُ أعرفُ

وكان ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلِّفهم[1] ولا ينفرهم، ويكرم كريمَ كل قوم ويولِّيه عليهم، ويحذرُ الناسَ ويحترسُ منهم من غير أن يطويَ عن أحدٍ منهم بِشْرَه ولا خُلُقَه:

مَن أحسنَ الظنَّ بأعدائِهِ ... تجرَّعَ الهَمَّ بلا كأسِ

---

(١) المقصود: الصحابةُ رضي الله عنهم.

ولو كانت لي سجيةٌ في هذا البيت لقلت بأحبابه لا بأعدائه، فالعاقلُ مَن كتم أمره ولم يَشْكُ إلىٰ أحد:

لا تُظهِــرنَّ لعـــاذرٍ أو عـــاذِلٍ حـــالَيْـك فـي السـرّاءِ والضـرّاءِ
بـــلْ حُمَّـــةُ المتـــوجِّعِيـــنَ مـــرارةٌ فـي القلـبِ مثـلَ شَمـاتـةِ الأعـداءِ

وآخر:

مالي شكوتُ إليكَ نارَ جوانحي لتكـونَ مطفِئها فكنـتَ المُشعِـلا

وقال أبو بكر عُبادة ابن ماء السماء الأندلسي[1]:

لا تشكونَّ إذا عثرتَ إلىٰ خليطٍ سوءَ حالكْ
فيريكَ ألواناً من الإذلالِ لَمْ تخطر ببالكْ

ويُقال إن رجلاً كان علىٰ عهد كسرىٰ يقول: من يشتري /١١/ ثلاثَ كلماتٍ بألف دينار. إلىٰ أن اتصل بكسرىٰ فأحضره وسأله عنها، فقال: ليس في الناس كلِّهم خيرٌ. فقال: صدقت، ثم ماذا؟ قال: ولا بد منهم، فقال صدقت، ثم ماذا؟ قال: فالبِسْهُم علىٰ قَدَر، فقال كسرىٰ: قد استوفيت المال فخذه، قال: لا حاجة لي به وإنما أردتُ أن أرىٰ من يشتري الحكمةَ بالمال.

[يجب عدم ترك المشورة]

ومع هذا فدع ما كدر وخذ ما صفىٰ، فالعالَمُ علىٰ قسمين، ويكفي في طلبه المشورة حتىٰ لو لم يكن في الوزير والصاحب إلاّ هي لكفت، وفي القرآن

---

(١) أبو بكر عُبادة بن عبد الله الأنصاري الأندلسي، المعروف بابن ماء السماء، رأسُ الشعراء في الدولة العامرية بالأندلس وشاعر عصره، وهو الذي أقامَ عماد «الموشَّحات» وهذّب ألفاظها وأوضاعها، واشتهر بها اشتهاراً غلبَ عليه. له كتابٌ في «أخبار شعراء الأندلس»، ووفاته بمالقة سنةَ ٤٢٢ هجرية. قاله في «الأعلام» (٣:٢٥٨). الناشر.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، لتستفيد منهم رأياً وعلماً، لكن لتعرفَ مقادير عقولهم وأفهامهم، وأيَّ رتبةٍ من الرتب استهلكَتْ أفكارُهم في الشَغَف عليها، فإذا شاورتهم في الأمر اجتهد كلُّ واحدٍ منهم في الوجه الأصلح في تلك الواقعة، فتصير الأرواحُ متوافقةً متطابقةً، وتطابق الأرواح الطاهرة علىٰ الشيء الواحد مما يعين علىٰ حصوله، وهذا هو السرُّ في الاجتماع عندَ الصلواتِ وكونِ صلاة الجماعة تفضلُ صلاة الفذ.

[لا بد من الخليل أن يكون وزيراً]

فقد نبّه ـ يا وليّ ـ القرآنُ علىٰ أن من أرادَ اتخاذَ خليلٍ فلا بد من أن يكون وزيراً، لقول الكليم: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾ [طه: ٢٩]، والوزيرُ مشتقٌ من الوزَر لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوَزْر وهو الحيل الذي يتحصن به، أو من المؤازرة وهي المعاونة، والمؤازرة مأخوذة من إزار الرجل، وهو الموضع الذي يشده الرجل إذا استعد لعمل أمرٍ صعب.

[العلمُ الإلٰهيُّ وحالُ المصنف في زمانه]

ثم اعلم يا وليّ أني في هذه البلاد مسجونٌ في قفصٍ لشغورها عن أرباب تحقيق العلم الإلٰهي، وهَبْ أني عثرتُ علىٰ واحد أو اثنين أجدُ مستندهم في ذلك الأنقالَ عن الكتب، وإن تلوتُ عليهم شيئاً من الكلامِ القريب العهدِ من الحق المأخوذ عنه لا عن أحدٍ تسارعوا للإنكار عليك أو اقتطفه آخرون فيسندوه لأنفسهم، ويقولون لآخرين: وردَ علينا كذا وكذا.

وهذا العلمُ لم تتقدَّم لي خبرةٌ به أصلاً، ولا تحاوَرْتُ مع أحدٍ فيه حتىٰ جاء بغتةً علىٰ العادة الإلٰهية، حتىٰ إني ببركة سيدي وروحي /١٢/ الشيخ عبد الكبير الكتاني لا آخذُ علمي إلا عن الكتاب والسنة باعتبار بطونها التي لا تنحصر، وما ذلك إلا لأنّ الحقَّ يريدُ أن لا يُخرجني عن دائرةِ قُدْسِه.

وتراني يا وليّ أقول له قال تعالىٰ بلسان عجمي، وهو يقول: قال فلان، وكل من استند في تحقيق المسائل الإلٰهية علىٰ الكتاب فلا تزيده إلا غموضاً وتحيراً، فيكون عارفاً بالحروف فيدخل في آية: ﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾[الحج: ١١]، تدبر.

وما جلستُ للتذكير إلا قهراً وحتماً وواجباً عليَّ، لكن مع هذا لا تَستقلُّ نفسي بالتدبير، لأني عالمٌ بأحكامها ومخايلها، فلو تتبعتها لتركتني زمِناً[١] ملقىٰ علىٰ الأرض، فتالله لكنتُ أنظر إلىٰ أمواج البحر وتلاطُم جوانبه وأنظر إلىٰ صدري فأجد العلم والحكمة التي يتفجر مني أكثرَ وأكثر، فأختلي بنفسي خوفَ أن يكون ذلك من باب ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: ١٧]، فيكون مكرٌ أم استدراج؟ إلىٰ أن رأيتُ رؤيا منامية، وهي:

[رؤيا منامية للمصنف رضي الله عنه]

أني رأيتُ كأني وسطَ بحرٍ طامٍ ووسطَه جدارٌ، فصرتُ أتعجب هل الجدار يثبت علىٰ الماء، مع أنه يحتاج للأساس، ولا يثبت علىٰ قعر الماء لاشتباك الماء به، والماء فيه تَثَنٍ كهيئة الزُّرُود[٢]، وفي وَجَلٍ عظيمٍ من خوف سقوطي من أعلىٰ الجدار فيتلقاني أسدٌ ضارٍ أعظم، فإذا بالجدار صار يتلو: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: ١-٥]، فشُغِلتُ عن الخوف بترنُّم الجدار فاستيقظت.

فعلمتُ أن الوحيَ منوطٌ بزلزال الأرض وإخراج الأرض أثقالَها ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

---

(١) في الأصل بخط الناسخ: زمنٌ.

(٢) الزُّرُود: ج زَرَد: وهو درعٌ منسوجٌ بتداخلٍ علىٰ هيئة مخصصة.

[حوارٌ بينه وبين نفسه]

فعلمتُ أني ظفرتُ بنفسي فقامت الحجةُ مني عليها، وقلت: يا نفسُ قد علمتُ بقصورِكِ وشدةِ اختيالك وعدمِ /١٣/ تصبُّرِكِ للأمور العِظام، فأنصفيني من نفسك بأن أذهبَ بكِ علىٰ نهجِ كتابِ الله وسنة رسوله ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال ابن مسعود: «كن أنتَ المحدِّث إذا سمعتَ يا أيها الناس» فأنا أرأفُ بكِ منكِ، وأحفظكِ من كل حافظٍ فاجعليني خليلاً صديقاً، ولا تجعليني خليلاً ماكراً. ثم أمشي بكِ علىٰ نهجِ أهل الصفّة، ثم التابعين وتابع تابعيهم لأنظرَ هل لكِ قَدَمٌ معهم أم لا.

ثم قلتُ لها: يا نفسُ، لأيِّ شيءٍ تكثرين من الكلام وقد روينا في «الصحيح» و«الموطأ» وغيرهما: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[١].

قالت: هذا ما عندك؟!!.

قلتُ: وما عندك يا جَهُولة؟!

قالت: مراده صلىٰ الله عليه به: مَن كان يؤمن بالله علىٰ سبيل اليقين والإيقان والكشف والمكافحة والعِيان، بحيثُ لا يخرج دائماً عن المعية المجهولة الذاتية، وقد ارتقىٰ عن مقام المراقبة، فليقل خيراً أو ليصمت فإنه لا يأتي إلا بخير، لأن الحقَّ مشهودٌ له علىٰ الدوام.

ومن كان بهذه الصفة حالُه بعدَ التكليف كحاله قبلَ التكليف، لا يجدُ مَلَكُ الشمال ما يكتب عليه، لأن المعصيةَ إنما تصدر حيثُ يغيب عن الحضرة العليا، فإذا صارت وكرَ ذاتِهِ كلِّها فسائرُ جزئياتها: لا يتصوَّرُ صدورُ المعصيةِ منه أصلاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨) عن أبي هريرة، ومسلمٌ «كتاب الإيمان»: (٤٨)عن أبي شريح الخزاعي، وغيرهما.

وفي الحديث: «من حفظ القرآن فقد أُدرِجَت النبوةُ بين جنبيه» أي حَفِظَ مدلولاتِ موادِّهِ في نفسه علىٰ بساط التخلُّق به في نفسه، لا الحفظ الصدري.

والمرادُ: إذا حفظ أوامرَه ونواهيَه عُصم من الوقوع في المخالفات، فالتحق بدرجة النبوة، وإنما قال: «بين جنبيه» ولم يقل: «فيه» لأنها إن أُدرِجَت فيه يصير نبياً حقيقةً، ونبوةُ التشريع انقطعت. وأما نبوةُ الإخبار عن الله فلم تنقطع، فالنبيُّ في الأصل هو المخبِرُ لكل نبأٍ مستقر، أي: خبر، فالنبيُّ بمعنىٰ المخبِرِ عن الله بالعلوم الكثيفة لا زال، بدليلِ: «قد كان فيمَن / ١٤/ قبلَكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي فعُمَر»[1]، والتحديثُ ملزومٌ يلزمه الإخبار، فالمخبِرُ عن الله نبيٌّ.

[الفرق بين المحدَّث والمناجىٰ والمكلَّم]

وهاهنا مسألةٌ: وهي أنه فرقٌ بين المحدَّث والمناجىٰ والمكلَّم، فالمحدَّثون: وُرّاث الفاروق. والمناجَون: رتبةٌ أعلىٰ من التحديث، لأن التحديثَ لا يلزم منه لُقِيُّ المحِبِّ بالمحبوب، بشاهدِ: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النساء: ٧٨]، والحديثُ هو تلاوة القرآن بمعناه بخلاف المناجاة، فيلزم منه لُقِيُّ المناجي والمناجىٰ، ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي كافحتموه بالخطاب وسألتموه ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة: ١٢].

وقد يحدَّث المحدَّثُ علىٰ لسان الهواتف أو الملائكة، أو بلسان المَظاهِر، بخلاف التناجي.

والمكالمة: هي المكالمةُ في بساط المكافحة الذاتية بشاهدِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٦٤]، فآثَرَ التعبيرَ بالاسمِ: «الله» الدالِّ علىٰ الذات بخلاف المناجاة، فإنما كانوا يكلِّمون ظاهرَ صَدَفِ جسمانيته، وأما ذاته الحقيقية فليست المناجاة معها.

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٣٩٨) عن عائشة رضي الله عنها، والترمذي (٣٦٩٣)، وغيرهما.

[البقية لا تفنىٰ ولا تعدم، وجميعُ الوجود عابدٌ لله بطريق القهر]

فقلتُ لها: يا نفسُ وقد قَدَّمتِ ـ وما بالعهد من قِدَم ـ أن البقيةَ عندكَ لا تفنىٰ ولا تقول بانعدامها عليه، فلا تأمنُ أن يدخلَ عليكَ التلبيسُ والإبهامُ من كداراتها فتقعَ في يد المكر والاستدراج فتظنَّ أنّ كلامَكَ باللهِ مع كونه بالهوىٰ، فما هذا التهافتُ والهذيان؟

قالت النفس: غيرُ خفيٍ عليك يا صَفِيِّ أنّ جميعَ من في الوجود من الحقيقة الجنية، والحقيقة الإنسانية، والحقيقة الإبليسية، كلها عابدةٌ للحق بطريق القهر الإلٰهي والعدل الأقدس، وذلك أن الحقَّ ما خلق الجنَّ والإنسَ إلا ليدوموا علىٰ عبادته، وإرادتُه لا تتخلَّف، فجميعُ من كان موجوداً أو معدوماً كلُّهُ يُطلق عليه شيءٌ، وقد أثبتَ الحقُّ في القرآن أن كلَّ من اتصف بشيئية الثبوت فهو يسبِّح الحقَّ بحمده.

ولا شك أن جميعَ ذرات الوجود شيءٌ، فهي تسبِّح قهراً عليها بطريق التوجه الإرادي، ومعلومٌ أنه يقال /١٥/ (سَبَّح) إذا نزَّه، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلىٰ: ١]، أي نزّهه عما لا يليق به، كالقول بأنه مشتقٌ، وقد كان مسمًّىً به قبلَ إيجاد الحروف الدالة عليه.

ولا غروَ أن التنزيهَ لا يهتدي له إلا من أطلق نورَ عقله فعلم أن لنا خَلْقاً وحقاً، فالحقِّية لا تنزل للخَلْقية، والخَلِيقة لا تصعد للحقية، فهذا أمرٌ ذهنيٌ يبرز للعِيان، وهو الثناء علىٰ الحق بمدلوله في صورة التسبيح.

وهذا يا وليِّ أمرٌ لا يطّلع عليه إلاّ صاحبُ عقلٍ وروحٍ وحياةٍ وتمييزٍ وإدراكٍ وعلمٍ وافر، ومزاجٍ لا يَختَلُّ ومعرفةٍ تامة، وكل هذه الأوصاف مدموجةٌ في لفظ (يسبِّح).

ومعلومٌ في الحس أن أفعالَ العقلاء تُصان عن العبث فأحرىٰ ربُّ الأربابِ ملكُ يوم الدين، كيف يصف شيئاً ويخبر عنه بأنه متصفٌ بكذا ونُحِيلُه نحن عن ظاهره لعدم مؤالفةِ عقولنا له، فهي تسبِّحُ بلسان المقال.

وهاهنا مسألة: وهي أن الوصفَ الذي قصره الحق علىٰ العلماء في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، فالآية من قصر الصفة علىٰ الموصوف، أو قل: من قصر الموصوف علىٰ الصفة، وعلىٰ كلٍ فقد شارك الحقُّ معهم في هذا المورد جنسَ الحجر[١] فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، فتدبَّر يا وليُّ هذه المسألة وتذكَّر قولَه ﷺ: «يقول الثوبُ الوسِخُ لصاحبه: إن كنت مؤمناً فاغسلني»[٢]، ولا يُعدَل عن الحقيقة إلا إذا تعذَّرت، وهي عندَه هاهنا لا يصح غيرها، فكيف تتعذر، فالثوبُ حقيقةً يتكلم مع صاحبه إلاَّ أن الناسَ مفترقون مفتقرون إلىٰ السقي من حرف الشين[٣] لا غير.

وتذكر قول القرآن: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٢٢]، والعالَم هو ما سوىٰ الله، فيدخل فيه سائر الحقائق، فكلها عندَها عجائب القدرة، واختراعاتُها وانفعالاتُها من عظم الآية الدالة علىٰ ربِّيَّةِ الحق، ولا يشعر بالآية إلا صاحبُ العقل السالم من الزيغ والخطأ، المتصف /١٦/ بالمعرفة التامة، الغير المنخرط في سلك

---

(١) في الأصل بخط الناسخ: الجن.

(٢) لم أجده.

(٣) لم أجد معنىً لحرف الشين فيما بين يدي من معاجم الصوفية، ولكن المصنف رضي الله عنه قال في «تائيته»:

لنا الخوض في بحر العجائب جهرة ولسنا أسارىٰ الغير في فك عُجْمَة

فربما لها معنىً خاص بالمصنف ـ رضي الله عنه ـ إلا إن قصد بها مقام: «الشهود».

أرباب الكثافات الأرضية، فإذاً سائر الجمادات والحيوانات كلها عندنا عارفة، وعليه فجميع حقائق الوجود عابدة الحق تعالىٰ قهراً عليها.

ففي حال غفلتنا عن الله وحال انهماكنا في المعاصي تراكيبُ هيكلنا تسبِّح الحق، وفي حال الزنىٰ وشرب الخمر والنوم والفسق وسائر أنواع الضلال كلُّها عناصرُنا وأخلاطنا وموادُّنا تسبح علىٰ سبيل القهر منا من غير شعور منا بذلك.

وعليه فما خَلُصَت لنا معصيةٌ قط إلاّ وهي مخلوطةٌ بطاعاتٍ وقرباتٍ وكمالات، فيكون الوجودُ كله منخرطاً في سلكِ: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]، و«عسىٰ» من الحق للتحقيق إلا في موضع. فإذاً مَن صدر منه ذنبٌ [فهو] مخلوطٌ بالعمل الصالح.

وكل من وقع منه هذا المزجُ البديعُ سبقت إرادةُ الحق أن لا بد من أن يتوبَ عليه. وإذا تابَ عليه تابَ هو في الحين من غير تقهقر ولا توانٍ، لقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، وهذه كلها إخباراتٌ من الحق، وفي القرآن ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، وهذه الآية وما بعدها ـ أعني: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] ـ لو قيل إنهما أرجىٰ شيء في كتاب الله ما بَعُد[١].

ثم أقامَ الحقُّ لنا عذراً فقال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝﴾ [النساء: ٢٨]، وإذا كانت بنْيتُه كذلك فكيف لا يخفِّفُ عنه؟! وهذا من أعظم العدل الإلٰهي كيف لم يُخْلِ من عبادته ذرةً من ذرات الوجود، فلم يتركها هَمَلاً من خدمةِ عَتَبَةِ حبيبه المحمدي صلىٰ الله عليه به.

---

(١) هنا مسألةٌ عميقة جداً، قد تستعصي علىٰ الإفهام، والمؤلفُ لم يقصد قط ظاهر الكلام، إن المقصود أن المرءَ مجبورٌ علىٰ فعل الخير إن لم يكن بقصده فبالرغم عن أنفه، فعليه أن يأتيَ طائعاً لا كارهاً، أما المغفرة ـ والله أعلم ـ والرحمة هنا لا تعنيان انقطاعَ العذاب وإنما تخفيفه إلىٰ ما كان ربما أن يكون، فلتتنبه، وسوف يأتي كلام شبيه لما ذكرته، لاحقاً إن شاء الله تعالىٰ، فدقق نظرك.

فإذا أحطتَ بهذا الفيضِ الغريبِ علمتَ أننا في حال غفلتنا ونوحنا وسائر ضلالتنا وموتنا نحنُ عابدونَ الحقَّ كرهاً من حقائقنا في عين معصيتنا، فسبِّح يا وليّ أو لا تسبِّح فإنكَ مجبولٌ علىٰ العبادة كالملائكة[١].

[ما قدَّر الحقُّ علينا المعاصيَ إلاَّ في بساطِ التشريف لنا]

وهاهنا مسألةٌ عجيبة: الحقُّ ما قدَّر علينا المعاصيَ إلا في بساط التشريف لنا /١٧/ لنلتحقَ بحُلّةِ التوبة التي مُنع منها النوعُ المَلَكي والنوعُ الشيطاني.

أما المَلَك فهو طاعةٌ بلا معصية، فلم يَذُق طعماً لمقام التوبة، فنُقِصَ فَلَكُ المَلَكية عن التخلُّق بهذا الاسم ولا مفهومَ له. فكم من حضرةٍ من حضرات الأسماء لم يشربوا من عَذْب مَعِينها، كحضرة الصَّبُور، ومقام اليقين، ومقام التوكُّل، ومقام الإنفاق في السَّرّاء والضَّراء، ومقام كظم الغيظ والعفو عن الناس الذي مرتكبه سارعَ إلىٰ مغفرةٍ من ربه وجنةٍ عرضُها السماواتُ والأرض، ومقام مجاهدة النفس وغير ذلك، فصارت عصمةُ الملائكة ابتلاءً لهم، وإرسالُ الأنوار الإلٰهية علينا بالمعاصي تشريفاً[٢] وتقريباً وسبباً لارتكابِ الكمالات الإلٰهيةَ من التخلُّق بالتوّابِ والغفّارِ والستّير والحكيم.

وكل هذا يا وليّ من أثر قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فقد أعلمتكَ يا وليّ بمسألةٍ لم تخطر ببالٍ، فدَعْها في خِدْرِها.

---

(١) في هذا بعضُ توضيحٍ لما أسلفت.

(٢) هذه مسألة فلسفية عميقة أخرىٰ، والمقصودُ أن الذنبَ سببٌ للاستغفار، فكان من هذه الوجهة تشريفاً، أي للنوع كنوع، وللمستغفر خاصة وتحديداً، أما الذي لا يعي هذا ولا يستغفر فهو كالشيطان حيث يذنب ولا يحسن، وفي الحديث: «لولا أنكم تذنبون لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم» رواه ابن عساكر عن أنس، وروىٰ أحمد عن ابن عباس: «كفّارة الذنوب الندامة، ولو لم تذنبوا لأتىٰ الله بقوم يذنبون ليغفر لهم»، والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة، انظر «كنز العمال» (١٤:٢٤٦).

ومِن أثَرِ هذا أنهم لمّا وصفوا أنفسهم بالتسبيح جعلَ الحقُّ هذا الوصفَ حتىٰ في العَجْماواتِ والنباتاتِ والحيواناتِ وكلُّ مَن هو شيءٌ، فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، كأنه يقول: لا خصيصة لكم أيها الملائكةُ بالتسبيح بحمده، فتأمل الزواجرَ الإلٰهيةَ التي تقصِمُ الظهرَ وتقرعُ الدهرَ.

وإياكَ والركونَ لوعدٍ أو وعيدٍ، فعندَ المآلِ تكُرُّ علىٰ نفسك بالإبطال، وانظر المخاطِبَ بهذا الوصف مَن صِفَتُه، فكيف بكَ يا وليِّ وصِفَتِك[١].

ولا كذلك النوع الشيطاني: فهو معصيةٌ ولا طاعة، فامتازَ النوعُ الإنساني بمقام التوبةِ وحدَه، وما وصل إلىٰ حُبِّه إلاّ بارتكاب المعاصي.

قالت النفسُ: فألْقِ بالَكَ يا وليِّ في هذه المسائل الإلٰهية وأجبني بما عندك فقد أخبرتُكَ[٢] بما عندي لمّا ألقيتَ عليَّ الشبهة.

قلتُ: أيتها النفسُ، هذا كلامٌ عجيبٌ وفتحٌ غريبٌ ما /١٨/ طرق سمعنا! ولا علمناه إلىٰ الآن، والحقُّ أحقُّ أن يُتّبَع.

[لولا المعاصي ما ظهرت مقتضياتُ عدةٍ من الأسماء الإلٰهية]

قالت النفسُ: وكأنكَ يا صفيِّ أردتَ أن تتعطَّلَ جُلُّ مقتضياتِ الأسماء والصفات، ولا يظهرَ مقتضىً من مقتضياتها كالتوّاب والغفور والرحيم والرحمٰن والسلام والمؤمن والستير والعفُوّ والغفّار والقاهر، وغيرها! فرحيمٌ لمَن؟ وغافرٌ لمَن؟ وستِّيرٌ علىٰ مَن؟ لولا المعاصي ما ظهرت مقتضياتُ هذه الأسماء.

---

(١) وفي هذا شرحٌ لما مضى، فلا تنظر للوعيد فتيأسَ، أي من هذا المنحى، ولا للوعد فتتواكل أي من هذا المعنىٰ، ولكن انظر إلىٰ الله تعالىٰ المخاطِبِ لك بالوعد والوعيد، فتعبده حقَّ عبادته، بين حقوق ورجاء وشوق إليه تعالىٰ.

(٢) في الأصل بخط الناسخ: فأخبرتكَ.

قالت النفس: ولما كان فَلَكُ النبوّة ملتحِفاً بالعِصْمة وكان هذا الفتحُ يقتضي أنه لم يحصل له ذوقٌ في حضرات هذه الأسماء أيضاً، أمرَهُ الحقُّ بقولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣]، لأجل أن لا تُترَكَ حضرةٌ من تسنيم الإمدادات الإلٰهية إلا ويُعثَرَ عليها.

وبعدَ عِلْمِ أنّ النبوةَ متصفةٌ بالعصمة نعلم أن إطلاقَ الذنب في جانبهم من باب ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ [آل عمران: ٧]، وليس لنا ذوقٌ في مقاماتهم حتىٰ نعلمَ ذنبهم ما هو، واستغفارهم مِمَّ، وبكاءهم مِمَّ. وهكذا كنا نسمع من روحنا وقدوتنا الشيخ عبد الكبير الكتاني، وهذا محلٌ صعبٌ فدونكَ والكشفَ الصُّراح مع كتاب الله وسنته، فكل كشفٍ لم يعضده الكتابُ والسنة ـ أعني بواطنَ[1] الكتاب والسنة ـ فلا يُعتَدُّ به.

وهَبْ أنّ الكشفَ كيفما كان لا يخرج عن دائرة الإحاطة الإلٰهية، وإن ادعىٰ أنه من حضرة الإطلاق فليأتِ بأثرٍ منها، وهو الكتاب والسنة.

وبعدَ تعاطينا كأسَ المناقشة، واقتداحنا زنادَ المباحثة قلتُ لها: أيتها النفس، إي وربي إنه لحقٌّ، فمِن أين جاءتك هذه الحِدّة[2]؟

قالت: من كثرة مطالعتي علىٰ أحوال صبيان العالم الأقدس، فبهم اقتديتُ واكتسبت ما رأيت وسمعت، فهم المطلعون على الشؤون الإلٰهية، ومن عاشرهم اكتسب ما لهم. ومِن المعنى:

شـاوِرْ سِـواكَ إذا نـابَتْـكَ نـائبـةٌ   يوماً وإن كنتَ مِن أهلِ المَشُوراتِ
فالعينُ تلقىٰ كفاحاً ما دنا ونأىٰ   ولا تـرىٰ نفسَهـا إلا بمِـرْآةِ /١٩/

---

(١) أي: دقائق المعاني والاستنباطات.

(٢) أي: الحدة في النظر.

وآخر:

أَقْرِبْ فرأيكَ رأيُ غيرِكَ واستشِرْ ... فالحَقُّ لا يَخفىٰ علىٰ الإثنينِ

فالمَرءُ مرآةٌ تُريهِ وجهَهُ ... ويرىٰ قفاهُ بجمعِ مرآتينِ

وإيضاحُ هذا أن يجعل مرآةً بين يديه ومرآةً خلفَه تقابِلُها، بحيثُ أن تكونَ إحداهما كبرىٰ لو كان فيها إنسانٌ رأىٰ الصغيرة، وأما الصغيرتان اللتان تحجب كلٌ منهما الأخرىٰ فلا يتأتىٰ معهما مطلوب، فإذا نظر إلىٰ التي بين يديه اتصل منه شعاعُ بصرِهِ بها، ثم انعكسَ طالباً الجهةَ التي جاء منها، لأنَّ المرآةَ في القبالة، فتتصل بالوجه وبما وراءه فيجد وراءه مرآةً أخرىٰ، فينطبع فيها ما انطبع في الأولىٰ، لأن الصورةَ تجري في الشعاع كما تقدم، فينطبع فيها وجهُه فيكون له وجهان، أحدهما في التي هي أمام، والآخرُ في التي هي وراء، يجد شعاعَ هذه المرآة التي في وجهه خلف، لأنها صقيلةٌ لا يمكنه الثبوت عليها، فيرجع إلىٰ الجهة التي تقابله فيجد القفا يتعلق به كما يتعلق بالوجه من التي هو أمامه.

فيؤول الأمر إلىٰ أن طرفَ الشعاع متصلٌ بقفاه، فتجري صورته في الشعاع حتى ينطبع في المرآة التي هي وراءه، وتؤدي المرآةُ التي فيها إلىٰ التي تقابلها، فينطبع القفا في التي هي أمامه فيرىٰ لنفسه وجهين، ويرىٰ قفاه. وهذه مسألةٌ من علم المناظر.

فقلتُ لها: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف: ٧٦]، وإنَّ الحكيمَ تُريه الحكمةُ أن فوقَ علمِهِ علماً، فهو يتواضعُ لتلك الزيادةِ سواءٌ أكانت من الأدنىٰ أو المُساوي، فأحرىٰ الأعلىٰ، والجاهلُ يظن أنه قد تناهم فيسقط بجهله.

فلما وجدتُها هكذا انتظمتُ معها كأصابعِ الكف، وتألّفتُ معها تألُّفَ أصحابِ الكهف، فقلتُ لها: يا نفسُ، ما علمتُ وصفاً ذميماً يبعُدُ عن الله إلا وقد اجتمعَ فيك، فمالَكِ ارتكبتِ هذه الدناءة ورضِيتِ بهذه الخِسّة؟!

فقالت: اسلك معيَ مسلكَ التبيان، واجلُب عليَّ خيلَ البرهان، كي أنظرَ لنفسي أأنصِفُكَ أم تنصفُني ؟!

[العهدُ القديم ونُكران الناس]

فقلتُ لها: وصف اللهُ ورسولُه المنافقين،/٢٠/ واجتمعت فيكِ أوصافُهم، وقد روينا في الخبر الصحيح عند مسلمٍ وغيره: «أربعٌ مَن كنَّ فيه فهو منافقٌ خالصٌ وإن صلىٰ وصام ـ وفي روايةٍ: وزعمَ أنه مسلمٌ ـ: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر»[1].

وقد حدَّثنا الحقُّ تعالىٰ بأن نفعلَ ما به أَمر، ونكفَّ عما عنه نهىٰ، ومع ذلك خُنَّا عن العهد القديم، فعاهَدَنا الحقُّ علىٰ أسماعِ كلامه القديمِ الخارجِ عن طور ما تألفه البشر، ولولا ذلك ما أقررنا له بالربوبية، فإنه لما علم أنه لو أبرَزَنا من ساحل العدم إلىٰ ساحل الوجود وألقىٰ علينا الخطابَ لأجل التعرُّف ربما ننكر كما يُنكَر يومَ القيامة لمّا يتجلىٰ في صورةٍ لم تتقدَّم لهم خبرةٌ بها، فيقولون: ها نحن في مكاننا حتىٰ يأتينا ربنا.

فنقول: لم تتقدمْ لنا معرفةٌ بكَ ولا بما تفردت به ولا بما اشتركنا فيه من حيثُ النسبة الارتباطية، ومع هذا أوجدتّنا ولا نعلم شيئاً كما قلتَ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾، والبطن كنايةٌ عن التنزلات من الفضاء الذاتي إلىٰ بساط الواحدية محلِّ التعريف، فهي الأمهات الحقيقة الاستبدادية ﴿ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل: ٧٨].

فهل هذا إلا تكليفٌ بما لا يُطاق؟ وهَبْ أنه ممكنٌ لكنه لم يقع، بدليل سؤال عدم وقوعه علينا في آية: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]،

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٨) بقريب منه، ومسلمٌ (٥٨) عن عبد بن عمرو رضي الله عنه، وغيرهما.

و(ما) من صيغ العموم، فيدخل في عمومها التكليفُ بما لا يُطاق، وما أُمِرْنا بسؤال رَفْعِهِ حتىٰ رُفِعَ عنا: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فلما علم الحق أنا لو أُبرِزْنا لمراقي الحضرات لصرنا نُبدي هذه الحججَ وهي علينا لا لنا؛ ركَّبَ جوهرَ الروح الكلية والجزئية من عقاقيرَ من جملتها أودع فيها جاذباً قدسياً، مهما تلمّحَتْ أو لاحظَتْ ما يُشبه قرْنَ غزالةِ الحضرة طار لُبُّها وانجذب لمغناطيس ما يسمع.

[الروحُ مجبولةٌ علىٰ محبة الأشياء الحسنة]

لأن هوية الروح مجبولةٌ علىٰ محبة الحُسْن والطيب والأصوات المتنمقة والألحان المرتشقة، فهذا حظ المحقِّق من الدنيا في آية: ﴿وَلَا/ ٢١/ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، لا غير، كما أعربَ عن هذا حديثُ: «حُبِّبَ إليّ من دنياكم النساء والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»[1]، وتَذكَّر قولَه: «حُبِّبَ» بصيغة الفعل [المبني] للمجهول، للإشارة إلىٰ أن الغيرَ حَبَّبَ إليه هذه المستحسنات علىٰ سبيل الكُرهِ منه، وأما لو خُلِّيَ وسبيله لما أحبَّ إلا ما دلّت عليه آيةُ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، أي: علىٰ سبيل التجريد بدون ملاحظةٍ لعالم الحس ولا لعالم مقتضياته ولا شؤونه، فلا يتعلق إلا به، لأنه حياتُه، وغيرُه فيه موتُه، والأضدادُ لاحقةٌ بأضدادها كما أنّ غيرَ المجانِس مباينٌ لغير المجانَس، فلا تآلفَ بين الأضداد كما أنه لا تخالفَ بين الأشكال.

ونستنبطُ من هذا الحديث أنّ مرادَ الحق من إبرازنا لعالم الشهادة هو: إعطاءُ عالم الحس مقتضاهُ وعدمُ إلقاء شؤونه وحركاته وأفعاله ونعوته، وإلا لو كان المرادُ هو عالمَ المعنىٰ وحدَه لتُركنا في حضرة زوايا البطون، لأنها تجريدٌ في تجريد.

---

(١) أخرجه النسائي (٧:٦١)، والإمام أحمد في «مسنده» (٣:١٢٨)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

[السر في إبرازنا لعالم الحِسّ]

وأما عالم الحس فقد كان يعلم الحقُّ أنه يشغلنا ويلهينا ويثبِّطُنا عن الطيران لعالم القدس، ومع ذلك اختاره لنا دونَ العوالم الأُخَرِ الغيبية والشهادية، وما ذلك إلا لتُقام شؤونه ومقتضياته وإعطاء حقوقه، كما ينبغي إعطاء حقوق عالم المعنىٰ.

وهذه مسألةٌ إلٰهيةٌ قلَّ من ينبِّهُ عليها من أصحابنا، لأنهم يظنون أنه شُغلٌ والطريقَ كلَّها أمرٌ بالإعراض عن عالم التكثرات والأحداث والتشبُّتِ بالعالم الأعلىٰ، وهو ظنٌّ صحيحٌ، بيدَ أنهم فاتهم علمٌ آخرُ نبَّهَ عليه سيدُنا صلىٰ الله عليه به فقال: «الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا استيقظوا»[١] أي نيامٌ عن عالم الحس لا يلتفتون إليه فلا يلاحظونه لاستغراقهم بعالم المعنىٰ...[٢]، وهو يُلحق مَن دنا منه فلا يبقىٰ له التفاتٌ لغيره، لكنه إن كان غيرَ محقِّق، وأما المحقِّقُ فهو مستيقظٌ في عالم الحس والمعنىٰ، يعطي المراتبَ حقَّها من جميع ما تطلب.

فكما أن المعنىٰ تَطَلَّبَ الاستهلاكَ فيها بالكلية، كذلك حضرةُ الحس تطلبُ /٢٢/ الاستهلاكَ فيها بالكلية، لكنهم بُدِّلُوا فهم في بساطٍ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨]، أي أيقاظاً في عالم الحس يستغرقون في صرف هياكله وهم رقودٌ عما تقتضيه هذه الملاحظة، فما حصل لهم الاستغراقُ في الحقيقة إلا بما انطوىٰ عليه جوهره القدسي.

وهاهنا قال تعالىٰ: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس: ١٠١]، وأما المؤمنون بأن الآياتِ محوٌ في وجود

---

(١) قال الحافظ زين الدين العراقي في تخريجه علىٰ «الإحياء» (٤: ٢٣): لم أجده مرفوعاً، وإنما يُعزىٰ إلىٰ علي بن أبي طالب.

(٢) كلمة مقطعة في الأصل غير واضحة.

الهُوِيّة الإطلاقية فتُغنيهم الآيات، لأنها بُدِّلت في نظر هؤلاء الذين حيروا[1] الأنام، وبقيت علىٰ ما تقتضيه صورتُها عند مَن لا يؤمن.

وهؤلاء لا يجدون قَدَماً لأنفسهم في مقام الزهد الذي هو شيءٌ عند قوم، لأن الزهدَ يكون في شيءٍ لمن يساوي جناحَ بعوضة، وأما في هذا المناطِ فلا يقدر علىٰ الزهد في ذرةٍ من ذرات الوجود. والناسُ نيامٌ عن مثل هذا المشهد، فإذا ماتوا وطاحَ رسمُهم ووسمُهم ونعتُهم انتبهوا لعالم المحسوسات فوجدوه في مكان الثبوت فأعطَوه حقَّه.

[الأصلُ هو الاستغراقُ في عالمَي الحس والمعنىٰ]

فمن استغرقَ في عالم المعنىٰ وفرَّطَ في عالم الحس فهو من العامة لا خُبْرَ عندَه ولا خَبَر، ومن استغرق في حضرة الحس قبلَ الانمحاقِ في بحر المعنىٰ وصيرورةِ الحكمِ عيناً والوجودِ مَحْواً فهو من الناس، أي الذين نسوا عهدَ الحق الذي تعاهدوا عليه.

وأما من استغرق في عالم الحس والمعنىٰ فهو رجلٌ من بني آدم، وفي القرآن ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ برِّ الحسِّ وبحرِ المعنىٰ: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي معاني الأسماء والصفاتِ المثبتةِ لهم في عين الانمحاق، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]، كالمستغرقين في بَرِّ الحس من غير ملاحظةٍ لبحر المعنىٰ، أو المستغرقين في بحر المعنى دون البر، وأولئك فُضِّلُوا علىٰ هؤلاء.

ومثال هذا: آنيتان مملوّتانِ بالماء، وماءُ هذه سُخْنٌ وماءُ هذه باردٌ، فإذا انقطعت بُخاراتُ الماءِ السخنِ وجاءَ شخصٌ: لا يميز إلا أنّ فيها ماءً، مع أن

(١) حيَّروا، أو: جَبَّروا. لم أميِّز.

حكمَ هذا انتفت عنه طبيعةُ المائية في الجملة، وهذا لا زال علىٰ مائيته لم تَسلُب عنه النار شيئاً.

ثم إن المرادَ من هذه الفذلكة هو /٢٣/ أن جوهرَ الروح معجونٌ بالجمال، فبمجرَّدِ ما أوقع الحقُّ عليه الخطابَ الأقدسَ تفتكت أزرارُه وانقطعت عُراه، فأجابَ الكلُّ كرهاً من غير شعور منه، فمَن انقطع عنه هذا الخطاب كما كُلِّمَتْ الأرواحُ هنالك فهو كذّابٌ وخائنٌ وأخلفَ[1]، وهذه من علامات النفاق: «إذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب»[2].

وأيضاً وصفَ الحقُّ المنافقين بأنهم: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢]، وهي بائنةٌ فينا، وتسبيحُ الجماداتِ عندَنا لا ينقطع، فهي ذاكرةٌ ونحن غافلون، ومجاهدةُ السُّلَحْفاة لا نقدِرُ عليها، لأنها تطوي أكثرَ من خمسةِ أشهرٍ بلا أكلٍ ولا شرب، وهذا لا يقدِرُ عليه حُلُّ الرياضيات، والجَمَلُ يصبِرُ علىٰ الماء الأيامَ المتداولة، فهو أصبرُ علىٰ الماء مع كثرة تحمله للمشاق والأخطار.

انتهىٰ ما وجد من خط ابن سيدنا ومولانا الشيخ، وهو الصنو الجليل العارف الأثيل، الذاكر النبيل، وهو ما وَجَدَ إلاَّ هذا القدرَ من خط المؤلف رضيَ الله عنه ونفعني ببركاتهما، آمين[3].

❋ ❋ ❋

---

(١) لعلّ العبارة: فمن [ادعىٰ أنه] انقطع عنه الخطاب لمّا كُلِّمَت الأرواحُ هنالك فهو كذّابٌ وخائنٌ وأخلفَ. الناشر.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) كذا بخط الناسخ، ويبدو أن المؤلف ـ رضي الله عنه ـ ألف هذه الرسالة وهو في حدود العشرين من عمره أو دونها، وقول الناسخ: «وهو ما وَجَدَ... إلخ»، المقصود والد المصنف وهو جبل السنة والدين الإمام أبو المكارم عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد الكتاني رضي الله عنه.

النفائس الكتانية
٤

الفرق بين الواردات
الرحمانية والملكية والنفسانية والشيطانية
وكلامٌ في طريقة التصرُّف

تأليف
أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني
المستشهَدِ بفاس سنةَ ١٣٢٧ هجرية
رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

من جواب الشيخ سيدي [illegible] [illegible]
[illegible]

ان اخواننا واحبابنا واودائنا الفقراء [illegible] الفقيه الحكيم الكبير [illegible]
العلامة [illegible] [illegible] بكل [illegible] العلوم [illegible]
[illegible] بجميع [illegible] الكرى [illegible]
[illegible] الاعمى [illegible] والفهماء [illegible]
[illegible] الحق [illegible] بها جميع [illegible] الملكية والملكوتية [illegible]
[illegible] الموجودة [illegible] الحاضرة [illegible] [illegible] والتيسير
[illegible] [illegible] انواع الاداب [illegible] الفقهاء
[illegible] [illegible]
ذلك [illegible] [illegible] وعلمه [illegible] الفقراء [illegible]
[illegible] كل واحد [illegible] عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] الاشتغال [illegible] العلم [illegible] الواردات [illegible]
والملكية [illegible] والشكاية [illegible] كل ما يكون [illegible] بكون
[illegible] ولا يكون [illegible] الاشتغال [illegible] [illegible]
[illegible] في العبادة [illegible] [illegible] والعكس [illegible]
ان ما [illegible] الفقراء [illegible] اكثر [illegible] اكثر [illegible] ليس
ذلك والصواب [illegible] الواردات [illegible] كلها [illegible]
الفقراء [illegible] [illegible]
[illegible] الفقراء [illegible] الله تعالى [illegible]

[illegible]

بل عام مرتب تنقسم بين الانصار محمدية والسلام والشرف بدعى السلام الانوار

فيسعنا ان نعرض منه ولا لا ولا نطالب به واننا انما اعتادنا كلام

زائد وروح نفسنا الشكلية الحرة من الفرائض البدنية ومحوا التوش

الكونية والسبب هذا التحرير العقلي موضوع هذا الايمان

وهذا الاعتقاد بالمعنى التحريرية الذاتية

بمزاماة والسلام

انتهت بحمد الله

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

من محمد بن الشيخ عبد الكبير الكتاني، كساه مولاه بأسرار السبع المثاني، آمين.

إلىٰ إخواننا وأحبّائنا، وأودّائنا المختارين من يمين القبضة الحِكْمية، المطبوعِين بطابع العناية الإلٰهية، المستظِلِّين بظل كهف رعاية رُوحِ العالمين[١]، وسرِّ أسرار الأنبياء والمرسلين، وجهِ الله المحيطِ بجميع الحقائق[٢]، والمرآة الكبرىٰ المنطبعة فيها جميع الرقائق.

فهنيئاً لكم بمحبة هذا النبي الأعظم، والنور الأتم، والقهرمان[٣] الأفخم، ﷺ، فهو الكعبةُ التي تطوف بها جميعُ أهل الحضراتِ المُلْكية والملكوتية[٤]، والمغناطيسُ الجذّابُ لجميع الأرواح الوجودية، وحضرةُ الله الخاصةُ الإطلاقيةُ

(١) المقصود به: رسول الله ﷺ، والروح المقصود به اللب والأصل والعنصر الذي به يقوم الغير، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ولولا الرحمة لما قامت العوالم كما لا يخفىٰ، وفي الأمر تفصيلٌ ليس هنا محله.

(٢) المقصود هنا بالوجه: الواجهة التي لا يُتَوَصَّلُ إلىٰ ما وراءها إلا بها، والعنصر المنعكسُ فيه ما قبلَه، إذ كان ﷺ خُلُقُهُ القرآن كما ورد في «صحيح مسلم» (١٣٩)، فهو المتجلية فيه الصفاتُ الإلٰهية التي أُمرنا بالتخلُّق بها علىٰ أكمل وجهٍ يناله مخلوقٌ.

(٣) القهرمان: أمين الداخل والخارج.

(٤) الحضرة المُلْكية: نسبةٌ إلىٰ عالم المُلْك وهو عالم الشهادة من المحسوسات الطبيعية، أما الحضرة المَلَكُوتية: فنسبةٌ لعالم الغَيب المختص بالأرواح والنفوس.

والتقييدية[1]، ولهذا يلزم أهلَ محبته ما لا يَعُدُّه الحصرُ من أنواع الآداب، وضروب التعظيمات، ويُخافُ علىٰ مَن لم يقم بذلك أن يُرمىٰ بشُهُبِ الإبعاد، ويَنال ما لا يحصىٰ من الأنكاد.

ذلك ساداتَنا أهلَ مرّاكُش من أشرافٍ وعلماء وحَمَلةِ القرآن، ومتجرِّدين، ومحترفين، كلٍّ واحدٍ باسمه:

سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالىٰ وبركاته ورضوانه وإنعاماته.

أما بعد: فطالما نضع القلمَ بالدَّواة لنراسِلَ وُصلتكم، ولم يتهيّأ ذلك لكثرة الأشغال، وعدم المُعِين، واللهُ المستعان.

[الفرق بين الواردات]

فأما الفرقُ بين الواردات الرحمانية والمَلَكية والنفسانية والشيطانية فهو: أنّ كلَّ ما يكون سبباً للخير بحيثُ يكون مأمون العاقبة ولا يكون سريعَ الانتقال إلىٰ غيره، ويحصل[2] بعدَه توجُّهٌ تامٌّ للحق، ولذةٌ عظيمةٌ مرغِّبةٌ في العبادة، فهو: مَلَكيٌ أو رحماني، وبالعكس الشيطاني.

---

(١) إذ إنه ﷺ الواسطةُ في كل خير، ولا يُتَوَصَّلُ إلىٰ الله تعالىٰ إلا عن طريقه ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهو ﷺ وعلىٰ آله مُرسَلٌ إلىٰ العوالم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وما مِن نبيٌ سبقَ إلا وأمر باتباعه إن هو جاء في زمانه، لقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١]، ولذلك قال سلطان العاشقين الإمامُ ابنُ الفارض رضي الله عنه علىٰ لسان الحضرة المحمدية:

وإنـي وإن كنـتُ ابـنَ آدمَ صـورةً   فلـي فيـه معنـىً شـاهـدٌ بـأبُـوّتـي

(٢) في «الأصل»: ولا يحصل، فيظهر أن «لا» مقحَمةٌ في السياق، فحذفناها.

وما يُقال: إن ما يظهر من القُدّام أو اليمين أكثره ملكيٌّ، ومن اليسار والخلف أكثره شيطانيٌّ، ليس ذلك من الضوابط بين الواردات، إذ الشيطان يأتي من الجهاتِ كلِّها كما نطق به القرآن الكريم: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧]، عدا جهةِ الفَوق، فإنها معصومةٌ، لأنها الوجهُ الخاصُّ الذي بين الله تعالىٰ وبين /١/ كل مخلوق.

أو يُقال: إنّ كلَّ خاطرٍ وداعٍ يدعوك إلىٰ قرب الفرائض بقطع العلائق عما سوىٰ الله تعالىٰ وتصفية [القلب] عن جميع الدواعي إلىٰ غير محبة الحق تعالىٰ: فهو خاطرٌ رحماني.

وكلُّ خاطرٍ يدعوك إلىٰ قرب النوافل بالتعبُّدات والرياضات غيرِ المفترَضة عليك، برغبة النفس في النوافل والتخلُّق بالأخلاق المرضية: فهو خاطرٌ مَلَكيٌّ رُوحاني.

وكل خاطرٍ يدعوك إلىٰ المباحاتِ من الأعمال والأحوال، من الشهواتِ ودواعيها: فهو خاطرٌ نفساني.

وكل خاطرٍ يدعوكَ إلىٰ المنكَراتِ والأخلاقِ الرَّدِية والأعمال السيئة بترك أحكام الشريعة والتهاونِ فيها والتكاسلِ في أدائها: فهو خاطرٌ شيطانيٌّ بمعاونة النفس الأمّارةِ بالسُّوء وموافقتها.

أو تقول: الخاطرُ هو ما يَرِدُ علىٰ القلب من الخطاب، أو الواردُ الذي لا عملَ للعبد فيه.

وما كان خطاباً فهو أربعةُ أقسام:

ـ ربّانيٌّ: وهو أولُ الخواطر، وهو لا يخطىء أبداً، وقد يُعرف بالقوة والتسلُّط وعدمِ الاندفاع.

ـ ومَلَكيٌّ: وهو الباعثُ علىٰ مندوب أو مفروض، ويسمّىٰ: إلهاماً.

ـ ونفسانيٌّ: وهو ما فيه حظُّ النفس، ويسمّىٰ: هاجِساً.

ـ وشيطانيٌ: وهو ما يدعو إلىٰ مخالفة الحق سبحانه، قال سبحانه: ﴿ ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ولكنّ الكلامَ علىٰ الخواطر ربما يكون في رسالةٍ مستقلة، ولنذكر هاهنا ما سمح به الوقت، فنقول:

[تربيع القلب]

إنّ جميعَ الأفعالِ الصادرةِ من الإنسان وأخلاقه مصادرُ تلك الخواطر الأربعة[1]، ولذلك قيل بتربيع القلب، يخطر كل خاطرٍ من جانب، كما أن للكعبة ـ شَرَّفَها اللهُ تعالىٰ ـ أربعةَ أركان، كلُّ ركنٍ بمقابَلَةِ خاطر القلب، غيرَ أنها في الحقيقة مكعَّبَةٌ ليست مربَّعةً، كما أشار لذلك أعلم الحكماء صلىٰ الله تعالىٰ عليه بالأدعية الموضوعة عند كل ركن.

وكأن الركنَ العراقيَّ مظهرُ الخاطر الشيطاني، فلذلك كان يستعيذ صلواتُ الله وسلامه عليه عند مقابلته من الشيطان[2]، والكعبةُ صورةُ قلوبِ الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فلذلك كانت مكعَّبةً، لأنه ليس للقوىٰ الشيطانية نفوذٌ في قلوبهم أصلاً.

فالخاطر الشيطاني ـ ومصدره مهمَلٌ عندَهم وفي نظرهم عليهم الصلاة والسلام ـ لا يذوقون له ذوقاً ولا طعماً، ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، وهو معنىٰ العصمة في لسان المتكلِّمين[3]. /٢/

---

(١) أي: الإلٰهية والملكية والنفسية والشيطانية.

(٢) وهو قولُه ﷺ: «اللهمَّ إني أعوذُ بكَ من الشك والشرك والنِّفاق والشِّقاق وسُوء الأخلاق». قال الحافظ في «التلخيص» (٢:٢٤٧): أخرجه البزّار من حديث أبي هريرةَ مرفوعاً، لكن لم يقيده بالركن ولا بالطواف.

(٣) أي: علماء التوحيد والعقائد.

ولأجل كونِ إلقاء الشيطان ووسوسته يكون بين الكتفين قريباً من اليسار بخرطوم له كالفيل، وهو في صورة ختزير، ولا يزال يوسوس ما لم يذكر المؤمن، فإذا ذكر الله تعالىٰ انخنس ـ فمن أراد قطعَ وسوسته فلا يغفل عن الذكر أصلاً ـ كان الختمُ منه صلىٰ الله تعالىٰ عليه بين الكتفين، فكان خاتمُ النبوّة ثمةَ حسماً لمادة الشيطان عنه بالكلية، ولذلك أسلمَ قرينُه الكريم فأعانه الله عليه[١].

[الذُكر يردُّ الخواطرَ الشيطانية]

ثم إن مادةَ الخواطر لا تنقطع، ولا تضعف، ولا تنخنس الإلقاءاتُ الشيطانية إلا بدوام الذكر، وعدمِ الفتور عنه لا في العادات ولا في العبادات، ولا في سائر أطوار الإنسان.

ولا يُقال: إنه يلزم علىٰ هذا أن لا يشتغلَ بغيره مع أن التكاليفَ جمّةٌ.

لأنا نقول: أولُ ما يغتنم المتعطِّشُ لصلاح حاله أن ينتهزَ فرصةً من التشويشاتِ الخارجية[٢]، كالاستماع إلىٰ حديث الناس، والداخليةِ كالجُوع المفرِطِ والغضب والألم والشِّبَع المفرِط، ثم يذكر الموت، ويُحضِرَه بين يدَيه، ويستغفرَ اللهَ تعالىٰ مما صدرَ منه من المعاصي.

[ملاحظة النورَين الجامعَين في الذكر]

ثم يقبل بكُنْهِ الهمّة علىٰ الذكر، مع ملاحظة النورَين الجامعين الكاملَين:

---

(١) كما ثبت ذلك في «صحيح مسلم» (٢٨١٥) وقد مر ذكره وتخريجه.

(٢) أي وقتاً تبعد فيه تلك التشويشات التي سيذكرها.

[النور الجامع الأول]

النور الأول، النور الأعظم المحمدي، فيشتغل بملاحظته قبلَ الذكر وحينَه، ويتخيّله أولاً مُحْدِقاً به ومُحيطاً به، ومكتَفاً له من جميع جهاته، لأنه الدليلُ والرفيقُ قبلَ الطريق، والجارُ ثم الدار.

ويجتهدُ في استحضار الهمّة المحمدية معه من كل جهاته، ولا يثبت مع هِمّته ـ صلىٰ الله تعالىٰ عليه ـ سوىً ولا غَيرٌ، ولا أكدار ولا أغيار، ولا سلاطاتٌ[1] ظُلمانية، ولا تسوُّراتٌ رَجيمية، لأن القلبَ بمثابة السماء، وقد كان عالمُ الأفلاك قبلَ قدومِهِ صلىٰ الله تعالى عليه لعالم الشهادة غيرَ مَصُونٍ من النفوذ الشيطاني، فلما بعثه سبحانه قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝﴾ [الجن: ٨-٩].

وكذلك القلبُ قبلَ استحكام مصاحبةِ نوره صلىٰ الله تعالىٰ عليه معه وتمكينِ الروابطِ المعنويةِ معه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله، للشيطانِ النفوذُ الكُلّي فيه، حتىٰ لا يَجِدَ للعبادة لذةً ولا طعماً ولا ذوقاً.

وأما إذا استحكمَتْ مصاحبتُهُ ـ صلىٰ الله تعالىٰ عليه ـ البرزخيةُ في سِرِّكَ بحيث لم تزل تستحضِرُهُ وتتكلّفُ إحضارَ صورته الكريمة في عالم خيالِكَ إلىٰ أن تأخذها مرآتُكَ فتحفَظَهَا: فهنالكَ يُحفَظُ باطِنُكَ /٣/ من الأغيار والأكدار، والتشويشاتِ والتغييراتِ والتفريقات، بسبب دخولِ النور المحمّدي للقلب.

إذ هو ـ صلىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ آله وسلم ـ الإنسانُ الكامل، فقصرُ النظرِ عليه متضمّنٌ للتوجُّهِ للعالَمِ الأكبرِ والأوسطِ والأصغر، بل الحقائق الإلٰهية[2].

---

(١) السلاطة: الشدة، والمقصود الظلمانيات الشديدة.

(٢) للمؤلف عدة رسائل في طريقة استحضاره ﷺ في الذكر منها: الإجازة الطرقية، وهي مما اخترناه للنشر في هذه المجموعة المباركة.

فمن هناك كان حفظُ صورته الكريمة في مرآة القلب يتضمن حفظَ الباطن من الأغيار، لأنّ الإنسانَ الكاملَ هو الجامعُ لجميع العوالم الإلٰهية والكونية، الكلية، والجزئية، وهو كتابٌ جامعٌ للكتب الإلٰهية والكونية، فمن حيثُ رُوحُهُ وعقلُه: كتابٌ عقليٌ مسمًّىٰ بأمّ الكتاب، ومن حيثُ قلبُهُ: كتاب اللوح المحفوظ، ومن حيثُ نفسُه: كتابُ المحو والإثبات، فهو الصحفُ المكرَّمة، المرفوعةُ المطهَّرة، التي لا يَمَسُّها ولا يُدرِكُ أسرارَها إلاّ المطهَّرون من الحُجُب الظلمانية.

فنسبةُ العقلِ الأولِ إلىٰ العالَمِ الكبير وحقائقِهِ بعينها نسبةُ الروح الإنساني إلىٰ البدن وقواه.

وإنّ النفسَ الكليةَ قلبُ العالَمِ الكبير، كما أنّ النفسَ الناطقةَ قلبُ الإنسان، ولذلك يُسمَّىٰ العالَم بالإنسانِ الكبير؛ فاعقل.

[كيف يُستعان علىٰ استحضار صورته ﷺ في الذكر]

ويُستعان علىٰ هذا بأمور:

منها: معرفةُ الشمائل المحمدية والتغلغلُ فيها، وإدمانُ مخالطتها حتىٰ تُرسَمَ تلك الصورةُ الكريمةُ المحمدية التي لا يتمثل الشيطانُ بها في مرآتك:

إذا ما الشوقُ أقلقني إليها ... ولم أظفَرْ بمطلوبٍ لَديها
نَقَشْتُ مثالَها في الكَفِّ نَقْشاً ... وقلتُ لناظري: قَصْراً عليها

يُمثِّلُكَ الفكرُ المُرَوَّعُ في النَّوىٰ ... وأرتاحُ إذ يبدو خيالُكَ في فكري

ومنها: عدمُ الخروج عن السنة المحمدية ظلَّ نَفَسٍ في العاداتِ والعبادات، والمعاملاتِ والمعتقدات، فإنه بهذا تتوفَّرُ له الأنوار، ويقرُبُ من عالم المعاني، ويتباعَدُ عن عالم الأكدار، لأنّ السنةَ المحمدية هي في الحقيقة صورةُ سَيْرِ

العالَمِين إلىٰ ربهم سبحانه، لو تمَّ لهم التوفيق لما انقطع أحدٌ، ولَوَصلَ الجميع، لأنها لا يُوصَلُ بغيرها، وهي عنوانُ الوصول، وهي مِعْصَمُ الوصول، وهي الضياءُ في مُدْلَهِمّاتِ الحوالك السَّيرية والدهرية، ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فتأمل جلالةَ النبوّة في هذه الآية الكريمة، وهذا التوعُّدَ العظيمَ علىٰ الإعراض عن السنة المحمدية.

ومنها: /٤/ عدمُ الغفلة عن الصلاة علىٰ مركز دائرة الأنوار صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله، في كل حين، فبها تقوىٰ الرابطةُ معه صلىٰ الله تعالىٰ عليه، مع استحضار مجالسته صلىٰ الله تعالىٰ عليه، لأنه جليسُ المصلِّين عليه.

فإنه سبحانه أدّبَهُ فأحسنَ تأديبه[١]، وليس التأديبُ إلا بالتخلُّق بأخلاق الله تعالىٰ، وهو تعالىٰ جليسُ مَن ذكره[٢]، فهو صلىٰ الله تعالىٰ عليه جليسُ مَن صلىٰ عليه.

وإنما أُتِيَ علىٰ الخَلْقِ من جريان الأعمال علىٰ اللسان فقط وعلىٰ الجوارح الظاهرة، وعدمِ تعقّل معانيها وتفقُّهها الفقهَ النافعَ الذي هو الاطلاعُ علىٰ أسرار الشارع في كلِّ جزئيةٍ وكُلّيةٍ أمرَ بها، فبهذا يَعظُمُ موقعُ الشرعِ الكريمِ في القلوب، وبعَدَمِه يأخذه الإنسان أحكاماً مجرَّدةً، وأقوالاً تعبُّديةً، فلا يجدُ لها لَذّةً ولا طعماً ولا ذوقاً، ولا يحصل له تَرَقٍّ بسبب أخذِها كذلك، ولا حولَ ولا قوةَ إلاّ باللهِ العليِّ العظيم.

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]، وأمّا الحديث: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» فمرويٌّ لكن بأسانيدَ ضعيفةٍ جداً، انظر «كشف الخفاء» (١: ٧٢).

(٢) أخرج البخاري (٧٤٠٥) ومسلمٌ (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني..»، وفي «المسند» للإمام أحمد (٢: ٥٤٠) عن أبي هريرة كذلك مرفوعاً: «إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدي، إذا هو ذكرني وتحرّكت بي شَفَتاه».

[لكل أمرٍ من أوامر الشريعة سرٌ يعلمه العلماءُ بالله تعالىٰ]

وإن جميعَ أسرار الشرع كلِّها يفقهها العلماءُ بالله تعالىٰ، ليس عندهم شيءٌ لا يُعقَلُ، ولا يُفقَه، ولكن قديماً قيل: «إذا عَجَزَ النحويُّ عن التعليل قال: هكذا سُمِعَ، وإذا عجز الفقيهُ عن العلة والحكمة قال: هذا تعبُّديٌّ أمَرَنا الشارعُ به ولم يُطلعنا علىٰ حكمته».

ولكنّ معرفةَ الفقهِ المعنوي، بعدَ إتقان الفقه الحُكْمي يقوّي الباعِثَ علىٰ الامتثال والاجتناب، ويُجِلُّ وَقْعَ مسائل الشرع الكريم في القلوب، فلذلك قال الشاطبيُّ في «الموافقات» إنَّ القومَ حَمَّلُوا أنفسَهم طرقاً من التعبد حتىٰ ألحقوا المكروهَ بالحرامِ في طلب الترك، والمباحَ بدرجةِ المندوب، والتسنُّنَ بدرجةِ الواجب[1]، كلُّ ذلك رغبةً فيما عندَ الله تعالىٰ، ويصيرُ الشرعُ عندَه ذوقاً لا يشككه فيه ألفُ ملحدٍ يُصيِّرُ الظلمة نوراً والنورَ ظلمةً والبطحاءَ ذَهَباً، لا يوقعه في شيءٍ من الرِّيَب لما وجده من امتزاج الفقه المعنوي بالفقه الحُكْمي.

وصاحبُ هذا المقام له علاماتٌ ألممنا بها في «الكمال المتلالي»[2].

[النور الجامع الثاني]

النورُ الثاني مما يُلاحَظُ حالةَ الذكر: النورُ الإلٰهي[3]، النورُ الحق، النور القُدُس، نورُ السماوات والأرض.

---

(١) الموافقات (٤: ١٢٢)، (مشهور)، والنقل بالمعنىٰ، وذكر إلحاقَ المباح بدرجة المكروه لا المندوب.

(٢) هو: «الكمال المتلالي، والاستدلالات العوالي، في محاججة أهل التفريط والتغالي، وأنَّ فيضانَ الربوبية والمحمدية لا ينقطع بل متتالي»، طبع في المطبعة الحجرية بفاس.

(٣) سبَق المؤلفُ ـ رضي الله عنه ـ ذكرَ النور المحمدي علىٰ النور الإلٰهي لأن النور الإلٰهي لا يتوصل إليه إلاّ من طريق النور المحمدي.

فيلاحِظُ نفسَه مستغرِقاً فيه، وذاهباً في تياره، وهائماً في وسعه، ووَلِهاً في لَذاذاتِ إحراقاتِ شعاعاتِه، وهذا النورُ يستحضره لا في حالة ذكر الكلمة المشرَّفة، ولا في حالة ذكر الأسماء الإلٰهية، ولا في حالة ذكر الاسم الهُوِيَّة، /٥/ ولكن يحبسُ النَّفَسَ ويكررها بقوةٍ وهمّةٍ تامة، بحيثُ يتأثر به من غير أن يظهرَ علىٰ ظاهره أثرُها في باطنه، بحيثُ لا يشعر به جليسُ جنبِه.

ويجعلُ أوقاتَه مستغرَقةً فيه، منهمِكةً به في أيامه ولياليه، ولا يتركه لشغل، ولا يهمله لعُذر، لا في القيام والقعود، ولا في الركوع والسجود، ولا في الاستقامة والانحناء، ولا في الشّدة والرخاء، فحينئذٍ يظهرُ المطلوبُ من الحرارة الغريزية، والحُرقة الباطنية، والحركة الفؤادية، أي أن يتشرَّق صاحبُه بالتجلّي، وهو ما ينكشفُ للقلوبِ من أنوار الغيوب.

وأمهاتُ الغيوب التي تُظهِرُ التجلياتِ من بطائنها سبعةٌ:

(١) غَيبُ الحق وحقائقه.

(٢) وغيبُ الخفاء المنفصل من الغيب المطلَق بالتمييز الأخفىٰ في حضرةِ: ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾[1].

(٣) وغيبُ السر المنفصل من الغيب الإلٰهي بالتمييز الخفي في حضرةِ: ﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾[2].

(٤) وغيبُ الروح، وهو حضرةُ السر الوجودي المنفصل بالتمييز الأخفىٰ في التابع الأمري.

(٥) وغيبُ القلب، وهو: موضعُ تعانق الروح والنفس، ومحلُّ استيلاء السر الوجودي، ومنصّةُ استجلائه في كَبْوَةِ[3] أحدية جمع الكمال.

---

(١) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٩].

(٢) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾.

(٣) الكَبْوة: السقطة. كبا يكبو: سقط علىٰ وجهه.

(٦) وغيبُ النفس وهو: أنس المناظرة.

(٧) وغيبُ اللطائف البَونية، وهي مطارح أنظاره لكشف ما يحق له جمعاً وتفصيلاً. كما في «التعريفات»[١].

فإذا واظب الطالبُ[٢] عليه زماناً، وداوم عليه أياماً، ظهر أثرُ الغَيبة وعدمُ الشعور في بعض الأحيان، وهو مقدمةُ الجَذْبة، فلا يغفل عنه، وإن وقع الفتورُ يستغفرُ الله تعالىٰ ويرجعُ لذلك الحضور.

وبعدَه تحصُلُ له المَلكةُ التامّةُ الطاردةُ جيشَ الغفلة عن ساحة القلب، لكن بشرط أن لا يريدَ من اللفظِ المباركِ إلاّ الذاتَ المقدَّسةَ عن جميعِ الكيفياتِ المتخيَّلة.

فإذا داومَ علىٰ الذكر بكُنْهِ الهمّة، صار مَلَكةً راسخةً للقلب، كالسمع للسامعة، والبصرِ للباصرة، فلو كُلِّفَ زوالَه لا يزول، بل تسكُنُ صَولتُه، فيصيرُ [الالتفاتُ][٣] الشهودي له مَلَكةً، وهو قائمٌ في باب المعلوماتِ النظرية مقامَ البَداهة، والبديهيُّ هو: الذي لا يتوقف حصولُه علىٰ نظرٍ وكَسْب، سواءٌ احتاجَ إلى شيءٍ آخرَ من حَدْسٍ أو تجربة، أو غير ذلك، أو لم يجده، فيراه من الضروري كتصور الحرارة والبرودة، وكالتصديق، فإنّ النفيَ والإثباتَ لا يجتمعان ولا يرتفعان.

وهذه /٦/ الطريقُ التي نشيرُ إليها نقطعها في سبع خطوات، اثنان منها من عالم الخَلْق، وخمسةٌ من عالم الأمر: القلبُ، والروح، والسِّر، والخفي، والأخفىٰ، من عالم الأمر، و[القالَبُ] والنفس من عالم الخلق، والقلب مركّبٌ من العناصر الأربعة.

---

(١) «التعريفات» للشريف الجرجاني ص٥٣.

(٢) أي طالب الوصول إلىٰ الكمال.

(٣) ما بين العلامتين [ ] كلامٌ غير واضحٍ في الأصل، وقدّرناه كما ترىٰ.

[كيفيةُ الوصول إلىٰ الصفاءَ الربّاني]

ومن أرادَ الصفاءَ الربانيَّ فعليه بالانكسار جوفَ الليل، ولحبس النَّفَس، والاحتياطِ في حبسه ـ حرصاً علىٰ جمع الهِمة وعدمِ تشتيت الخاطر ـ خاصيةٌ عجيبةٌ في تسخين الباطن، وجمع الهمّة، وهَيَجان العشق، وقطع أحاديث النفس.

وكذلك لعدد الوتر خاصيةٌ عجيبة، حتىٰ أجازوا لحبس النفس والتوجُّهِ بكنه الهمة الغوصَ في الماء، وفي تلك الحالة يشتغل المريدُ بالذكر مع هذه المراعاة، وكل من لم يحبس نَفَسَه سبعَ عشرةَ مرة، أو إحدىٰ وعشرين، أو ثلاثاً وعشرين، أو سبعاً وعشرين، أو ثماناً وعشرين[1] لا يظفر بالتأثير الذكري، والحرارةِ الجاذبة، والنورِ الخارق.

ولذلك تجد المريدَ يذكر السنوات وهو بحاله قبلَ التلقين، لأنه لا يدري ما معنىٰ النسبة، وما معنىٰ أخذِ العهد علىٰ أهل الله، ولا القصدَ من صحبتهم ورفقتهم، إنما غايةُ ما يفهم أنهم وسائلُ في طلبهم من الحقِّ سبحانه أن يشفيَ رأسَه من الوجع، وأن يبسطَ عليه الدنيا، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

[احتراسُ رسولِ الله ﷺ من تشتتِ الخواطر]

وليُعتبَر بحال سيدِ الخلق، أطهرِ الذواتِ الكونية ـ صلىٰ الله تعالىٰ عليه ـ كيف احترسَ من تشتيت الخواطر وتوزيع الهمة، فقال: «خذوا خَميصتي هذه فإنها شغلتني عن صلاتي، اذهبوا بخميصتي إلىٰ أبي جهم وائتوني بأنبجانية أبي جهم»[2]، كل ذلك حرصاً علىٰ عدم وجود مشوِّشٍ وموزِّعٍ للهمّة حالةَ المناجاة.

---

(١) ربما ذكر المؤلف الرقم (٢٨) وهو ليس وتراً، لأنه من مضاعفات العدد (٧) وهو وتر!

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٥٨١٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، وللمؤلف رضي الله عنه مؤلفٌ ضخمٌ في شرح حديث الخميصة هذا، جمع فيه علوماً كثيرة، وما زال مخطوطاً.

وهذا ضرَبَهُ صلىٰ الله تعالىٰ عليه مثلاً للموجوداتِ لترتاضَ وتحترسَ علىٰ اختلاسِ وحدةِ الوقت، ووحدةِ الصفاء، ووحدةِ المناجاة، لتذوقَ لذةَ العباداتِ والقرباتِ الشرعية.

ولا يختلجْ بوهمٍ روحانيٍ أنه صلىٰ الله تعالىٰ عليه تُؤثِّر فيه صُوَرُ الكائنات أجمع، علويّها وسُفْلِيها، لأنه جوهرٌ صقيلٌ شَفّاف، بل لا يثبتُ عليه ما قابَلَه، ولذلك يشيرُ بقوله: «لو كنت متخذاً خليلاً غيرَ ربي لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن أخوةُ الإسلام أفضلُ»[1]، فلم يتأثر صلىٰ الله تعالىٰ عليه بمصاحبة الكائنات له؛ قطعاً.

وانظر كيف احترسَ علىٰ هذا المسلَكِ /٧/ فقال: «من توضأ فأحسن الوضوء ثم صلىٰ ركعتين لا يحدِّثُ فيهما نفسَه بشيءٍ غفرَ له ما تقدم من ذنبه»[2]، تأسِّياً لمسألة حفظ الخاطر، وحرصاً من انطباع صور الكائنات في مرآة الذات حتىٰ تكونَ لها حجاباً عن وحدة الشهود صنعاً.

[تنزيهُ الرسول ﷺ عن انطباع صورِ الكائناتِ فيه]

وأما ما أشار إليه شروح[3] «الصحيحين» من أنه صلىٰ الله تعالىٰ عليه كان تنطبع فيه صور الكائنات، لذلك تحرىٰ من الصلاة بالخَمِيصة لها أعلام، فهو منهم ذهولٌ عن خاصية مطلق النبوة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه باختلافٍ يسير.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٦) ومسلمٌ (٢٢٦)، من حديث عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وزادا هناك: «من توضّأ نحو وضوئي هذا فأحسن..».

(٣) إنما ذكر المؤلف ـ رضي الله عنه ـ شروح البخاري ولم يذكر شراحه، أدباً معهم رحمهم الله تعالىٰ، فليتنبه لذلك.

والعجبُ أنه صلىٰ الله تعالىٰ عليه واسطةُ الكائنات في كل ما يَبْرُزُ لهم، فإنما هو قاسمٌ واللهُ ـ جَلَّ شأنُه ـ يعطي[١]، ومع ذلك لا يتأثر بصحبة الكائنات، حتىٰ إن ليلةَ الإسراء زُفَّت له الحقائقُ العُلْوية بالازدهاء، ومع ذلك وصف سبحانه حالَه الكريمَ الأسنىٰ بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ عما هو بصدده من الطموح لمشاهدة الجمال صِرْفاً بدون ألبسة المظاهر ﴿وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: ١٧] بما قُوبِلَ به؛ بل لم يزل ناظراً إلىٰ مركز عبوديته وعُبُودته[٢].

وهذا غايةُ التبريز من الحق سبحانه والتعديل لحبيبه الكريم في حاله معه في حالة قُربِ القُرب، فإيّاكَ والغلطَ في الجانب المحمدي فتسقطَ من عين اللهِ مرةً واحدة.

[محاربة الخواطر أثناء الذكر وطريقة ذلك]

وقد تحرّىٰ أربابُ الطريق في هذا المعنىٰ حرصاً علىٰ الجمعية القلبية مع الله تعالىٰ، حتىٰ قالوا: إن مراعاةَ العدد ينبغي أن يكونَ بمجرَّدِ الحفظ، لا بالأصابع لئلا تضيِّعَ درجةً أو درجتين في أمرٍ مشوَّش.

وحتىٰ قالوا: إنّ الذاكرَ إذا عَجَزَ عن الحَبْس لكثرته وضَعُفَ عن الذكر لقوة السلطان الغالب، فله إرسالُ النَّفَس مع الذكر، ويكون ذلك نافعاً.

وصاحبُ هذا ينبغي له أن يكون فيه متيقظاً، فلا يَدَعَ خطرةً تخطر بقلبه، بل يَصدِمُ الخطرةَ في أول ما تظهر، لأنها إذا ظهرت مالَتْ إليها النفسُ وأَلِفتها، فيعسُرُ زوالها[٣].

---

(١) كما ورد في البخاري (٧٣١٢) من حديث معاوية رضي الله عنه، وغيره قوله ﷺ: «إنما أنا قاسمٌ والله يعطي».

(٢) للمؤلف رضي الله عنه مؤلف في الفرق بين العبودية، والعبادة، والعبودة، لم يُطبَع بعد.

(٣) ولذلك قال الإمام ابن الفارض رضي الله عنه:

ولو خطرَتْ لي في سواكَ إرادةٌ ... علىٰ خاطري، سهواً، قضيت بردَّتي

أي: رجوعي إلىٰ أول طريق السلوك.

فهذا طريقُ تحصيل مُلْكِ خلوِّ الذهن عن خطور الخطرات وأحاديث النفس، وهو المعبَّرُ عنه بـ«التجريد السِّرّي»، المعتبر عندَ أهل طائفتنا، وهو: إماطةُ السِّوىٰ والكونِ عن السرِّ والقلب، إذ لا حجابَ سوىٰ الصُّورُ الكونية والأغيارُ المنطبعةُ في ذات القلب، والسرُّ فيها كالنتوءِ والتشهيراتِ في سطح المرآة، القادحةِ في استوائه، المزيلةِ لصفائه.

وما أُتِيَ علىٰ المريد إلا من استرساله في الغفلة، وعدمِ علمه بما يصنع، وذهوله في باب الهوىٰ القاتل المهلِك، حتىٰ لا يشعرَ بما يجري علىٰ لسانه والسبحةُ في يده، والأستاذُ أمامَه، وبيتُ الله محيطٌ به، والرفقاءُ بجنبه، والأصواتُ مرتفعةٌ، والصدورُ مرتَجّةٌ، وهو في دُكّانه يقلِّبُ أوراقَ الكنانيش، أو يتجاذَبُ أذيالَ المخاصَمات مع زوجه أو رفيقه أو خصمه أو عدوه، والحالُ أنه في حضرةِ الله في الوِرْد، أو في الصلاة، أو في التوجُّه، وكل هذا خروجٌ عن الطريقِ وسَنَنِ أهلها، ولذا قالوا: فإنْ تساهَلَ المريدُ عن تكبيرة الإحرام؛ فلا كلامَ معه!

فيا لَيتَ شعري ما يقولون فيمن هذه صفتُه؟! اللهم خذ بأيدينا أخذَ الكرام عليك، ولا تَكِلْنا إلىٰ أنفسنا طَرْفَة عينٍ ولا إلىٰ أحدٍ من خلقك، آمين يا ربَّ العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلَّمَ تسليماً، والحمدُ لله علىٰ ذلك.

[الكلامُ عن الفَناء وأقسامه]

وقد قال بعضُ السادات: «إنه يجوز أن يحصلَ لبعض السائرين فناءُ القلب والروح ولا يحصل له فناءُ السر، وربما يحصلُ فناءُ السر ولا يحصل فناءُ الخفي والأخفىٰ، فيكتفي بفناء القلب والروح والسرّ فقط، ويكونُ بهذا القدر من السلوك في زُمرة الأولياء، لكن إذا ظهرَتْ حقائقُ اللطائف الخمسة بعدَ الموت

لا يفوز هذا السالكُ ـ بالثمراتِ والنتائج المناسبةِ لفَناء تلك اللطائف وبقائها، التي لم تشرق بالفَناء والبقاء في هذه النشأة الدنيوية ـ فوزاً كاملاً. .». اهـ.

والذي يلوحُ: أنه إذا حصلَ للعبد الفناءُ في الأفعال، والفناءُ في الصفات، والفناءُ في الذات، ورجعَ إلىٰ البقاء الثاني الذي هو في الولاية بمنزلة الرسالة في حقِّ المرسلين: بالضرورة يحصلُ فَناءُ اللطائف الخمسة، فاعلمه.

والمعتَبَرُ عند أكابر طائفتنا: هو الحضورُ الذاتي، والشهود الدَّوامي الغير البَرْقي، ولا عبرةَ بالحضور الزائل المتبدِّلِ بالغَيبة. والتجلي الذاتيُّ: ما يكون مبدؤه الذات، من غير اعتبار صفةٍ من الصفاتِ معها، وإن كان لا يحصل ذلك في الغالب إلا بواسطة الأسماء والصفات، إذ لا يتجلىٰ الحقُّ من حيثُ ذاتُهُ علىٰ الموجودات إلا مِن وراء حُجُبٍ من الحجب الأسمائية، بخلاف التجلي الصِّفاتي؛ فهو ما يكون مبدؤه صفةً من الصفات من حيثُ تعيُّنُها وامتيازُها عن الذات.

وقول /٩/ مَن قال: «إنّ التجلِّيَ الذاتيَّ بَرْقيٌ» معناه: أنّ خرقَه جميعَ الحجب عن حضرة الذات يكون في زمنٍ يسيرٍ كالبرق، ثم تنسدل حُجُبُ الأسماء والصفات، وتُستَرُ سطواتُ أنوار الذات، فيكون الحضور الذاتي كالبرق.

والغَيبةُ الذاتية كثيرةٌ جداً، ولكنّ كلَّ مَن لم يتمكن من الانسلاخ من جلابيب البشرية لا يظفر بالتجلي الذاتيِّ أصلاً، أو هو الذي يتمتع به بَرْقياً.

وأما الذين تولّاهم الاسمُ «الولي» وقدَّسهم الاسمُ «القدوس»، وتَبَنّاهم التخصيص المحمدي، فيتمتعون بالتجلِّي الذاتي صِرْفاً بدون بَراقعِ حُجُبِ الأسماء والصفات، ويحتاج صاحبُه لتلاشيه ألفَ مرةٍ في اليوم أو أكثر، أو في اللحظة الزمانية، لقوةِ التجلي وتمكُّنِ جلابيبِ البشرية منها.

فلا يقوىٰ علىٰ التجلِّي المجرَّد عن حُجُبِ الكثرة إلا أهلُ التجريد عن البشريات، وربما تعرفُ في وجوههم نضرةَ النعيم، فتستدِلُّ عليهم بذلك، فلا يُقال ـ إذا لم تكن لهم علامةٌ رسميةٌ ـ: فَبِمَ يُعرَفُون؟!

نقول: إن آيتهم في نفسهم، وهو دوامُ ترقِّيهم في مدارج العلم والمعارف، بحيث يعرفون الأشياء كما هي، وراثةً محمدية.

[نتائج تجمُّعِ الهمة أثناءَ الذكرِ والعبادة]

ثم إنَّ تجمُّعَ الهمّة، وعدمَ توزيع الخواطر، والتوجُّه للنور الصِّرْف بكُنْهِ الهمّة تنفعل عنه الكائنات، فتتأثر منه الحقائقُ العُلْويات والسفليات، ولذلك قيل: «ارتفاعُ الأصوات بالدَّعَوات، في مساجدِ الجماعات، يَحُلُّ ما عَقَدَتْهُ الأفلاكُ العلويات».

ومَن تمكَّن من جمعِ الهِمّة، ولم يسترسل مع الخواطر وقعت له تصرُّفاتٌ عجيبةٌ من التوجُّهِ لمرادٍ فيكون علىٰ وِفْقِ الهمة والتأثير، ورفعِ المرض عن المريض، وإفاضةِ التوبة علىٰ العاصي، والتصرُّفِ في قلوب الناس حتىٰ يحبُّوا ويعظِّمُوا، وفي مداركهم حتىٰ تحدث فيها واقعاتٌ عظيمة، والاطلاعِ علىٰ نسبة أهل الله من الأحياء وأهل القبور[١]، والإشرافِ علىٰ خواطرِ الناس وما يختلجُ في الصدور، وكشفِ الوقائع المستقبلية، ودفعِ البلية النازلة.

وأما نسبةُ كسر النفس والتبرِّي عن حظوظها؛ فهي نسبةُ أهلِ البيتِ عليهم السلام.

وها نحن نشيرُ لأنموذجٍ من ذلك؛ فنقول:

---

(١) لم يقل المؤلف «الأموات» أدباً معهم، ولأنَّ الأولياء الكُمَّلَ أحياءٌ في قبورهم وراثةً نبوية، حيثُ الأنبياءُ أحياءٌ في قبورهم كما هو مذهبُ أهل السنة والجماعة، والله أعلم.

[تأثيرُ الشيخ في المريد وكيفيةُ ذلك]

أما التأثيرُ في الطالب المنقاد المتوجِّهِ بشراشِرِه[١] إلىٰ جَناب القُدْسِ بواسطة شيخه:

بأن يَتوجَّهَ الشيخُ إلىٰ نفسه الناطقة، ويُصادِمَها بالهمة التامة القوية، ثم يستغرق في نسبته بالجمعية بعد أن /١٠/ يكون الشيخُ متحمّلاً لنسبةٍ من نِسَبِ القوم[٢]، ويكون راسخَ القدم فيها، فينقل نسبَتَهُ إلىٰ الطالب علىٰ حسب استعداده، أو: متحمّلاً لهِمّةٍ محمديةٍ وبها يسير وهو أرفعُ المعارج، ومهما عرضَ خاطرٌ أثناء هذه الجمعية؛ فليصادم وليراجع بالمرة، لأنه يُفسِدُ عليه صفوَ وقته.

وليضرب الشيخُ أو خليفتُهُ بأصبعه اليمنىٰ في فخذه الأيسر، فإن الخاطرَ يذهب، كما علَّمَ صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله لمن غلبت عليه الخواطرُ في الصلاة أن يفعلَ ذلك، فيذهبُ خاطرُه[٣]، ولكن ينبغي لمن هو في الصلاة أن لا يفعلَه إلاَّ عندَ ركوعه حتىٰ لا يفوتَه الاعتدال.

---

(١) الشراشر: الشَّرْشِرَة: القطعة من كل شيء، والجمع شراشر، أي بجميع أجزاء جسده، أي: بكله.

(٢) أي طريقةٍ من طرقهم.

(٣) روىٰ الطبراني في «الكبير» رقم (٥١٢)، والبزار برقم (٥٨٠) عن أبي المليح بن أسامة عن أبيه: أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إني أشكو إليك وسوسة أجدها في صدري، إني أدخل في صلاتي فما أدري علىٰ شفع أنفتِلُ أم علىٰ وتر؟ فقال رسول الله ﷺ: «فإذا وجدت ذلك فارفع أصبعك السبابة اليمنىٰ فاطعنه في فخذك اليسرىٰ، وقل: بسم الله، فإنها سكين الشيطان».

قال الهيثمي في «المجمع» (٢:٣٥٢): «رواه الطبراني في «الكبير»، والبزار [و] لم يحسن سياقة الحديث، فلعله من سقم النسخة ـ والله أعلم ـ وفيه: المهاجر بن المنيب عن أبي المليح، وهو مجهول».

قلت: وأورده الحكيم الترمذي كذلك في «نوادر الأصول» (٣:٢٩).

ونؤكِّدُ علىٰ من يريد إعطاءَ الوِرْدِ من أهل طائفتنا أن يجمعَ هذه الهمَّةَ ثم يلقِّنَ الورد إثرَها، فبذلك تقع النتائجُ والسَّرايات(١).

ولكن قد يقع التشويشُ علىٰ الشيخ أثناءَ هذه الجمعية إذا كان في المجلس مَن هو علىٰ غير طُهر، أو صاحبُ جَنابات معنوية(٢)، كما وقع له صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله في الصلاة لمّا جهروا معه بالقراءة فشغلوه.

خرَّج الإمام في «الموطأ» والإمام الشافعي، والإمام أحمد، وأبو داودَ، والنّسائي، والترمذي ـ وقال: حديثٌ حسن، وابن ماجه وابن حِبّان عن سيدنا أبي هريرةَ رضيَ الله تعالىٰ عنه، أنّ مولانا رسولَ الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله انصرف من صلاةٍ جهرَ فيها بالقراءة فقال: «هل قرأ معي أحدٌ منكم آنفاً؟» فقال رجلٌ: نعم يا رسول الله، قال: «فإني أقول: مالي أُنازَعُ القرآن..؟»(٣).

قوله: «أُنازَع»، بضم الهمزة للمتكلم وفتح الزاي، والمنازعةُ: المجاذَبة، قال صاحب «النهاية»: «أُنازَع، أي: أُجاذَب [في قراءته]، كأنهم جهروا بالقراءة خلفه ـ الكريم ـ فشغلوه»(٤) فالتبست عليه القراءة. وأصلُ النزع: الجذب، ومنه نزعُ الميت بروحه.

زاد الراوي: «فانتهىٰ الناسُ» عن القراءة مع رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله فيما يجهرُ فيه رسولُ الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه»(٥).

---

(١) أي: الأنوار والمواد السارية إثر ذلك.

(٢) يعني بها الذنوبَ والمعاصي وفساد الباطن، نسأل اللهَ العافية.

(٣) الموطأ (١٩٠) واللفظ له، والشافعي كما في «السنن الكبرى» للبيهقي (٢:١٥٧)، وأحمد (٩٥٢٧)، وأبو داود (٨٢٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٩)، وابن ماجه (٨٤٨)، وابن حبان (١٧٨٥ من الإحسان).

(٤) «النهاية في غريب الحديث والأثر» للإمام ابن الأثير الجزري (٥:٤١).

(٥) انظر «الموطّأ» (١٩٠).

وقولُه: «فانتهىٰ الناس..» مُدْرَجٌ[١] في الخبر كما بينه الخطيب، واتفق عليه البخاري في «التاريخ»، وأبو داود، ويعقوب بن سفيان، والذُّهْلي، والخَطَّابي، وهو مما لا خلافَ فيه بينهم[٢].

وعن سيدنا عُبادةَ بن الصامت ـ رضيَ الله تعالىٰ عنه ـ قال: صلىٰ مولانا رسولُ الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله ـ الصبحَ، فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف قال: «إني أراكم تقرؤون وراءَ إمامكم» /١١/، قال: قلنا: يا رسولَ الله، إي والله. قال: «فلا تفعلوا إلا بأم القرآن، فإنه لا صلاةَ لمن لم يقرأ بها»، رواه أبو داود والترمذي[٣].

قوله: «فثقلت عليه القراءة» أي شقَّ عليه التلفُّظُ والجهرُ بالقراءة، ويحتمل أن يُراد به أنها التبست عليه القراءة، بدليل ما عند أبي داودَ من حديث عُبادة في روايةٍ له بلفظ: «فالتبست عليه القراءة»[٤].

فانظر كيف ثَقُلَت عليه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ القراءةُ لمّا نازعوه فيها، والتبست عليه، فكان ينبغي للطالب أن يحتفظَ علىٰ قلب المربِّي حتىٰ لا يَسُدَّ المجاريَ التي بينه وبينه، ويبقىٰ عُرضةً للضياع، ضِحْكةً بين الناس.

وانظر قولَه عليه الصلاة والسلام لمن قالَ له: اضمَنْ ليَ الجنة، فقال له: «أعني علىٰ نفسِكَ بكثرةِ السُّجود»[٥]، فكيف مع هذا أنْ يُخْلِدَ المريدُ إلىٰ أرض

---

(١) المدرج: ما زيد في لفظ الحديث من كلام الراوي، وقد يأتي في أول الحديث، أو وسطه، أو آخره ـ كهذا الحديث ـ وليس هو من لفظه ﷺ بل من لفظ بعض الرواة، وهو هنا من كلام الزهري كما في «السنن الكبرىٰ» للبيهقي (٢:٥٧)، وقيل: من كلام أبي هريرة وهو ما رجّحه الحافظ الكاندهلوي في «أوجز المسالك» (٢:١٠٧).

(٢) وبنحو هذا عبارةُ الحافظ في «التلخيص» (١:٢٣١).

(٣) «سنن أبي داود» (٨٢٣)، و«الجامع» للترمذي (٣١١)، وحسَّنه.

(٤) «سنن أبي داود» (٨٢٤).

(٥) أخرجه مسلمٌ (٢٢٦) ولفظ طلب السائل: «أسألُكَ مرافقتكَ في الجنة».

الكسل والراحة والجُبْن، ثم يتمنّىٰ مراتبَ الرجال! لا نامت عينُ الكسل والجبن والبخل[١].

وكذلك الطالبُ إذا غاب فإنهم يتخيّلون صورتَه ويتوجَّهُون إليها[٢].

[تعريفُ الهِمّة]

وأما الهِمّةُ فعبارةٌ عن اجتماع الخواطر، وتأكُّد العزيمة، بصورة التمني والطلب، بحيثُ لا يخطر في القلب خاطرٌ سوىٰ هذا المراد، كطلب الماء للعطشان.

وقد حُكِيَ أنّ بلدةً كانت اعتاصت وتمنّعت علىٰ بعض الملوك أن يستوليَ عليها مع قوته، فبحث عن ذلك، فقيل له: إنّ أهلها مجتمعةٌ قلوبُهم علىٰ أنها لا تُدخَل، وطامِحُون لذلك، فهم في قوة رجلٍ واحد، فسأل عن سبب فَلِّ عزائمهم حتىٰ يمكنَهُ الدخولُ للبلدة، فقيل له: شَوِّش أفكارهم حتىٰ تتفرَّقَ هِمَمُهم فلا تجدُ مانعاً يمنعُكَ منهم. فاتخذَ طُبُولاً لها أصواتٌ مُفزِعة، وأحاطَها بسُورِ البلد، فالتفتت لذلك أفكارُهم، وانشغلت بالبحث عنها، فتوصَّلَ ذلك المَلِكُ للاستيلاء عليها، لعدم المُمانع والمُدافع. فهذه القضيةُ عبرةٌ لمن اعتبر.

---

(١) وهذا ما حدث في هذا الزمان، حتىٰ أصبح المدَّعون الانتسابَ لطريق القوم أخملَ الناس وأعجزَهم عن العمل من قيامٍ وتهجُّدٍ وصيامٍ وجهادٍ في سبيل الله تعالىٰ، مع الاعتماد علىٰ فضائل الأذكار دون استحضار معانيها والاتصاف بحقائقها، ولله دَرُّ الإمام أبي مَدْيَن التلمساني إذ قال:

واعلم بأنّ طريقَ القومِ دارسةٌ ... وحالُ مَن يدَّعيها اليومَ كيفَ ترىٰ

(٢) قد يستأنس هنا بما عقده رسول الله ﷺ وعلىٰ آله من بيعة سيدنا عثمان رضي الله عنه له في بيعة الرضوان عند غيبته كما ذكره أهل السير، وبقوله ﷺ وعلىٰ آله في عدة أحاديث: «آمنت بكذا أنا وأبو بكر وعمر...»، وغير ذلك من الآثار المتضافرة علىٰ هذا المعنىٰ.

وكذلك يفعل الشيطانُ حتىٰ يتمكن من القلوب، لا في الصلاة ولا في الذكر، ولا في جميع الأعمال، حتىٰ يَجْلِبَ عليهم بخيله ورَجِلِه، ويستفزز مَن استطاعَ منهم بصوته، ويشارِكَهم في الأموال والأولاد، ويَعِدَهم، وما يَعِدُهُم الشيطان إلا غروراً.

[طريقة رفع المَرَض عن المريض]

وأما رفع المرض عن المريض فكيفيته أن يتخيَّلَ نفسَه المريضَ، وأن ذلك المرضَ متلبِّسٌ به، ويجمعَ كُنْهَ الهمة، بحيثُ لا يخطر بباله سوىٰ هذا الخاطر، فإن المرضَ ينتقل /١٢/ إليه، وهو من عجائب صُنْعِ الله تعالىٰ في خَلْقِه.

[طريقة التصرُّف في العاصي بإفاضةِ التوبة عليه]

وأما إفاضةُ التوبة علىٰ العاصي، فصورته: أن يتخيَّل نفسَه ذلك العاصي، ويقطعَ ملاحظةَ الغيرية بين النفسين، كأنّ نفسَه تعانقتْ مع نفسه، ثم يجدِّدُ الأوبةَ والإنابة إلىٰ الله تعالىٰ، ويَجارُ إليه بالندم والتوبة والاستغفار، فإن ذلك العاصيَ يتوبُ عن قريب، ولْيُعاود ذلك المرارَ بعدَ المرار، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]، فإنما لم يقل جل شأنه: (يقبل توبةَ عباده) لإفادة هذه المسألة، وهي أنّ مَن تابَ نيابةً عن شخصٍ فإنّ توبته تُقبَلُ عنه، ويُنَزِّلُ ذلك المَتُوبُ عنه منزلةَ التائب، هذا في النيابة، وأما الآن فقد أفضَتْ النفسانِ إلىٰ نفسٍ واحدة، والسلام.

[طريقةُ التصرُّف في قلوب الناس لإرساءِ المحبة بينهم]

وأما التصرُّفات في قلوب الناس حتىٰ تقع رابطةُ المحبة والوداد، أو في مداركهم، حتىٰ تسري فيها الواقعات، فصورتُه: أن يصدمَ نفسَ الطالب بقوةِ الهمّةِ والعزم والتوجُّهِ الرُّوحي، ويجعلَها متصلةً ومتلبِّسةً به، ثم يتخيَّلُ صورةَ

الحبِّ والود، أو الواقعةَ المثالية، ويتوجَّهُ إليها بمجامع القلب، فإنّ هذا المتوجَّهَ إليه يتأثَّرُ وتحصُلُ له الواقعة.

[طريقة الاطِّلاع علىٰ نسبةِ أهل الله ومقاماتهم]

وأما الاطلاعُ علىٰ نسبة أهل الله فطريقه أن يجلسَ بين يديه، إن كان حياً، وتجاهَ قبرِهِ إن كان في البرزخ، ويجرِّدَ نفسَه عن كل نسبة، ويُفضيَ بوجهه إلىٰ روحِ هذا الشخص زماناً حتىٰ تتصل بها، وتختلط، ثم يرجعُ إلىٰ نفسه، فكلما وجدَ فيها من الكيفيات فهو نسبةُ هذا الشخص لا محالةَ.

وقد يتعرَّفُ الإنسانُ بهذا ـ إن تَمَّ له الحضورُ والالتفاتُ الروحي ـ الحالةَ التي مات عليها الميت، أيَّ اسمٍ غلبَ عليه وروحِهِ بسكوته حالةَ خروج روحه، فإنّ الأمواتَ كل واحدٍ منهم يتجلَّىٰ له مقتضىٰ الاسم الذي كان أغلبَ عليه في الحياة[١].

ومن عَلِمَ هذا: لا يشترط في الميت النطق بالكلمة المشرَّفة، بل العلمُ بها كافٍ عندَ خروجِ الروح، لقول الأنباء المحمدية: «مَن مات وهو يعلمُ أن لا إلٰه إلا الله دخل الجنة»[٢]، تأديباً من الشارع لمن رأىٰ مريضاً» خامَرَهُ المرضُ وغَيّبه عن حِسِّه إلىٰ أن مات، فإن الحاضرَ عندَه لا يجوزُ له أن يلمِزَهُ بشيء، لأنَّ العلمَ بمقتضىٰ التوحيد كافٍ، وطُرُقُه تتشعَّبُ حسب الأسماء الإلٰهية، وهذا المحدَّث عنه يعلم أيَّ الشعب خرج عليها من الدنيا هذا الميتُ بتوجهه للحضرات الأسمائية. /١٣/

وهذا العلمُ لم نَرَ له ذائقاً، والله الواهبُ المفضال، الجوادُ الكريم.

---

(١) لما توفي المترجم رضي الله عنه كان آخرُ ما تلفظ به: «الله» بصوتٍ عالٍ اهتز له السجن الذي كان به بفاس، كما في «بلوغ الأماني» ص٢١، لنجله الإمام الباقر رحمه الله تعالىٰ.

(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٦) في باب من مات على التوحيد دخل الجنة عن عثمان رضي الله عنه.

[طريقةُ الإشراف والكشفِ عن الخواطر]

وأما الإشرافُ علىٰ الخواطر فطريقُه: أن يجرِّدَ نفسَه عن كل حديثٍ وغيره، ويفضيَ بنفسِه إلىٰ نفسِ هذا الشخص، فإن اختلجَ في نفسِه حديثٌ من قبيل الانعكاس والتقابل، فهو خاطرُه.

[طريقة كشف الوقائع المستقبلية]

وأما كشفُ الوقائع المستقبلة فطريقُه: أن يُفرِّغَ نفسَه عن كل شيءٍ إلا انتظار هذه الواقعة، فإن انقطعَ عنه حديثُ النفس وكان التوجُّهُ بكُنْهِ الهمّة وتباعد عن العالم السفلي بالمعنىٰ والملاحظة وأكثرَ من مطالعة العالم العُلْوي إلىٰ أن يقرُبَ بروحه للملإ الأعلىٰ علىٰ حسب استعداده والتجرُّد عن العلاقاتِ الكونية فإنه عن قريبٍ ينكشفُ له الأمر، إما بهاتفٍ، أو رؤيةٍ واقعةٍ حسيةٍ أو خيالية.

ومن أنكرَ هذا فكأنه لم يعلم ما في «الصحيح» من قول المربِّي للنفوس والأرواح: «قد كان فيمَن قبلكم محدَّثون، وإن يكن في أمتي فعمرُ منهم»[١].

وقد قال سيدنا عليٌّ: «إنَّا لنرىٰ في القرآن رأياً من رأي عمرَ تعبَّدنا الله سبحانه به».

والموافقاتُ العمريةُ من هذا القبيل، وقال أبو تُراب[٢]: «كنا نرىٰ أنّ السَّكِينةَ تنطق علىٰ لسان عمر»[٣]، والسلام.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٦٨٩)، والترمذي (٣٦٩٣)، وغيرهما عن أبي هريرة رضيَ الله عنه.

(٢) وهي كنيةُ الإمام علي بن أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٣) ذكره الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (سير الخلفاء الراشدين) ص٧٦ عن الشعبي عن علي بلفظ: «ما كنا نُبعد أن السكينةَ تنطق علىٰ لسان عمر».

ولكنّ شرطَ صاحبِ المسألة أن يعرفَ ارتباطَ العالم السُّفْليِّ بالعالم العُلْوي، ويعلمَ شُعَباً من عالم الخيال بقسمَيه: المتصل، والمنفصل، ونوعَيه: المُطْلَق، والمقيد، ويكون له السَّبْحُ الكاملُ في العالم الخيالي، فإنه يتحقق بالوقائع المستقبلة.

وإياه أن يغترَّ بالبَرْقِ الخُلَّب، فإن الصدِّيقَ الأكبرَ لما عَبَّرَ الرؤيا قال له سَنَدُ الكُلّ: «أصبتَ بعضاً، وأخطأتَ بعضاً»[١]، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف: ٨٥][٢].

[طريقة التصرُّف بدفع البلية النازلة]

وأما دفعُ البلية النازلة فطريقه: أن يتخيل نزولَها ويستحضرَ روحانيتَه صلىٰ الله تعالىٰ عليه، ويستحضرَ تأديباتِهِ وإرشاداتِهِ في مثل هذه المسألة، ويعلمَ أنه لا ينطقُ عن الهوىٰ، فإنه قال: «الدعاءُ يرد القضاءَ المبرَم»[٣]، أي: الذي يُظَنُّ أنه لا يَنْحَلّ، وقال: «الدعاءُ والقضاءُ يعتلِجان بين السماء والأرض إلىٰ يوم القيامة، فيقول الدعاء: أُمرت أن أرُدَّكَ، ويقول القضاء: أُمرت أن أنزل»[٤].

---

(١) كما في البخاري (٧٠٤٦) من حديث ابن عباس رضيَ الله عنه.

(٢) تكلم المصنف رضيَ الله عنه بنوع من التوسع عن هذه العلوم في كتابه الفخيم «الأمالي في علم الأمهات»، المضمَّن بضعاً وتسعين عِلْماً، وهو ممّا أعددناه للنشر ـ بحمد الله ـ ضمن هذه السلسلة المباركة.

(٣) أخرج الترمذي عن سلمان رضي الله عنه مرفوعاً: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»، ورواه أحمد وابن حبّان والحاكم عن ثوبانَ مثلَه. قاله الحافظ في «التلخيص» (٤: ١٢١).

(٤) أخرجه الحاكم في «مستدركه» بلفظ قريب (١: ٤٩٢)، في إسناده زكريا بن منظور، قال الذهبي: «زكريا مجمعٌ علىٰ ضعفه». وأخرج الطبراني في «الأوسط» (٤٤٦ من مجمع البحرين) والبزّار (٢١٦٥) وغيرُهما من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها: «لا يغني =

ثم يجمعُ هِمَّتَه علىٰ ذلك، ويربو عن الملابساتِ الكونية إلىٰ حيز العالم التقديسي والسافل، /١٤/ فإنها عن قريبٍ تنقشع ببركة الأنفاس المحمدية، والسلام.

[الخاتمة: في شرط التصرُّفات السابقة]

والشرطُ في هذه التصرفات: الإفضاءُ بنفسك إلىٰ نفس المؤثِّرِ فيه، والإلمامُ بها، والاتصالُ بها، واعتناقُها اعتناقَ لام الألف.

وروحُ هذه المسألة التجرُّدُ من الغواشي البدنية، ومحوُ النقوش الكونية، وأربابُ هذا التجريدِ القلبيّ يعرفون هذا الاتصالَ وهذا الاعتناقَ بالمعاني التجريدية الكائنة في الآماد[1]، والسلام.

انتهت بحمد الله

❋ ❋ ❋

= خَذَرٌ من قَدَر، والدعاء ينفع ممّا نزل وممّا لم ينزل، وإنّ الدعاء ليلقىٰ البلاءَ فيعتلجان إلىٰ يوم القيامة»، وفي إسناده زكريا بن منظور أيضاً، وروىٰ البزّار (٣١٣٦) نحوَه عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه، وفي إسناده: إبراهيم بن خَيْثم بن عراك، متروك، قاله الهيثمي في «المجمع» (١٠: ١٤٩).

(١) في الأصل: في الأمادة.

النفائس الكتانية
٥

الرسالة إلىٰ أهل سَلا
في فضل الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ والحَضّ عليها

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهَدِ بفاس سنةَ ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

التي تعرفت قبل الصلاة وعن تلك الاحوال والترقيات التي حصلت له في
الصلاة الركوع فاذا سجد له تعالى يصير عبدا حقيقيا لا نهاية حريته فيه فكأنه
بسجوده في الظاهر له بسجوده في باطنه فيحصل على مقام المناجاة فقربانه لك
من رفع اليدين في الركوع والرفع منه وبعوض الحور المقصورات في الخيام
ومن الرفع عند تكبير الاحرام انسلاخا من جميع الاعمال التي تعرفت قبل الصلاة
ولما نظر الامام الاعظم ابو حنيفة رضي الله عنه الى هذا السر العجيب والامر
الغريب وانه امر خاص بالعارفين رضي الله تعالى عنهم واما من يصل في الاكتساء
متشبها بالقراء ان الرفع من حيث هو الذي قام به سببه وتحقيقه حسن
نعيمه فانه منسوخ عند بعض اصحابنا وان كان ثابتا عند البخاري وغيره
يستعمل لمن لم يدرك في ذلك المقام انه بفعله متشبها بالسادة الكرام [illegible]

ومن رسائله العجيبة النافعة العظيمة الموضع ما كتب به لاخوانه الافاضل
سلك ابوابنا الله واياكم ونصحه بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل وسلم وبارك على من
لم يغفل عن الله طرفة عين لا في نوم ولا يقظة وعلى آله وصحبه عدد رضاك عنه
وانما يفعل بمحبة الله عز وجل ...... [illegible] الدين [illegible]
من محمد الشيخ عبد الكبير [illegible] الكتاني الى كافة اخواننا الاماجد [illegible]
والبدور المنيرة [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] الارباب
ووجب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] عليهم [illegible]
[illegible] الصواب [illegible] [illegible] عنه [illegible] [illegible] [illegible]
و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الاعمال [illegible]
والوجهة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] العصري بلغ [illegible]
[illegible] طريق الى الجنان [illegible]
[illegible] الملك الجامع [illegible]
[illegible] ودع عنك [illegible] على الرشيد [illegible]
[illegible] طريقا [illegible]
[illegible] العصر [illegible] له ذنوب
[illegible] الليلة [illegible] الشهور
[illegible] عظموا المواطن [illegible]
[illegible] واغتنموا العمر
[illegible] والشكر [illegible]
[illegible] وذكرا [illegible]
[illegible] اليه [illegible]
[illegible] العظيم [illegible]
[illegible]
[illegible] الرسالة الكريمة المحتوية على اجوبة
[illegible]
[illegible] الله [illegible]
[illegible]
[illegible] المعظم المحترم [illegible]
[illegible]
[illegible]
اجوبتها

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم وبارك علىٰ من لم يغفل عن الله طرفةَ عينٍ لا في نومٍ ولا يقظة، وعلىٰ آله وصحبه عددَ رضاك عنه.

«رأسُ العقْلِ مخافةُ الله عز وجل» «مِـــلاَكُ الـــدِّيـــن الـــوَرَع»

من محمد بن الشيخ عبد الكبير الأحمدي الكتاني إلىٰ كافة إخواننا الأقمار المضيئة، والبدور المنيرة، الأماجد الأماثل، الأناجد الأفاضل، مَن نرجوا لهم من رب الأرباب ومسبِّبِ الأسباب جلَّ جلاله أن يأخذَ بوجْهاتهم إليه، ويجمعَ قلوبَهم عليه، ويصرِفُ عنهم العوائقَ والعلائقَ التي تقطع عنه سبحانه، ويجمعَ لهم ضروبَ السعادة وتشعُّباتِ الكمالات، آمين.

أهلَ «سلا»، أخصُّ منهم: المقدَّمَ الأجمل الأحفل، والوجيهَ الأحبَّ المطرِب: سيدي الطاهر، والصافي القلب: الأمين الحارثي، وولدَ القلب: /١/ سيدي ابن حساين، وكُمكُمة النور: سيدي أحمد (نَحِلَ تَلِد العسل)[1].

---

(١) المقدَّم هو: أبو بكر بن محمد التطواني، السلاوي، خليفة المؤلف بسلا، وصاعقة العلم والمعرفة، له عدة مؤلفات ورسائل، وكان له الفضل في نشر العلم والتصوف الصحيحين بسلا، وطنجة، اعتقل في سبيل الله تعالىٰ، فجعل السجنَ كأنه مدرسة علمية وصوفية، فأطلق سراحُه، وقد وصفه المؤلفُ كما في «الرحلة الحجازية» للعَمراني بـ: «عتيق الله في الأرض». توفي سنةَ ١٣٣٧هـ، وذكر الجِراري في «تاريخ علماء الرباط وسلا» (٢: ٢٦٧) أنه سمع علىٰ المصنف رضيَ الله عنه حوالي المائة سِفْر. =

سلامُ الله علىٰ سيادتكم والرحماتُ والبركات، عن خير ظلِّ الله في الأرض، أما بعد:

فقد اشتقنا أخباركم، وتعشَّقْنا رؤيةَ آثارِكم أو سماعَها، ونطلبُ من الله جلَّ كرمُه أن تكونَ الزاويةُ عامرةً في الأسحار، وقبلَ طلوع العصر يومَ الجمعة، وعمومَ الأوقات، فإن المحلَّ الذي يحضره مولانا رسولُ الله ﷺ تكون العبادةُ فيه مضاعفةً علىٰ غيره من الأماكن، وتكون التهليلةُ فيه ليست كالتهليلةِ في غيره، والتسبيحةُ والحَسْبَلة، والركعاتُ والتلاوة.

[الحض علىٰ الإكثار من الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ]

فأكثروا إخواني من الصلاة علىٰ مولانا رسولِ الله ﷺ، بالمُتَرَدِّي والقاسم[(١)]

= الطاهر: لم أتعرف عليه، وكذلك الأمين الحارثي.

ابن حُسَّاين: فهو محمد بن أحمد بن حساين النجار السلاوي، رئيس الطريقة الكتانية بسلا، ومدير المدرسة الكتانية التي أخرجت أجيالاً كثيرةً بسلا، العلامة المشارك الصوفي الداعية، أحد المنتفَع بهم في المغرب، ما ترك التدريس والدعوة إلىٰ الله حضراً أو سفراً، صحة أو مرضاً، له عدة رسائل صوفية، وتوفي عام ١٣٧٥.

أحمد: كأنه أحمد بن عبد الله القباج، الشهم الهمام الذاكر العابد الوجيه، كان متفانياً في محبة آل البيت الكرام. وقوله: «نْحِلَ تلد العسل» أي: «نُحيلة تلد العسل» وهي بشارةٌ له، وقد ذكرها بالعامية المغربية.

(١) المتردي والقاسم صلاتان أنشأهما المؤلف ـ رضي الله عنه ـ فيها جملةٌ عظيمةٌ من الثناء علىٰ رسول الله ﷺ وعلىٰ آله، أما القاسم فهي مضمنة في ورده الشريف، وقد عُهد عن جملةٍ من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم أنهم أنشأوا صلواتٍ علىٰ رسول الله ﷺ، وعلموها بعضَ أتباعهم. وقد فصّل المؤلف ـ رضي الله عنه ـ في هذا الأمر في كتابيه: «لسان الحجة البرهانية»، و«الكمال المتلالي»، وكذلك في كتابه الكبير «خبيئة الكون».

أما صلاة المتردي فنصها: =

حتىٰ تتلطَّفَ الكثائف، وتَرِقَّ مراتبُ الظلام التي خُلقت عليها الذاتُ الإنسانية، فإن الصلاةَ علىٰ مولانا رسول الله أُمُّ السعادات، وأساسُ الكمالاتِ والقربات، حتىٰ قال سيدنا الجدُّ عليُّ بن أبي طالب: «لولا أن الله فرضَ عليَّ ذكرَه ما أتقرَّبُ إليه إلا بالصلاة علىٰ مولانا محمد صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله، لِمَا سمعتُ منه فيها»[(١)].

وفي الحديث: «إن غزوةً لِمَن حَجَّ حجةَ الإسلام تعدل غزوتُهُ أربعمائة حجة»، فانكسرت قلوب قوم لا يتيسر لهم الغزو والجهاد، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: «ما صلىٰ عليك أحدٌ إلا كُتِبَت صلاته بأربعمائة غزاة، وبأربعمائة حجة»[(٢)].

ولعل هذا في الصلاة علىٰ مولانا رسول الله بصلاةٍ عظيمةٍ اشتملت علىٰ أمهاتِ الكمالات المحمدية، والمَلَكات القدسية المبثوثة في تلك الذات التي لا مثل لها في النوع البشري والمَلَكي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله.

= «اللهم صل علىٰ سيدنا ومولانا أحمد، المُتَرَدِّي بأردية الكبرياء وأشِعَّة الفَرْدانية، الملتثم بمعاني عظمة سُرادِقات غيب الهويَة، المتأحِّد في عَيْن الكَثْرَة، المُتكثِّر في عين الوحدة، الملتحف بوَحَدات الذات، المُسْتوي بِقِدَم الأحدية علىٰ عرش الصفات، المُثنىٰ عليه بلسان جَمْع الجَمْع في مهامِهِ الغارات علىٰ خَطِّ قَوْسِ لِسَانِ الأَزَل، بِمَحْوِ الذَّاتِ بالذَّاتِ للذات في الذات، الحمد لله رب العالمين، الرحمٰن الرحيم، ملك يوم الدين، خَطُّ الدائرة ونُقْطَةِ البُرُوج، دِفْتَرِ المثاني وقَهْرَمَانِ العُرُوج، العَبْدِ الحَقَّاني، المُنْفَرِدِ بليس كمثله شيء، الأحديِّ الثاني، المتلوِّ عليه بلسان الجمع في حَضْرَةِ جَمْعِ جَمْعِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، هيهات هيهات وما يَعْقِلُها إلا العالِمُون، وآله وصحبه وسلم».

(١) رواه الإمام بقي بن مخلد الأندلسي في مسنده: حدثنا هانيء بن المتوكل عن معاوية بن صالح عن رجل عن مجاهد عن علي بن أبي طالب به. كما في «وسيلة الولد الملهوف إلىٰ جده الرحيم العطوف» لخاتمة الحفاظ الشريف عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني شقيق المصنف.

(٢) لم أجده.

[الله تعالىٰ يصلي علىٰ من يصلي علىٰ رسوله ﷺ]

وحيثُ كان المصلِّي يصلِّي مرةً واحدةً عليه فيصلِّي اللهُ سبحانه عليه بجلاله وكماله وعظمته سبعينَ صلاةً[١]، والصلاة من الله تعالىٰ علىٰ قدْر جلاله وإكباره، وصلاتكَ أنتَ علىٰ قدر حدوثك وقصورك وتقصيرك وجهلك وضعفك، وصلاته ـ جلَّ سلطانه ـ علىٰ قدر عزته وعلوه وحيطة علمه.

فصلاةٌ واحدةٌ من الله تعالىٰ علىٰ من صلىٰ علىٰ حبيبه توجد في صحيفة العبد، أفضلُ له من /٢/ عبادةِ أهل الدنيا والآخرة وأهلِ السماء وأهلِ الأرض تكون في صحيفته بدون صلاة الله عليه.

هذا في صلاةٍ واحدةٍ يصلي عليه سبعين كما في الحديث الآخر، والسلام عليه كذلك، فكيف بمائة صلاةٍ في اليوم، فكيف بخمسمائة في اليوم، فكيف بألف؟!!

وإذا تيقظ الإنسان لما تلوناه وشرحناه، وعلم جلالةَ مركز دائرة الأنوار، انبعثَتْ من قلبه دواعي الإكثارِ من الصلاة والسلام عليه، قياماً وقعوداً، وفي المَنْشَط والمَكْرَه، والعُسر واليُسر، واليَقَظة والنوم، وفي الأكل والبيع والشراء.

[جعل الله تعالىٰ لسيدنا محمد ﷺ من الجاهِ ما لم يجعله لغيره]

وقد جعل الله لسيدنا محمدٍ من الجاه ما لم يجعله لغيره في العوالم كلها، فمن تعلَّقَ به أدنىٰ تعلق، وانتسب إليه أدنىٰ انتساب، وانحاش إليه أدنىٰ انحياش؛ أخذ الخيرَ بكلتا اليدَين، وسُقِيَ من حضرة العَين، وانزاحَ عنه الغَين.

وتذكَّروا قضيةَ الإسرائيلي الذي قَبَّلَ اسمَ مولانا رسولِ الله لما وجده في التوراة، فغفر الله له ذنوبَ مائتي سنة، وزوجه سبعينَ حَوراء.

---

(١) رواه أحمد عن ابن عمرو (٢: ١٧٢).

والمَلِك الذي قال: وددتُ أنْ لو كنتُ في زمن مولانا رسول الله لنصرته بهذه الجنود، فغفر الله له على ما كان منه.

والباغيةُ المسرِفةُ على نفسها التي كانت تتحسَّر على عدم رؤية مولانا رسول الله كلما أرادت أن تنام، فلما ماتت أوقفها الله سبحانه بين يديه وقال لها: إنا نستحي أن نعذِّبَ من كان يشتاقُ إلى حبيبنا.

[الله تعالىٰ ملأ العوالِمَ كلَّها بذكرِ رسوله ﷺ]

وانظر كيف ملأ الله جل أمره العوالِمَ كلَّها بالشغل به ﷺ وعلىٰ آله، عالَمَ العزة، وعالَمَ الملكوت، والعالَمَ الأرضي، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فحضرةُ الربوبية: حضرةُ العزة، وحضرةُ الملائكة: عوالم التقديس، وقد ملأها سبحانه بالثناء عليه، والشغل به، وكذلك العوالم الأرضية فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وهذا مجموعُ أصولِ العالم.

وبه يُعلم أنّ المكثِرَ من الصلاة /٣/ والسلام عليه: ذاكرٌ لله تعالىٰ أيضاً، لأن الله تعالىٰ ما شغل هذه العوالم إلا بأعظم الطاعات، وأفضلِ القربات، فالذاكرُ له صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم ذاكرٌ لله تعالىٰ حقيقةً، لأنه أمرٌ من الله بذلك، علىٰ أنه يقول: «اللهم».

فأكثروا إخواني من الصلاة علىٰ مولانا رسول الله ﷺ، لتكونوا أقربَ إلىٰ الحق من كل أهل عصركم.

وفي «القشيرية»: «أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ كَليمِه سيدنا موسىٰ علىٰ سيدنا محمّدٍ وعليه السلام: «يا موسىٰ، إني قد جعلتُ فيكَ عشرةَ آلافِ سمعٍ حتىٰ

سمعتَ كلامي، وعشرةَ آلافِ لسانٍ حتىٰ أجبتني، وأحبُّ ما تكون إليَّ إذا أكثرتَ الصلاة علىٰ محمد»[1].

وفي رواية: «أتحب أن أكونَ أقربَ إليك من كلامك إلىٰ لسانك، ومن نُور بَصَرِك إلىٰ عينك، ومن رُوحك إلىٰ بدنك، وأن لا ينالَكَ عَطَشٌ يوم القيامة؟!، فأكثِرْ من الصلاة علىٰ محمد»[2]، صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله.

[لرسول الله ﷺ من النعم علىٰ جميع العباد ما استرقهم بها]

سيّما ولمولانا رسولِ الله من النِعَمِ علىٰ جميع العباد ما استرقَّهم بها، وصيّرهم، فنعمةُ السمع هو الواسطة فيها، ونعمةُ البصر، ونعمةُ الشم، ونعمةُ الذوق، ونعمة الإدراك، ونعمة السعي. فالخَلْقُ كلُّهم مغمورون في نعمته، ومستفيضون من أبحُرِ بَرْزَخِيّته، ومظاهر تكرُّمه، فهو القاسمُ[3] أمدادَ الخزائن

---

(١) انظر «الرسالة القشيرية» للإمام أبي القاسم القشيري ص٦٥٧.

(٢) لم أجده في «القشيرية»، وربما هو في غيرها.

(٣) في الحديث الصحيح كما في البخاري: «إنما الله معطي وأنا قاسم» انظر تخريجه في «سفينة المحبة» التعليق رقم «٢».

وهنا اقتباسٌ من صلاة كريمة للمصنف ـ رضي الله عنه ـ نصها:

«اللهم صل وسلم علىٰ سيدنا ومولانا أحمد، القاسم أمدادِ الخزائن الإلٰهية، علىٰ أَجْناد الدوائر المُلْكِيَّة، من لُجّة قاموس بَحْر جودِك الأعظم، الطامحةِ لشآبيب فيضه قوابلُ المُمْكِنات في عالَم البطون والظهور، الذي جعلتَ اسمَه ـ الجامعَ المُفيضَ ميازيبَ رَحَمات العطايا، الراعي برعاية الله، والحامي بحِرْزِ الله، والكالِىءِ بكَلَاءة الله ـ متحداً باسمك الأعظم، الذي به انتظم أمرُ العالم، واستقام أمر السماوات والأرضين، من مَنِّكَ ونَعْتِك.

ووَضَعْتَ في عالم التخطيط من التجلّي الرحماني، صورةَ هيكله الجِسْماني، مثالاً انطَبَعَتْ الكائناتُ أجمعُها بشكله المحمدي عنواناً للسعادات الأبدية السَرْمَدِية، علىٰ صورة أُنموذج الأشياء من رحمة بَحْر حقيقة «خَلَقَ الله سيدَنا آدم علىٰ صورته»، وفَجَّرْتَ عُنْصُرَ =

الإلٰهية، علىٰ أجناد الدوائر المُلْكية، من لُجّةِ قاموس بحرِ جُودِكَ الأعظم، الطامحةِ لشآبيب فيضه قوابِلُ الممكنات في عالم البطون والظهور، فإذا كانت أمدادُه للخَلْق بهذه المثابة، فكيف لا يدأبُونَ في كل أوقاتهم علىٰ ذكره والشغلِ به والثناءِ عليه؟!

سيّما بصلوات الطائفة الكتانية الجامعة لما تفرّق في غيرها من الصلوات، والمصلِّي بها يحبُّه مولانا رسولُ الله محبةً جمعيةً من جميع ذاته المحمدية، إذ صلواتُنا تصفُ الكمالاتِ المحمديةَ وأمهاتها بالمرة، فتنبعثُ من كل فضيلةٍ في الذات المحمدية محبةٌ وتوجُّهٌ خاصٌ لمَن أثنىٰ عليه بها، ضرورةَ أن الكرام إذا /٤/ مُدِحُوا أجزلوا العطايا والمِنَح.

فعمِّروا إخواني أوقاتَكم وأنفاسَكم بالتعلُّق بمولانا رسولِ الله ﷺ التعلُّقَ الخاص، حتىٰ لا تُرَدَّ لكم طَلِبَة، ولا يُسَدُّ في وجوهكم باب، ولا يعْسُرَ عليكم مأربٌ سماويٌ أو أرضي، لما أنّ الجاهَ عظيم، والبحرَ فَيّاض، والمَدَدَ واسع، والكرمَ عميم، والجودَ طمٌّ:

يـاسيـنُ إكسيـرُ السعـادةِ طـٰـهَ	إنسـانُ عيـنِ الكـوْنِ سِـرُّ وجـودِهِ
قـال الإلـٰهُ لـه ـ وحسبُـكَ جـاهـا ـ	كيف السبيلُ إلىٰ تقصِّي مَدْحِ مَنْ

= موضوع مادة محموله، روح العالم، وآدم آدمَ، ونُقْطَةِ باء كُتُبِ الغيوبات من أبْيّةِ «أنا الله» بابِكَ الأعظم، وصراطِكَ الأقْدَسِ الأقْوَمِ، السابحِ في بحار عَظَمةِ نُور وَجْهِك، الدال عليك بك في جميع الحَضَرات والحيثيات، وزُجَّ بي في أرض الأنوار، واحْمِلني بِعِنَايَتِهِ علىٰ مَطِيَّة الأسرار، وأشهدْنِيه حتىٰ أتَحَقَّقَهُ وُجداناً وعياناً، وأغرِقْنِي في عين حياة طوالع سعود حقيقتِهِ الربانية حتىٰ أكون به ومنه وإليه، بل حتىٰ إذا جاءه لم يجدْهُ شيئاً وَوَجَدَ الله عنده، وآله وصحبه وسلِّمْ تسليماً عددَ رضاكَ عنه، يا الله، يا الله، يا الله».

وقد شرح هذه الصلاة العلامة الإمام عارف مراكش الشريف أبو عبد الله محمد ابن المعطي العمراني الإدريسي الحسني، في مؤلفٍ سماه «حل الطلاسم في شرح صلاة القاسم»، طبع في مصر عام ١٣٢١هـ.

إن الـذيـن يُبـايعُـونَـكَ إنّمـا   ـ فيمـا يقـولُ ـ يبـايعـونَ اللهَ

هـذا الفَخـارُ، فهـل سَمِعْـتَ بمثلـه   واهـاً لنشـأتِـهِ الكـريمـةِ واهـا

مـلائكـةُ الـرحمٰـن جَـلَّ جـلالُـهُ   تحُـفُّ بقـوم يـذكـرون محمّـدا

يقولون: زِيدوا مِن مدائحِ أحمد   وجُدُّوا ولا تَنْسَوْا مدىٰ الدهر أحمدا

فجِبْـريـلُ والأمـلاكُ فـي دَرَجَـاتِهـم   غِـذاؤهـمُ ذكـرُ النبـيِّ محمّـدا

وخُـدّام ربِّي فـي السمـاواتِ كلِّهـا   يُصَلُّـون إكـرامـاً علىٰ عَلَـمِ الهـدىٰ

وجُملـةِ أهـلِ اللهِ كـلٌّ بـذكـرِهِ   توسَّلَ للرحمٰنِ في مَوقفِ النَّدىٰ

وهـلْ سيّـدُ الساداتِ إلا نبيُّنـا   أتـىٰ رحمـةً للعـالميـن وسَيِّـدا

ولا رافـعٌ للحُجْـبِ إلاّ محمّـدٌ   وما مُنقِذٌ غيرُ الحبيبِ مِنَ الرَّدَىٰ

ومـا المصطفىٰ المختـارُ إلاّ مُرَفَّـعٌ   وذاكـرُهُ أضحـىٰ بـذِكْـرِه سيِّـدا

أضـاءَتْ قلـوبُ السـالكيـنَ بحُبِّـهِ   فيـا حَبَّـذا قلـبٌ يُحِـبُّ محمَّـدا

ومـا ذِكـرُ خَيـرِ الخَلْـقِ إلاّ مُطهِّـرٌ   لأدنـاسِ قلـبٍ قـد أضرَّ بـه الصَّـدا

وهل تَثْبُتُ الظَّلْماءُ في قلبِ ذاكرٍ   تَـلألأَ بـالنُّـورِ العَلِـيِّ تَـوَقُّـدا

وأيُّ سَنـاءٍ مثـلُ نُـورِ محمّـدٍ   به أشرقَتْ أنوارُ قلبِ مَنِ اهتدىٰ

وكلُّ حِباً في المَجْدِ يُمْنَحها الفتىٰ   بذكرِ نبيٍّ في الهُدىٰ بَلَغَ المَدىٰ

وذِكْـرُ حبيـبِ اللهِ لا شَـكَّ عنـدَنـا   طريقٌ إلىٰ الجَنّاتِ فاسلُكْ مجرَّدا

ووافقْ أخا الإرشادِ يُنبئْكَ ناصِحاً   عن المَسْلَكِ السامِيْ ولا تَكُ مُفْرَدا

ولُـذْ بـإمـامٍ لا يُفـارِقُ سنَّـةً   ودَعْ عنكَ من أضحىٰ عن الرُشْدِ مُبْعَدا

فمـا يَـرْتَـعُ السُّبّـاقُ إلا بهـذِهِ   ألا يا فتىٰ فاسلُكْ طريقاً مُؤيَّدا[1]

---

(١) من قصيدة شهيرة للإمام الساحلي رضي الله عنه، وسيأتي ترجمته.

ولذلك وردَ أنّ من صلىٰ عليه في يومِ جمعةٍ بعدَ العصرِ ثمانينَ مرة غُفرت له ذنوبُ ثمانين سنة[١].

فأكثروا ـ إخواني ـ منها يومَ الإثنين وليلتَه، لأنّ فيه ظهرَ هذا النورُ الأعظم، ويومَ الخميس وليلةَ الجمعة ويومَها[٢]، ولا بُدَّ، واعطُوا المواطِنَ حَقَّها تكونوا من خُدّامه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم، وعلىٰ آله وأحبابه، وخاصته، واغتنموا العمرَ فقد ضاعَ سَبَهْلَلاً.

فاذكروا اللهَ يذكركم، واشكروه يَزِدْكُم، وخافُوه يُؤمِّنْكم، وارجُوه يُنِلْكم، واسألوه يُعْطِكم، وتأدبّوا عندَ ذكرِه يُجْلِلْكم، وقوموا عندَ أمره ونهيه يرفَعْكم علىٰ أقرانكم، واطمَحُوا لوُجهتكم إليه يُشهِدْكم ويُطلِعْكم علىٰ ما عندَه، وأخلِصُوا أعمالكم إليه وحدَه يَكْفِكُم شرورَ أنفسكم، وإنّ الله بكم لرؤوفٌ رحيم، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمّدٍ وعلىٰ آله وصحبه وسلَّمَ تسليماً.

انتـهت

* * *

(١) رواه الدارقطني من غير قوله بعد العصر، وحسّنه العراقي، كما ذكره شيخنا العلامة عبد الله ابن محمد الغماري الإدريسي في «النفحة الإلهية في الصلاة علىٰ خير البرية». وورد بمعناه عند ابن بشكوال عن أبي هريرة مرفوعاً، كما ذكر الحافظ السخاوي في «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» ص٢٨٤.

(٢) يوما الإثنين والخميس تُعرض فيهما أعمال الأمة علىٰ رسول الله ﷺ، أما يوم الجمعة وليلته فيستحب فيهما الإكثارُ من الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ، كما وردت بذلك كله الأحاديث الكثار، فناسب أن يكثر المرء فيها من فعل الخيرات بالأخص الصلاة علىٰ مركز الخيرات وأُسِّها رسول الله ﷺ وعلىٰ آله.

وجوب اقتران ذكر رسول الله ﷺ بذكر الله تعالىٰ وكلامٌ في وجوب التزام الأدب

تأليف
الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني
المستشهَدِ بفاس سنةَ ١٣٢٧ هجرية
رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم [illegible]

من مكناس

[illegible]

[illegible] الفقيه [illegible] ومولانا وسيدنا الوالد [illegible]

[illegible]

[illegible] صلى الله عليه وسلم [illegible] بالأولى كثيرا [illegible] من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وأما [illegible]

[illegible] سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم [illegible]

[illegible] والحمد لله [illegible]

عدم مقالات كتبهم وعدم ان اعتقاد بما تأتوا يقتدون به وهو الذي ألجأ
الاحتياج من مثل هذه المسئلة والا فالسلف لم يكن معروفا عندهم
في هذا الزمان تشوه سببه تلك الطريقة من هجرت وحدث احداث من
وبدعات تغييرات ما مثل الطريقة ومن شر المسالك وهجرت كتب
القوم ومن ربما زار ربما جهلوا بانه صوفية ولعمري لا يغيب [illegible]
سيما انه في اليمن مع تشنيعا على تكتم التصوف الحقيقي المؤسس
على ذلك التشريع الذي محصوله علم والسنة في الكتاب والسنة وتحلي شيء
ومن الاتباع العلمي واخلاص حقيقي ومشاهدة حقيقية وعبادة كما
انه لما كان كذلك الزهو. فنشأ من اشكال الدين والصحيح
دينه وجهاد شرعه والظن ان هذه البغية التي يبتغيها الاسلام
معروفة في الارض ومنها المغرب والسلطنة العثمانية لا يستوي
مستوى الاجنبي ببعض هالالات في بقية الاسلام اليوم وليس معينا
ليستزيد [illegible] الحركة الالهية [illegible] الذكر وانا لله نعم
لما [illegible] في بقية بلاد الارض من اهل الاسلام
وعدم استنهاض بالعمر والالتزام انقلاب العلم جهلا وضع اصدق
من الله وكما القوم يعرفون والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلِّ وسلم وبارك علىٰ مُنْبَعَثِ الألطاف، وعلىٰ آله وأصحابه المُرْتَفِعِينَ على الأعراف.

من محمدٍ إلىٰ إنسانِ عين الزمان، بل عين إنسان نوع الإنسان، وسَنَدِ الليالي المُضْمَرِ في خاطر الدهر، بل نَدْرُها الذي وفَّت به لهذا المِصْر، عالمِ الفضلاء، وسيدِ النبلاء، وجيهِ الدين، كريمِ الذات، بديعِ الأخلاق: مولانا وسيدِنا الوالد[1]، حفظ الله سبحانه فيكَ بغيةَ المسلمين، وقوّاكَ وأعانكَ علىٰ بثِّ سنن سيد المرسلين، ولا عَقَّمَ لجلالتك قريحة، وأبقاها يتولَّدُ منها الدُرُّ واللؤلؤ، وتُوفِي علىٰ كل البحور فُيوضَها المنيحة، آمين.

وأمدَّ بك الأكوان، وأعلىٰ مكانتك علىٰ كيوان، وزادكَ من الأمداد العَطُوفية والمنائح الوَدُودية، والإفاضات الرَّحَمُوتية، آمين.

ولا أبعدَ بيننا زماناً، ولا أمْكِنَة، ولا تَغِيبُ عنا والحمدُ لله كلَّ آن، ولا في النوم، وكذلك مولاتنا وسيدتنا وشجرتنا من نُعَوّلُ في المهمات علىٰ دعواتها وفي شِبْهِ المضايق علىٰ تضرعاتها[2]، والله الواقي العاصمُ الحافظ، وكذا

(١) انظر ترجمته في المقدمة.

(٢) هي والدة المصنف رضي الله عنها، انظر الكلامَ عنها في المقدمة، ولنجلها الحافظ الشيخ عبد الحي الكتاني فيها مصنفٌ خاصٌ اسمه «ترقية المريدين، بما تضمنته السيدة الوالدة من أحوال العارفين».

مولانا الأخ الذي عزَّ نظيرُه[١] فما وجدنا له شفيعاً، زاده الله من حُسْنِ الاستعداد، وأكمل لمولانا الوالد فيه المراد، ونفع به العباد، آمين.

أما بعد، فقد وَرَدَتْ علينا مكاتبكم... إلخ، إلىٰ قوله: وفيه الإخبارُ بوفادة العالِم الحَي سيدي محمد بن أحمد[٢] للزيارة، وكذا إرسالُ سعادتك لوليِّ الله تعالىٰ الصالح مولاي عبدِ السلام بن الفاضل[٣] من أجلِ المسألة التي ألف فيها، وأن العلماءَ العارفين افترقوا فرقتين.

[كلمتا الشهادة كلمتان متقارنتان]

والحقُّ في تلك المسألة أنها تحتاجُ إلىٰ تفصيلٍ كبير، وأدنىٰ ما يُقال فيها مع ضيق الوقت والشغل: أنّ هاتين الكُلَيْمَتين الشريفتين متقارنتان كما قال اليُوسِيّ، لا تقومُ إحداهما بدون الأخرىٰ شرعاً وعقلاً.

---

(١) هو شقيق المصنف الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو الإسعاد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني، صاحب «فهرس الفهارس» و«التراتيب الادارية في الحكومة النبوية» وغير ذلك. ولد عام ١٣٠٣، وتوفي فجرَ الجمعة في ٢٨ من ربيع الثاني عام ١٣٨٢.

(٢) محمد بن أحمد العلوي الإسماعيلي الحسني، العلامة الكبير قاضي مكناس، الفقيه النوازلي المحدث المشارك المتضلع، من تلامذة وأتباع المصنف رضي الله عنه، والدعاة إلىٰ طريقته، له مؤلفاتٌ كثيرةٌ منها شرحٌ علىٰ همزية ابن زيدان في السيرة النبوية في مجلدين، وشرحان لأول وآخر حديث في البخاري، ونوازلُ فقهية في مجلدين، وغير ذلك، توفي يوم الجمعة ٢٨ محرم الحرام ١٣٦٧.

(٣) هو العالم المجاهد الصالح عبد السلام بن الفاضل العلوي الحسني، من خواص أتباع المؤلف ـ رضيَ الله عنه ـ قام بالجهاد ضد الاستعمار ثلاثاً وعشرين عاماً لم يتمكنوا منه إلا بعد أن أحاطوه بالطائرات والدبابات، فاستسلم، ولزم العبادة إلىٰ أن توفي في مكناس عام ١٣٦٨، وهو من خاصة المؤلف ـ رضيَ الله عنه ـ الذين قاموا بالجهاد ضد الاستعمار، هو ومحمد بن حمو الزياني، والزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، وغيرهم، بالأخص الأوليين، وكذلك قام بالجهاد الإمام أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين الشنقيطي الادريسي الحسني، وكان من أصدقاء المصنف ـ رضيَ الله عنه ـ لا من أتباعه، ويا حبذا لو يقوم بعض الأفاضل بالتأريخ لهؤلاء المجاهدين رضيَ الله عنهم وتقييد سِيَرهم.

أما شرعاً: فلأن الإيمانَ لا يُقْبَلُ من أحدٍ اليومَ إلا بمجموعهما، ألا ترى أنَّ من لم يؤمن بسيدنا محمد ﷺ فهو كافر، وإنْ وحّدَ اللهَ أو لم يوحِّد فهو كافرٌ وإن آمنَ بالرسل[١]؟! ولأجل هذا التقارُن يُكتفى بالأولى كثيراً، نحو: «من كان آخرُ كلامه لا إله إلا الله دخلَ الجنة[٢]».

وأما عقلاً: فلأن الأُولىٰ مادةُ للثانية، والثانيةَ مُظْهِرةٌ للأولىٰ، وبيان ذلك: أن الألوهيةَ عنها نشأت [الرسولية وظهرت]، فكانت الأولىٰ مقتضيةً للثانية، باقتضاء السبب للمسبَّب، والثانيةُ مقضيةٌ للأولىٰ علىٰ العكس.

إلا أنه قد عُلِمَ من استقراء سنة الله سبحانه في كتابه أنه لا يذكر نعتاً من نعوته تعالىٰ إلا وقرنَ معه نعتاً من النعوت المحمدية، هذا علىٰ [العموم] في كل رتبة، حتىٰ قارن رسالته بالألوهية في: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأمر أن يُشْغَلَ بها العمر، وأمر أن يُعلَنَ بها في أوقاتِ الصلواتِ كلَّ يوم، واستحَبَّتْ السنةُ أن يكونَ المؤذِّنُ علىٰ محلٍّ عالٍ زيادةً في الإعلان بها والاستماع، وأن يكون صيتاً زيادةً في الإذاعة بها[٣]، شرَّفها الله وأدامَ أنوارها، آمين، وأظهرَ أنوارَها علىٰ الأديان / ١/ كلِّها إنه قويٌ متين.

وحتىٰ ذُكِرَ ذلك في النعوت التي لا يمتري أحدٌ أنه سبحانه مستبِدٌ بها جلالَ الربوبية، فلا يُقرن معه غيره، كإفضاله تعالىٰ وتفضُّله علىٰ خلقه وإغنائه لهم

---

(١) انظر هذا الكلام وانظر كلام بعض المرجِفين من مدعي العلم في هذا الزمان الذين يدعون أن اليهود والنصارىٰ ليسوا كفاراً.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٥:٢٣٣، ٢٤٧) عن معاذ رضي الله عنه، وأبو داود (٣١١٦).

(٣) استنبط الفقهاء ـ رضي الله عنهم ـ ذلك من حديث أحمد (٤:٤٣)، والدارمي (١:٨٦٩) وأبي داود (١:٣٣٧)، والترمذي وصححه (١:٣٥٩)، وابن ماجه (١:٢٣٢) عن عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري عن والده عن رسول الله ﷺ، وفيه: «فألقها إلىٰ بلال ـ أي صيغة الأذان ـ فإنه أندىٰ وأمد صوتاً منك، ومره ينادي به».

وإنعامه عليهم، فظاهر هذه النعوت أن لا يَقْرِنَ معه سبحانَهُ غيرَه، بل ربما هذا لا يقوم ببال أحدٍ أنه يَقْرِنَ معه تعالىٰ غيرَه في مطلق النعوت فضلاً عن هذه.

[ما ذكر الله نعتاً من نعوته تعالىٰ إلا وقرنه بنعتٍ من نعوت حبيبه ﷺ]

ولما قال الخطيب: «ومن يعصهما..»، قال مولانا رسول الله ﷺ: «بئسَ الخطيبُ خطيبكم»[١]، فهذا هو اللائقُ بمرتبة العبودية، وهو الذي فَعَلَتَ الحضرةُ المحمدية.

ومع هذا الكمالِ ـ مكانةِ حضرةِ المحمديةِ وشُفُوفِها ـ ابتكرَ سبحانه هذا الموردَ، وما ذكر نعتاً من نعوته إلاّ وقرن معه نعتاً من نعوت حبيبه إيذاناً بأن نكونَ نحنُ هكذا، حتىٰ ذكر النعوتَ التي قلنا إنه ربما يخطرُ بالذهن أنها لا تُقرَن، فقال: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقال: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩].. وهكذا.

[قَرْنُ الله تعالىٰ اسمَه باسمِ حبيبه ﷺ تشريعٌ لنا]

فلما عَلِمْنا هذا من سُنَّةِ الحق جلَّ سلطانُه تأكَّد علىٰ الخَلْق تأكُّداً تاماً، وطُلب منهم طلباً حتماً أن يتيقَّظوا لهذا الإجلال وهذا التشريف الذي شرَّفَ به سبحانه نبيَّهُ وحبيبَهُ ومصطفاه، ويكونوا علىٰ أُهْبةٍ ويقظةٍ كلما جرىٰ ذكرُ ربهم جلَّ أمره وذكروه إلا ويُهرَعوا ويَذكُروا نبيَّهم، إن ذُكِرَتْ النعوتُ فتُذكر النعوت، أو الأوصافُ فتُذكر الأوصاف، أو الاسمُ فيُذكر الاسم، أو الثناءُ المطلَق فيُشْكَرُ

---

(١) أخرجه أحمد (٤: ٢٥٦، ٣٧٩)، ومسلمٌ (٨٧٠)، وأبو داود (١٠٩٩، ٤٩٨١)، والنسائي (٦: ٩٠) عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه، وغيره.

مولانا رسولُ الله ﷺ، لأنه الواسطةُ في جميع النِعَمِ الدينية والدنيوية، المُلْكِيّة والمَلَكُوتية، الأولية والآخرية، الدنيوية والأخروية.

ما أرسلَ الرحمٰنُ أو يُرسِلُ   من رحمةٍ تصعَدُ أو تنزِلُ

الأبياتَ[1].

وهذا القرآنُ الكريمُ أفصحَ عنه غايةَ الإفصاح حتىٰ لم يَدَعْ لأحدٍ مَساغاً في هذا البساط إلا والعملُ عليه، والقيامُ بمشروعيته، والتحفُّظ علىٰ سنته تعالىٰ في كتابه، فإنه قارنَ براءتَه ببراءةِ حبيبه ونبيه ومحمَّدِهِ صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله، ومُحادَّتَهُ بمحادّتِه، ومحاربتَه بمحاربتِه، ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، والإيمانَ به بالإيمانِ به، وقارن رضاهُ برضاهُ: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، واستجابتَه باستجابةِ رسولهِ ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

[ما فرض الله سبحانه فريضةً إلا وسنَّ ﷺ سنةً أو سُنَناً]

ولْيُنظَرْ فإنه سبحانه ما فرضَ فريضةً إلا وسنَّ ﷺ سنةً أو سُنَناً، ففروضُ الصلاة من جانبِ الحقِّ سبحانه وسُنَنُها من جانبِ الرسول صلواتُ الله وسلامه

(١) وهي للإمام أبي عبد الله البكري رضي الله عنه ونص المراد منها:

ما أرسلَ الرحمٰن أو يُرسِلُ   من رحمةٍ تَصْعَدُ أو تَنْزِلُ
في مَلَكُوتِ الله أو مُلْكِه   من كل ما يُخْتَصُّ أو يَشْمَلُ
إلاَّ وطهَ المصطفىٰ عبدُهُ   نبيه مُختاره المرسَلُ
واسطةٌ فيها وأصلٌ لها   يَعْلَمُ هذا كلُّ مَن يَعْقِلُ

وقوله: واسطة، هو معنى: القاسم، وقوله: أصلٌ لها، لأنه رحمةٌ للعالمين كما ذكره تعالىٰ في القرآن الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

عليه، بل سُنَنُ الصلاة أكثرُ من فرائضها: ففَرَضَ سبحانه الفاتحة، وسنَّ رسولُه القيامَ لها، وسنَّ /٢/ السورةَ وسنَّ القيامَ لها، وسنَّ صِفَتَها من سرٍّ وجهر.

وفرضَ سبحانه تكبيرةَ الإحرام والقيامَ لها، وسنَّ الرسولُ تسعَ عشرةَ تكبيرةً في الرباعية والتشهدَين والجلوسَين إلا الذي فيه السلامُ يحصل، وسمعَ اللهُ لمن حمده... وهكذا.

وهذا القدرُ هو المنصوصُ عليه صراحةً في قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤]، وفسّرها سبحانه بأنه لا يُذكر إلا وذُكِرَ معه حبيبه كما هو مأثورٌ في التفاسير الطِوالِ والمختصرات: الإمامِ ابن جرير، وابن أبي حاتم، والشافعيِّ في «الأم»، وسعيدِ بن منصور في «سننه»، والبَغَوي، وابن كثير، و«الدر المنثور»، والفخرِ الرازي، والمختصرات، كالبيضاوي، و«الكشّاف»، والخازن» والجلالَين، والشربيني، و«عرائس البيان ومقاصد القرآن» لملك الهند العلامة[1]، و«الشفاء» وشروحها، وقد استوفينا نصوصَهم في «لسان الحجة»[2].

[هذا الاقتران إما أن يُقال: إنه جازم، أو غير جازم]

فإذا عُلِمَ هذا وتحقَّقَ به المتحقِّق أيقنَ أنَّ القَرْنَ بين الكلمتين المشرفتين متأكدٌ ومتحتم، واقتضاه الحقُّ سبحانه من المؤمن المكلف اقتضاءً جازماً.

لأنه لا جائزَ أن يُقال إنّ هذا المطلب الشريف، إما أن يُقال: اقتُضِيَ من الخَلْق اقتضاءً غيرَ جازم، بأن جَوَّزَ تركَ الفعل، وهذا حدُّ الندب، والمندوبُ والفضيلةُ والرغيبةُ والمستحبُّ والتطوعُ والسنةُ: أسماءٌ مترادفةٌ عندَ الجمهور من

(١) يعني به صدِّيق حسن خان البخاري القِنَّوْجي (ت ١٣٠٧هـ). الناشر.

(٢) واسمه كاملاً: «لسان الحجّة البرهانية في الذَّبِّ عن شعائر الطريقة الكَتّانية»، طُبِعَ طبعةً حجرية في فاس، ثم في بيروت سنةَ ١٣٢١ هجرية، ويقع في حوالي ٣٠٠ صفحة.

أهل الأصول كما في «جمع الجوامع»، قال: «خلافاً لبعض أصحابنا». قال الأزهري في «الثَّمَر اليانع» في شرحه: «وهو القاضي حسين، وتلميذُه البغوي، والخوارزميُّ تلميذُ البغوي، فإنهم بينوها فقالوا: السنةُ ما واظبَ عليها ﷺ، والمستحبُّ ما فعله مرةً أو مرتين، والتطوعُ ما لم يَرِدْ فيه بخصوصه نقلٌ، بل يفعله الإنسانُ ابتداءً باختياره كالنوافل المطلَقة، وهذا مذهبُ الفقهاء أيضاً، فإنهم فرّقوا بين هذه الأسامي».

فعلىٰ هذا الاقتران اقْتُضِيَ من الخَلْق اقتضاءً غيرَ جازم، فهذا يقتضي أنّ هذا القَرْنَ بين «محمدٌ رسول الله» و«لا إلٰه إلا الله» سنةٌ ومندوبٌ وتطوّعٌ ومستحبٌّ عندَ الأصوليين.

أو يُقال: اقتضىٰ الخطابُ الإلٰهي تركَه جازماً بأنْ لم يجوِّز فعلَه، وهذا حَدُّ التحريم، لكن لا ينطبق علىٰ هذا، وإذا كان تكرارُ النطق بـ «محمد رسول الله» مع الكلمة المشرفة حراماً مع أنه ﷺ الدليلُ الحقيقيُّ إلىٰ الله تعالىٰ، ولولاه لما عُرِفَ رَبٌّ مِن مَرْبُوب، ولا إلٰهٌ من مَألُوه، ولا خالِقٌ من مَخْلوق، ولا عُرفَتْ أصولُ التوحيد ولا الأصولُ التي /٣/ عليها صلاحُ العالم، ولا الفروعُ التي يُتَعَبَّدُ بها، ولبقي الخَلْقُ في وَحْشةِ الجهالة هائمين، فما بقيتْ قُربةٌ يُتَقَرَّبُ بها إلىٰ الله تعالىٰ، لأن تكرارَ ذكره إذا كان حراماً فلا جائزٌ أن يكون ما انتشرَ عن جلالته من الأحكام كلّه مُبْعِدٌ عن الله تعالىٰ، وليس بِمُقَرّب، مع أنه ما عُرِفَتْ المسائلُ المبعِدةُ من الله تعالىٰ والمسائل المقرّبةُ منه إلا منه صلواتُ الله وسلامُه عليه.

وإما أن يُقَال: إنه اقتضاءٌ غيرُ جازم بنهيٍ مخصوصٍ بالشيء، وهذا حدُّ المكروه، وهو أيضاً لا ينطبق علىٰ هذه المسألة الشريفة، لأن التسنُّنَ بسنته سبحانه وتعالىٰ في دوامِ قَرْنِ نعوته بنعوتِ حبيبه وكمالاتِه سبحانه بإفاضته تعالىٰ عليه يقتضي أنه لا يمكنُ للخَلْق ولا يجوزُ لهم فعلُ غيره، وغيرُه هو عدمُ الاقتران أولاً أو عدمُ العلم به ثانياً، حتىٰ يُظَنَّ أنّ هذا الاقترانَ من الخَلَلِ في التوحيد.

وجُلُّ من يتكلم في هذه المسألة لا يستحضرُ المقارناتِ التي في القرآن العزيز من أوله إلىٰ آخره وكلامَ المفسرين جُمْلَةً عليها، والمُسْتَنْكِفُ من قبول هذا التشريف الإلٰهي لنبيه ﷺ ربما يُوجب عدمَ الإيمان بستين آيةٍ قرآنية، هذا في خصوص المقارنات في النعوت.

وأما دلالةُ الحق سبحانه علىٰ متابعته ﷺ وعلىٰ آله، والوقوفِ عندَ أمره والرجوع إليه وردِّ الأمورِ كلِّها إلىٰ علمه، وتحكيمِه ﷺ في جميع ما شجر بين المكلفين، وأن لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قضىٰ ويسلموا تسليماً، بل جعلَ سبحانه وتعالىٰ أنّ الخَلْقَ لا يؤمنون حتىٰ يكونوا هكذا، وأقسمَ علىٰ ذلك، فالقرآنُ كله طافحٌ بذلك، إلا أن جُلَّ الخَلْق صار القرآنُ عندهم اليومَ ليس حتىٰ في رتبةِ القول الضعيف المرجوع إليه في أوقاتِ الضرورة، وهذا من أسبابِ سَخَطِ الله علىٰ العباد، اللهمَّ إنّا نعوذُ برضاكَ من سخطك، وبمعافاتِكَ من عقوبتك، وبكَ منكَ لا أحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسك.

وإما أن يُقال: إنه اقتضاءٌ غيرُ جازم، بغير نهيٍ مخصوصٍ بالشيء، بأن يكون النهيُ في ضمن الأمر بضده كما في مسألة: أن الأمرَ بالشيء نهيٌ عن ضده، أو يستلزمه علىٰ الخلاف، فَخِلافُ الأولىٰ، وقد جعل الفقهاءُ خلافَ الأولىٰ واسطةً بين الكراهة والإباحة، وهذا الحد لا ينطبق علىٰ ما نحن فيه أيضاً بوجهٍ من الوجوه، لأنه لا رائِحَةُ /٤/ نهيٍ في الباب، إنما في الباب الأدلة المتكاثرة علىٰ دوام الاقتران، حيثما ذُكِرَ الحق سبحانه يُذكر نبيه معه، وهو معنىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾ [الشرح: ٤].

وإما أن يُقال: إن المكلَّف خُيِّرَ بين فعله وتركه، وهو من الإباحة، فيكون مباحاً، وهذا لا يقتضيه الخطابُ الإلٰهي المتنوع في ألف موضع من القرآن وأزيَد.

فإليك أيها الأبيُّ الآنَ: الخِيرَةَ بين أن تقول إن هذا القَرْنَ يكون مكروهاً، أو حراماً، أو مباحاً، أو خلاف الأولىٰ، وبَطُلَ الأول والثاني والثالث والرابع،

فلم يبق إلا التأكد والتحتم وعدم الغفلة عن ذكر نبيك ﷺ وعلىٰ آله حيثما ذُكر ربك جل سلطانه.

[الأحاديث الحاضّة علىٰ ذكر رسول الله ﷺ والصلاة عليه في كل مجلس]

ثم إن صريحَ الأحاديث المنذرة بأنه ما جلس قومٌ مجلساً فلم يذكروا الله تعالىٰ، ولم يصلوا علىٰ حبيبه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله إلا كان عليهم حسرةً يوم القيامة[1]، يقتضي أنه مهما ذَكَرْتَ الهيللةَ في مجلسٍ إلاّ وتذكر: «محمدٌ رسول الله»، وهو شرطٌ مؤكَّدٌ لا يقال إنه عين الكمال فقط؛ بل هو شرط.

وقد خرّجَ الأحاديثَ المؤكِّدةَ لهذا الإمامُ أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وصحّحه عن سيدنا أبي هريرة رضيَ الله تعالىٰ عنه رَفَعَه: «ما قعدَ قومٌ مقعداً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا علىٰ نبيه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ آله وسلم إلا كان عليهم حسرةً يوم القيامة»[2]، وقد خرّج هذه الأحاديث المُمْلي عبد العظيم المنذري في «الترغيب والترهيب» ولم يتيسر الآن جلبُ ما فيه جميعه، فليُرَاجَع.

وهذا هو دليلُ الإمام السّاحلي[3] في قوله:

---

(١) أخرجه أحمد (٢: ٤٤٦، ٤٨١، ٤٥٣، ٤٨٤، ٤٩٥)، والترمذي (٣٣٨٠).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢: ٤٦٣)، والترمذي (٣٣٨٠)، وابن حبان (٥٩١)، والحاكم (١: ٤٩٢).

(٣) الإمام الولي العارف بالله أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمٰن بن إبراهيم الأنصاري المالَقِيّ الساحلي (ت ٧٣٥هـ)، طلب العلمَ وسلكَ، وكان مقبلاً علىٰ نفسه، مستوعباً ضروب الخير وأنواعَ القُرَب، وخطب الناس بمالَقة وغرناطة، عميَ بعدَ السبعين وصبر، وله كتاب «الحجة في رسوم المحجة» وشعرٌ كثير. ترجمته في «الدرر الكامنة» (٣: ٣٢٢)، و«نيل الابتهاج» ص٢٣٤-٢٣٥، و«الإحاطة» لابن الخطيب، وغيرها. الناشر.

وصِلْ بين ذِكْرِ المصطفىٰ وإلٰهه ... وإيّاك أن تنسىٰ نبيَّك في الدَّهْرِ
فما فازَ مَن قد فارقَ البدرَ لمحةً ... وهل فازَ إلا من تمسَّكَ بالبدرِ
تعلَّقْ بأذيالِ الذينَ تفرَّغُوا ... لخدمةِ هذا المصطفىٰ كأبي بكرِ
فما فارقَ الصدِّيقُ ذِكرَ محمّدٍ ... وإن كان في الأفرادِ كالكوكبِ الدُّرّي
وما نالَ تصديقاً بغيرِ حبيبِهِ ... فدَعْ قولَ بِدْعِيٍّ تدنَّسَ بالوِزْرِ

فجعل عدمَ إدمانِ قولِ: «محمدٌ رسول الله» مع الهيللةِ من قول أهل البِدَع والمتدنّسين بالأوزار، وقد سلّمه جمعٌ، ومنهم المحقِّق[١] في شرح «المرشد» مقتصِراً عليه، إلا أنه جعله عينَ الكمال، والحديثُ المذكورُ حيثُ تُوُعِّدَ علينا بخصوصه اقتضىٰ أن تركَه معصيةٌ، فهو شرطٌ في كل مجلس. وأما حيثما ذُكِرَ سُبْحَانَهُ فهو الاستدلالاتُ العوالي التي قدمناها أول تحرير المسألة، فأولُ المسألة كان استدلالاً عالياً علىٰ العموم، وآخرها صار استدلالاً نازلاً علىٰ الخصوص.

[التشديد علىٰ من خالف هذا الأمر]

وكما وصف المخالفَ الساحليُّ بالابتداع، وصفه الإمامُ السنوسيُّ أواخرَ «شرح الصغرىٰ»[٢] بأنه: ضالٌ وقائلٌ كلمةً قريبةً من الكفر أو هي الكفر بعينه، ووصفه بأنه: قال كلمةً لا عُقبىٰ لها إلاّ دارُ البوار، وأنه آيلٌ /٥/ إلىٰ انحلال ربْقَة الدِّين من عُنُقِه، لأنه يتدرّجُ من هذا إلىٰ القولِ باستغناء العقل وإرشاده عن إرشاداتِ صاحب فَلَك الرسالة، ومن هنا ضلَّ المعتزلةُ حيثُ حكَّموا العقلَ

---

(١) انظر «الدر الثمين والمورد المعين في شرح المرشد المعين» في فقه مالك، للإمام المحقق أبي عبد الله محمد بن أحمد مَيَّارة الفاسي، رحمه الله تعالىٰ، ص٥٤.

(٢) انظر «شرح أم البراهين» للإمام الشريف أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي رحمه الله تعالىٰ، ص٩٠.

واستغنوا عن إرشاد الشارع، وضلَّ الفلاسفةُ وتهافتوا علىٰ الجحيم حيثُ حكّموا آراءهم أيضاً ولم يلتفتوا لما بيَّنَهُ الشرع الكريم.

[حالُ أغلب من خالف في هذه المسألة]

وقد جَرَّبتُ كلَّ من يُحَاكُّ هذه المسألةَ أنه ليس للسنة وقعٌ عظيمٌ في قلبه، أعني ليس له كبيرُ بحثٍ في علم طُرُق السنة أولاً، وتتبُّع مظانها في العمل بها ثانياً، والتحسُّرِ علىٰ ما فاته من العلم بها ثالثاً، والعملِ بها رابعاً، وحمل الناس علىٰ علمها والعمل بها خامساً، وقل من تجده يُحاكِكُ في هذا الباب إلاّ وهو هكذا، ولا تجدُ شخصاً يُحاكِكُ في هذا إلاّ وتجد أعمالَه غير مُعْتَدٍّ بها لأنه ليس له سَرَيَانٌ محمديٌ في جواهر أحواله حتىٰ تصلح لأن تُدْرَجَ مَدْرَجَةَ القَبُول، وتجد العُسْرَ محيطاً به دائماً لعدم تعلُّقه بمولانا رسول الله ﷺ وعلىٰ آله التعلُّقَ الخاص.

إذاً التعلقُ الخاص به ﷺ وعلىٰ آله ينتجُ ما لا تنتجه كثرةُ الأعمال الصالحة مع عدم الانتماء لمركز دائرة الأنوار الانتماءَ الخاص، إذ ليس في الوجود من له الحلُّ والربطُ والنقضُ والإبرامُ إلا مولانا رسولُ الله ﷺ[1].

[التمسُّك برسول الله ﷺ موصلٌ إلىٰ كل خير]

وسَدَنةُ عَتَبَاتِه منظورون نظرَ الإجلالِ والإكبار من السماء والأرض، مرموقون من وراء الحجاب بالألطاف، مُكْتَنَفُون بالعناياتِ والرعايات، لأن الملوكَ - ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧] - إذا أقبلوا علىٰ فردٍ جعلوا له علامةً يُعْرَفُ بها رِضَىٰ المَلِكِ عنه.

---

(١) أي: بأمر الله تعالىٰ، لأنه قاسمٌ والله يعطي، كما في البخاري، وهذا الباب أغفله أغلب من يقوم بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ هذا الزمان، وعليهم أن ينتبهوا له.

ومولانا جلَّ أمرُه جعل الانتماءَ للجلالة المحمدية والاستظلالَ بظلّها الوريفِ موجباً للألطافِ والعناياتِ والرعايات، فضلاً عن الاستغراق والاستهلاك والتهتُّكِ في الذاتِ المحمدية، فإنه عنوانُ الوصول، وعلامةُ الظَّفَرِ بالمأمول، وإعلانٌ بالأمان العام من التلبيس والاستيلاءات الطبيعية والإلقاءاتِ الرجيمية والاستحواذات الظلمانية، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

ولا شك أنه كلما قويَت الرابطةُ بين المحبِّ والمحبوب إلاّ وتتصل أَشِعّاتٌ وارتباطاتٌ وعلاقةٌ بينهما توجبُ كليةَ الاشتراك إما في الذات، أو في الصفات، أو في فعلٍ من الأفعال، أو في حالٍ من الأحوال، أو في رتبةٍ فصاعداً.

ومن هاهنا صحّت الاجتماعاتُ اليَقَظِيةُ بالذات المحمدية لمن شاءه الله سبحانه لهذا العطاءِ الأخص، والفيض الأقدس، والله واسعٌ /٦/ عليم.

ومن هنا نُدِبَ الناسُ قديماً وحديثاً لزيارة الأولياء أحياءً ومنتقلين، لأن الإنسانَ ضعيفٌ زَمِنٌ عن الولوج بكُوّاتِ الملكوت والعثور علىٰ فسيح العَظَمَة ما لم ينجذب بروحانيةٍ مغناطيسيةٍ وقوةٍ قدسيةٍ في مظهرٍ من المظاهر، ولذلك أمر سبحانه عباده بقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾[لقمان: ١٥]، وأمرَ بالكون مع الصدّيقين، والسلام.

[ذكرُ أسماء رسولِ الله ﷺ موجبٌ لانطفاء غضبِ الله تعالىٰ]

وكثيراً ما أشعرُ بانطفاء شيءٍ من الغضب الإلٰهي في العالم إذا جرىٰ ذكرُ اسمٍ موافقٍ لأسمائه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم أو لقبٍ موافقٍ لألقابه صلىٰ الله تعالىٰ عليه، لأن الأشياءَ كلَّها تهابه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله، حتىٰ المعاني والحضرات الكبرىٰ، وإذا ثبتَ في الحديث: «ما في السماء ملكٌ إلا وهو يُوَقِّرُ عُمر، ولا في الأرض شيطانٌ إلا وهو يَفْرَقُ من عمر»[1].

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦: ٣٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فكيف بمشرِّف الجميع، حامل اللواء للوجود كلِّه، وزعيمِ الخلائق أجمعين في النشأة الأولىٰ الروحية، والنشأة الثانية هذه، والنشأة الآخرة، هذا في مُطْلَق الأسماء والصفات المشاكلة لأسمائه، فكيف بأسمائه المحمدية، أو صفاته المحمدية الساذجة، أو نعوته الأحمدية الصِّرفة، فكيف بالإدمان علىٰ ذكرها، والتحدُّث بها، فهو العرشُ الرحماني الذي تجلىٰ الله تعالىٰ عليه بمقتضىٰ وُسْع الرحمانية بوسعيته، ومن ذلك وَسِعَ صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وعلىٰ آله العالَمَ كلَّه، وسعه رحمةً وأُرْسل رحمةً للعالمين، وهو أرجىٰ ما يرجاه الخلائق، لا حرمنا الله الرحمٰن سبحانه من الانغماس بتيارها، والسبح أو الإغراقِ في بحرِ زخَّارها، نحن ووالدينا وإخواننا، وأبناءنا وزوجاتنا وأحبابنا، وكل تعلقاتنا وسلطاتنَا، آمين، آمين، آمين.

[مسألة الأخلاق المذكورة في آية: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ﴾]

وأما مسألة الأخلاق المذكورة في آية ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ﴾ [آل عمران: ١٣٣][١]، وهل القول بوجوبها متجهٌ أم لا؟ فينبغي أن يقال:

أولاً: إن الدِّين من حيثُ هو لا ينتظم إلا بالاتحاد الديني وهُجران الآراء، وإلغاء مقتضىٰ الوهم، وتحكيمِ الشرع في كل موارد الإنس ومصادره ومنشَطه ومكرهه، وحتىٰ خواطره وإراداته وهواجسه، ثم نرجع ونقول:

إن هذه الأخلاقَ الدينية إنما أمر بها الشرعُ الكريم لتتحد الكلمةُ الإسلامية الإبراهيمية المحمدية، ويصير الدينُ كلُّه لله، ويحصلَ الائتلافُ الديني، ومعلومٌ

---

(١) وهذه الأخلاق هي المذكورةُ هناك بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤-١٣٦].

أن القيامَ بالمشروع والتعاونَ العَضُدي الذي عليه انتظامُ الركنِ الأعظم من الدين والإتيانَ بما أمر به الشرع وحده؛ لا يمكن إلا بالالتحاف بهذه الأخلاق، والعملِ عليها، ولو عملنا علىٰ هذه الشريطة وفهمنا سرَّ الأمر بها ما احتجنا لحاكمٍ ولا والٍ قط، إنما نعملُ علىٰ مقتضىٰ السياسة الشرعية الأصلية /٧/ المنصوصة في محكم الكتاب المنزَّل، وهي كافيةٌ في الجمعية الدينية وتَوْفِية الحقوق والإتيانِ بها كافية.

ولكن أُلغِيَ ذلك أولاً بإلغاء الوقوف عندَ مقتضىٰ التأديب القرآني والرسالي، وتوسّع الناسُ في التأويلات، وقدّموا بعض آرائهم علىٰ مَلاَحِظِ القرآن الكريم، واحتاجوا للاحتجاجِ عليه ليروِّجوا ما احتجوا، فتُوبعوا علىٰ ذلك، فكان عليهم وِزْرُ هذا التسنن ووزر من عمل به إلىٰ يوم القيامة[١].

[الإتيانُ بالمشروع والتقرُّبُ بهِ إليه تعالىٰ واجبٌ]

فالإتيانُ بالمشروع والتقربُ به إلىٰ الإله جل أمره واجبٌ، إذ هو الدينُ كلّه، وهل الدينُ إلا الامتثال والاجتناب؟! والإتيانُ بذلك لا بد له من التعاضد والتعاون والتناصر والاعتضاد، وهذه لا تمكن إلا بصيرورة الأخلاق المحمدية مَلَكَةً للإنسان يتصرَّفُ بها أنّىٰ حلَّ وظَعَن.

فصارَ تعلُّمُ الأخلاق والعملُ عليها بل الإدمانُ عليها حتىٰ ترسخَ وتثبتَ وتندبغ بها النفسُ الشرودةُ ويتطبّعَ بها الطبعُ وتستحيلَ شَكاسَتُهُ إلىٰ تهذيبٍ وانقيادٍ واستسلام لما جاء به الشرع: واجباً شرعياً وعقلياً وطَبْعِيّاً.

---

(١) أخرج الترمذي (٢٦٧٥) وقال: حسن صحيح، عن جرير بن عبد الله البجلي مرفوعاً: «من سن سنةَ خير فاتبع عليها فله أجره، ومثل أجور من اتبعه، غير منقوص من أجورهم شيئاً، ومن سن سنة شر، فاتبع عليها كان عليه وزره، ومثل أوزار من اتبعه، غير منقوص من أوزارهم شيئاً».

أما الشرعُ: فقد قررّناه من حيثُ إنّ ما لا يُتَوَصَّلُ للواجب إلا به فهو واجبٌ، هذا لمن يُعاني التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ كما كان عليه السلف الصالح، وأما اليومَ فالرجلُ إذا صلىٰ الصلواتِ الخمسَ بدون مواقيتها، وربما لم يختلف عليه الموطن وهو في الصلاة، فكما كان خارجَ الصلاة يتقلب في الكون وأربابه ويتفسَّحُ في عالم الأكدار وأنحائه، كذلك ينظرُ حالةَ المناجاة في الصلاة، وربما تكثر عليه الإلقاءاتُ الشيطانيةُ كما أخبرَ المعصوم: «إذا أذّن المؤذّنُ أدبرَ الشيطانُ وله ضُراطٌ، حتىٰ إذا ثُوِّبَ بالصلاةِ أقبل، فلا يزال يخطرُ ببالِ أحدِكم ويقول له: اذكر كذا، اذكر كذا حتىٰ لا يدريَ كم صلىٰ...»[1] الحديثَ أو كما قال.

فنجده في الصلاة أكثرَ مما كان في المداخلات الخِلْسِية، ومع ذلك يَظُن أنه لم يَبْقَ للحق تعالىٰ عليه حقٌ، وتجده يشكُّكُ في الولاية ما معناها، وهل هيَ زائدة علىٰ ما قلناه فيضِلُّ في بحار الأهواء، ويُنْسىٰ في أمواج الغفلات، ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦]. قال سيدنا أنس: «بعد ما أسلمنا بستة عشر عاماً وظَهَرَ فينا شيءٌ من المزح خوطبنا بهذا الخطاب».

وهذا وهم بين ظهراني شمسِ النبوة وقمرِ /٨/ الرسالة صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، ورضيَ عنهم وعنا وأصحابنا بهم، آمين.

فكيفَ بنا وقد بَعُدْنا عن زمنِ النبوة والقربِ منها مكانةً؟! فعونَكَ يا حليم، لُطْفَكَ يا عفوّ يا عظيم، يُرجىٰ لكل عظيم.

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٣٨٩) وأحمد (٢:٣١٣) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

[الدليلُ العقلي علىٰ وجوبِ اكتسابِ الأخلاق]

وأما العقل ـ أي من الدلالة الدالة علىٰ اكتساب الأخلاق ووجوب ذلك عقلاً ـ أن العقلَ يقتضي بطريق الاستمداد من الشرع أنَّ معاملةَ الناس معاملةً واحدةً بِطِرْزٍ واحدٍ ليس كما يقتضيه النُهىٰ والعقل، فلا بد من أشتات المعاملات حسب المناصب والمنازل والمكانات، وهذا يقتضي صحةً روحانيةً ومَلَكيَةً مُقْتَبَسةً من أنفاس الشرع تدل الإنسان علىٰ مهابِع السعادات ومواردها، والطرقِ التي تُسلك معها، والطرقِ التي تنداس وتهجر، ولا يُتَلَقىٰ من الشرع في هذا الباب إلا قولُه: «إن هذا الدين دينٌ استخلصته لنفسي، ولن يُصلِحَه إلا السخاء وحسنُ الخلق، فزيّنوه بهما»[1]، وقولُه جلَّ شأنه: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقولُه جلَّ سلطانه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومعاداة الشيطان واجبةٌ بالإجماع، ومناقشةُ النفس كذلك، كما في «الإحياء» في آخر السِّفْرِ الأخير بعدَ كتاب المراقبة أو فيه، وليس هو عندي هنا حتىٰ أراجعه، و«القشيرية» مملوءةٌ بهذا.

وفي أول الطبقات: «فُلان كان يحمِلُ أهلَ عصره علىٰ التوبة علىٰ الأنفاس، فأخرجوه من البلدة»[2]، وهذا مبسوطٌ غايةَ البسط في كتاب «الإحياء» في كتاب التوبة فليُراجع، وأما اليُوسِيُّ فلم أجد فيه الموضعَ الآنَ مع البحث الطويل وشغلِ البال.

---

(١) قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٣:٤٩): «رواه الدارقطني في كتاب «المستجاد»، والخرائطي في «مكارم الأخلاق»، من حديث أبي سعيد الخدري، بإسناد فيه لين».

(٢) انظر «الطبقات الكبرىٰ» ص١٣، للإمام الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه، والمقصود بـ: فلان، الإمام سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه.

[دليلُ الطبع علىٰ وجوب اكتساب الآداب]

وأما الطبع: فإذا كان تحتَ وازع العقل، والعقلُ تحتَ وازع الشرع، حُكْمَ الطبعُ علىٰ الإنسان، من حيثُ إنه مدنَّس الطبع، لا يقومُ بأموره بنفسه، بل لا بد له من خلائفَ يعينونه في مصالحه الدنيوية الضرورية ومعاملتهم له.

أما بعدَ علمهم هذا البابَ فتكون من هذا القبيل: حرصاً علىٰ الألفة الدينية وتوصُّلاً لاتحاد الكلمة الإسلامية، وإن كانت بدون علمٍ كانت بالفطرة، والفطرةُ من حسن المَلَكاتِ أيضاً، وذلك وسيلةٌ للألفة، والطبعُ يقضي أن من تسبَّبَ في قضاء أوطارك الضروريةِ أنك تحبه لإبقائه علىٰ حفظ حياتك في العالم الشّهادي.

[خاتمةٌ في سبب الاختلافِ فيما ذُكِرَ من المسائل]

وهذه أدلةٌ ضروريةٌ يُنتفَع بها في الباب، وهُجْرانُ طريق السَّلَف وعدمُ /٩/ مطالعة كتبهم، وعدمُ الاعتداد بما كانوا يعتدّون به هو الذي ألجأ للاحتجاج علىٰ مثل هذه المسألة، وإلا فالسلفُ لم يكن معروفاً عندَهم غيرُ هذا، إلىٰ أن تُنُوسِيَتْ تلك الطريقة وهُجِرَتْ، وحدث أحداثٌ وطرأت تغيراتٌ ما مَثَّلَ الطريقَ ووعَّر المسلك، وهُجِرَتْ كتبُ القوم، وصار يُلمَزُ أربابها بأنهم صوفية، ولَعَمْرِي لا يَقبلُ الله سبحانه عملاً ليس مؤسَّساً علىٰ نظام التصوف الحقيقي المؤسَّس علىٰ نظرِ الشرع، الذي محصولُه: علمٌ واسعٌ بالكتاب والسنة، وعملٌ علىٰ وفق الاتساع العلمي، وإخلاصٌ حقيقيٌ ومشاهدةٌ حقيقية، وعبادةُ الله سبحانه كأنك تراه، الذي هو شطرٌ من أشطار الدين، والله محيي دينِه ومجدِّدُ شرعه.

وأظن أن هذه البقيةَ التي بقيت في الإسلام مفرَّقةٌ في الأرض، ومنها المغربُ والسلطنة العثمانية، لا يستولي مستولٍ أجنبيٌ يمحوها؛ لأنّ هي بقيةُ

الإسلام اليوم، ولان مُحِيَتْ لَيَلْزَمَنَّ تخلُّفُ الحفظ الإلٰهي في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩]، أي ببقاء البقايا الدينية في الأرض من أهل الإسلام، وعدم استئصالهم بالعدُو، وإلا لَزِمَ انقلابُ العلم جهلاً. ومن أصدق من الله حكماً لقوم يوقنون. والسلام[١].

* * *

(١) قد ذهبت دولة الخلافة العثمانية ومضىٰ علىٰ ذلك ثلاثة أرباع القرن، وتدهورت أحوالُ الأمة المحمدية، لكن لا تزال طوائفُ ثابتين علىٰ الحق لا يضرُّهم مَن خالفهم حتىٰ يأتيَ أمرُ الله، كثّرهم الله، والله يتولىٰ المؤمنين. الناشر.

النفائس الكتانية

٧

الإجازة الطرقية
وشروط وأركان الطريق

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهَدِ بفاس سنةَ ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم [illegible] وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

في رأس العقل مخافة الله عز وجل
في ملاك الدين الورع
من محمد بن الشيخ عبد الكبير الكتاني

إلى أخينا في الله تعالى ومحبنا من أجله الفاضل في تزكية نفسه بالكون مع الله في
[illegible] الله الذي من [illegible] ومنح بالكون معه فتحت له جميع أبواب الرحمات ورفعت
له عن [illegible] الامتنانية و[illegible] الزمان [illegible] ما لم يشم له رائحة من تفاعس عن الكون
معه والولع في التشتيت ولي الله تعالى [illegible] من [illegible] والسلام عليكم ورحمة الله تعالى
عليكم ورحمته وبركاته أما بعد [illegible] [illegible] لا حمد بدا الحمد [illegible]
[illegible] الكتانية [illegible] [illegible] لا يموت الاعل [illegible] [illegible]
في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] القبلة وعدم [illegible] والتشنيع على الركتين وخصوصا عند
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] صلى الله عليه وسلم [illegible] [illegible]
في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الكتانية [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] في الورد [illegible] [illegible] [illegible] ثلاث مرات في [illegible]
المذكورة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] التزايد
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أربعة
الركن الأول [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] والحديث الشريف [illegible] [illegible] [illegible]

لولا الحضرة ان يكون من تيسير المدفوعة لله تعالى مع ان العقل ربما يقول ان كانت [illegible] تعرف
كونها من الله فيه منفعة اسقاط الورع والا فحذار ومع ذلك ان تعاهدها ورع الخلق والتقادم للاعظم
بجلاله ما فتتح [illegible] اثر تبيكه العظيم وجمع على الجوارح ورده للمرتبة [illegible] وفيه تحقيقه والصلاح
من العمر الاول والزمن العشر من المقرب الى الثالث الاول واستحكم بنيانه [illegible]
السلام عليه للايمان الاعلى اكمل الحالات وحضر المصطفى صلى الله عليه وسلم [illegible]
[illegible] كاسيا من كؤوس التقريب الختام بيلغ الله وقد حمل على الحضور الادايم
ورايع ايضا من [illegible] الخلافة مزيدا على العبودية وقد اخبرت [illegible]
ادناها دائما حركة الجوارح او سكونها دوام السر القلبي ومعنى ذلك ان يكون القلب دائم
الدكون من صعد الفتاحات [illegible] روحانية [illegible] مترقبا لما يرد عليه من الاسرار
القدسية مستجمعا [illegible] محتملا ما يكون من عوارض [illegible] والغفلات لا يرد له زادة
من تلك الموارد ولا يبدله ماله من تلك المعاهد ما لم يحضر [illegible] فتعد انقطع سر
القلب حتى ان من [illegible] مجتمعا الاعمال الكاملين وقلبه غير مستمع لتلك
الموارد بعد انقطاعها عن سر القلب وتعمى بسائر ابصره وسر الجسم بعد التذكار ربما لا يجد
[illegible] القلب ذرة من اعمال القلوب خير من امثال الجبال من اعمال الجوارح واعلى انها
مخاطبة [illegible] المقام [illegible] ومعنى ذلك [illegible]
انوار التوحيد في كل شيء [illegible] ذلك وغير [illegible] ما في الموجودات
كلها [illegible] مباركة [illegible]
[illegible] الايمان والاحسان والجهاد بشعائر الدين واعلاء كلمة التوحيد واعلام
[illegible] والدلالة على الله [illegible] والعلم [illegible]
الى الله ولكن من دعوة العلماء وحملة الكتاب الذي [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

«رأسُ العقل مخافةُ الله عز وجل»   «مِـلاَكُ الـدِّيـن الـوَرَع»

من محمد بن الشيخ عبد الكبير الأحمدي الكتاني إلىٰ أخينا في الله تعالىٰ، ومحبنا من أجله، الساعي في تزكية نفسه بالكون مع الصادقين أهلِ الله، الذين مَنْ التجأ إليهم ومُتِّعَ بالكون معهم فُتِحَتْ له جميعُ أنواع الرحَمَات، وزُفَّت له عرائسُ المعارف الامتنانية، وأَدْرَكَ في الزمن اليسير ما لم يَشُمَّ له رائحةً مَن تقاعَسَ عن الكونِ معهم ولو بلغَ في التشمير، وليِّ الله تعالىٰ: سيدي العربي ابن محمد الدُكَّالي الحَمْزاوي[1]:

سلامُ الله عليكَ ورحمته وبركاته

أما بعد: فقد آذَنَّاكَ في طريقتنا هذه الأحمدية المحمدية الصدّيقية الكتانية، المضمونِ للمُدْمِنِ عليها أنه لا يموتُ إلا علىٰ أكمل الحالات، ونأذنك في تذكيرها للغير مع شروطها.

[شروط الطريقة الكتانية]

لِما أنّ لها شروطاً عامة، وشروطاً خاصة:

---

(١) العربي بن محمد الدكَّالي الحمزاوي، لم أقف له على ترجمة.

[الشروط العامة]

أما شروطها العامة: فالطهارة، واستقبالُ القبلة، وعدمُ الكلام، والجُثيُّ على الرُّكبتين، وخصوصاً عندَ السلام، والأنموذجيةِ، والقاسمِ[١].

فإن مولانا رسولَ الله ﷺ يحضر بمِنّة ذلك عندَنا في الوِرْدِ مرتين[٢]، مرةً عندَ السلام، ومرةً عندَ «الأنموذجية»، و«القاسم» آخراً، كما هو مشهودٌ لأهل البصائر وأهل الجِدّ من أصحابنا، وهي من أعظم مفاخر هذه الطائفة الكتانية.

ومن شروطه العامة: نفيُ الخواطر الظلمانية التي تمنع وصولَ المدد للذاكر، ومن لم يجد الماء يتيمم عند الشروع في الورد، وعند السلام، وعند «الأنموذجية»، يتيمم ثلاثَ مراتٍ في المواطن المذكورة إجلالاً لذكر الله سبحانه، وإكراماً لرسوله الأعظم، أضعفُ الطهارةِ الترابيةُ.

واعلم أخي أيضاً أنّ طريقتنا هذه لها أركانٌ ومباني:

---

(١) المقصود بالسلام قولُه في الوِرْدِ: «السلامُ عليك يا عين العيون، السلامُ عليكَ يا روحَ الأرواح، السلامُ عليك بلسانِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]»، أما الصلاة الأنموذجية، والقاسم، فهما صلاتان على النبي ﷺ، للمؤلف رضي الله عنه، أما الصلاة الأنموذجية فقد شرحها المؤلف رضىٰ الله عنه شروحاً كثيرة، أعظمها: «خبيئة الكون». وشرحها غيره من أئمة أتباعه، ونصها:

«اللهم صلِّ على سيدنا ومولانا أحمد، الذي جعلت اسمَه متحداً باسمك ونعتِك، وصورةَ هيكله الجسماني علىٰ صورة أنموذُجِ حقيقة «خَلَقَ الله سيدَنا آدمَ علىٰ صورته»، وفَجَّرْتَ عُنْصُرَ موضوع مادة محموله من أَنِيَّةِ «أنا الله»، بل حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده، وآله وصحبه وسلِّم».

أما القاسم فنقلنا نصَّها في تعليقاتنا علىٰ «الرسالة إلىٰ أهل سلا».

(٢) انظر كلام المصنف في «سفينة المحبة»، علىٰ حديث «أنا جليس من ذكرني»، وغير ذلك من مصنفاته رضي الله عنه، خصوصاً «خبيئة الكون».

[أركان الطريقة الكتانية][١]

أما أركانُها فهي أربعة:

[التوبــة]

الركن الأول: التوبة من جميع ما جَنَتْهُ يداه من حين التكليف إلىٰ وقتك الذي أنت فيه. والتوبة تجبُّ ما قبلها، وهي: الندم والإقلاع، وفي الحديث الكريم: «ما أصرَّ من استغفر ولو عاد /١/ في اليوم سبعين مرة»[٢].

وقد كان سيد أهل الأرض يُدْمِنُ الاستغفارَ دائماً، ولا يظُنَّ ظانٌّ أنه صلىٰ الله عليه يستغفرُ من مقامٍ حلَّ فيه نبيٌّ مرسَل، ولا مَلَكٌ مُقرَّب، فإن بدايته صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم لم تشارك شيئاً من نهايات غيره، فيُنظَرُ من أي شيءٍ كان يستغفر؟! مع مراعاة الإجلال والإعظام والإكبار لقدره صلىٰ الله تعالىٰ عليه، وأعمالُ الأرواح المطهَّرة والقُوىٰ النورانية في معنىٰ ذلك.

ولا يقفُ الإنسانُ مع ما يقوله في ذلك مَن لم يُرزق تعظيمه صلىٰ الله عليه، فإن طريقتنا مبنيةٌ علىٰ الاستغراق فيه صلىٰ الله عليه وسلم، كما يأتي في هذه الإجازة[٣].

---

(١) للمؤلف رضي الله عنه رسالةٌ خاصةٌ في هذه الأركان وشرحها، نرجوا الله أن نتوفَّر علىٰ خدمتها ونشرها قريباً.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٤)، وأبو داود (١٥١٤) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبي نُصيرة، وليس إسناده بالقوي».

(٣) الاستغراق فيه صلىٰ الله عليه وآله وسلم، من أعظم خصائص الطريقتين الكتانية والشاذلية، امتازتا بها عن غيرهما، ولذلك كَثُرَ فيهما الحفَّاظ والمحدِّثون والأثريون كما لا يخفىٰ.

[تصحيح مقام التقوىٰ]

الركن الثاني: تصحيح مقام التقوىٰ، وهي امتثالُ الأوامر واجتناب النواهي ظاهراً وباطناً، وهي مراتبُ، أدناها: اتقاءُ الشرك، وأوسطُها: حفظُ الجوارح ظاهراً وباطناً، وأعلاها: اتقاءُ خطورِ غيرِ الحق سبحانه علىٰ القلب، وهي الخصيصةُ التي لا يُؤتاها كل أحد، وهؤلاء قال قائلهم:

ولـو خَطَـرَتْ لـي فـي سِـوَاكَ إرادةٌ علىٰ خاطري - سهواً - قضيتُ بِرِدَّتي[١]

ومن أدمن قَرْعَ الباب علىٰ يد الأكابر، أهلِ الكلمة المسموعة، والشفاعة التي لا تُرَدُّ في حضرة الله، يوشَكُ أن يُفتح له.

[التماسُ المعاذِر لسائر الناس]

الركن الثالث: التماسُ المعاذر لسائر عبادِ الله علىٰ اختلاف مراتبهم، واتساع مجال آرائهم، وتباينِ مذاهبهم[٢].

---

(١) من تائية «نظم السلوك» لسلطان العاشقين الإمام أبي حفص عمر بن الفارض رضي الله عنه.

لطيفةٌ: مما كان يقوله والد المصنف رضي الله عنهما، الإمام جبل السنة والدين أبو المكارم عبد الكبير بن محمد الكتاني الحسني كما في «المظاهر السامية في النسبة والطريقة الكتانية» للحافظ السيد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: «إذا كان ابن الفارض سلطان العاشقين، فإن ابني سيدي محمد سلطان المعشوقين». وفي هذه اللفظة من العمق عند أولي البصائر ما لا يخفىٰ.

(٢) ما وصلنا إلىٰ ما وصلنا إليه في هذا الزمان من التشتت والتشرذم، واتباع الهوى، وغلبة الكفر والضلال علىٰ بلادنا ودُورنا إلا بسبب سوءُ الظن، وعدم التماس المعاذر لسائر الخلق، من فقهاء ومتكلمين وسالكين وغير ذلك، وكذلك من فَتْحِنا هذا البابَ دون تكيُّس حتىٰ نصل إلىٰ حد الغفلة في ديننا، وتصديق كل مخرف ودخيل، وما كان سلف =

فمن لم يسلِّم عليك ـ مثلاً ـ أو سلَّمتَ عليه فلم يردَّ تعتذرُ أنتَ عنه بأنه لم يسمعك، أو كان مشغولَ البال، وقِسْ. واستعن علىٰ هذا بدوام استحضار أن الحقَّ تعالىٰ هو الآخذُ بالنواصي ولا فاعلَ سواه، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: ٥٦].

فتأمل: فإنه إذا كان الحقُّ في نفسه علىٰ الصراط المستقيم، وهو مع ذلك آخذٌ بالنواصي، فما ثم بهذا الاعتبارِ إلا الصراط المستقيم.

ولا تزد علىٰ الإنكار علىٰ المنحرف بلسان الشرع، ومن كان هكذا أنكرَ وهو أبٌ شفيقٌ رحيمٌ.

[نظرة التعظيم في سائر الموجودات]

الركن الرابع: نظرةُ التعظيم في سائر الموجودات، فإن أربابَ البصائر يشهدون أن لكل نَسْمَةٍ وِجْهَةٌ ونِسْبةٌ خاصةٌ من الحق، تستحق تلك النسمُة أن تُعَظَّمَ من أجلها. وتَفَهَّمْ سرَّ قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وهو بساطٌ طويلُ الذيل، وقد أومأتُ إلىٰ المقصود.

[مباني الطريقة الكتانية]

وأما مبانيها: فأعظمها، بل كلُّها: الاستهلاكُ في محبته ﷺ، واستغراق القلب في مودّته، ودوامُ تشخُّصِ صورته الشريفة نُصْبَ العين، ودوامُ مشاهدته. ولك في ذلك مشاهد:

= الأمة رضي الله عنهم هكذا، وإنما يجب أن يكون المرء مثل الميزان، ولا يقوم هذا إلا بالاستعانة بشيخ التربية المتوفرة فيه شروط المشيخة، والتي خصص لها المؤلف رضي الله عنه رسالة خاصة أشرنا إليها قريباً.

[مشاهد الطريقة في حقه ﷺ]

[(١) مشاهدته برزخاً بين المخلوقات وبين ربها]

المشهد الأول: أن تشاهدَه ﷺ برزخاً بين المخلوقاتِ وبين ربها، وخاصيةُ البرزخ: أنه لا ينزل شيءٌ إلا عليه، ولا يصعدُ شيءٌ إلا إليه، فمعاملةُ الخلق كلُّها معه ﷺ في الحقيقة[١].

وبيانُ ذلك: أن الحقَّ سبحانه لما كان في عِزّة القِدَم، وجلالِ الربوبية، وكبرياء الديمومية، وكان الخَلْقُ في نقيض ذلك كلِّه، كانت المناسبةُ بعيدةً جداً، فكان مقتضىٰ هذا أن لا يظهرَ معه ـ سبحانه ـ شيءٌ من المخلوقاتِ البتةَ.

فمِن عظيمِ فضله، وجليلِ امتنانه أنْ أبرزَ /٢/ من نفسِه برزخاً جامعاً، وأفاضَ عليه جميعَ كمالاته، وحلاّهُ بأسمائه وصفاته، فكان حاجزاً عظيماً بين المخلوقاتِ وبين صَدَمَات الغَيْرةِ الإلٰهية، وأوجالِ الجلالاتِ الصَّعْقانية.

فعندَ ذلك صَلُحَت الموجوداتُ للوجود، وهو من معاني: «لولاه لم تَخْرُج الدنيا من العَدَمِ»[٢]، و«لولا الواسطةُ لذهبَ الموسوط»[٣].

---

(١) فصّل المصنفُ في هذه الأمور في كتابه العظيم «خبيئة الكون»، وفي غيره، ولهذه المسألة أدلة كثيرة، بعضها في رسالته في «اقتران ذكر رسول الله ﷺ بذكر الله تعالىٰ»، ومنها: «إنما الله معطي وأنا قاسم».

(٢) من «بردة» الإمام البوصيري رضي الله عنه:

وكيف تُدْرِكُ في الدنيا حقيقةُ مَنْ　　لولاه لم تَخْرُجِ الدنيا من العَدَمِ

وانتقد عليه بعض الناس هذا البيت، وانتصر له آخرون، ولوالد المصنف رضي الله عنهما، الإمام عبد الكبير الكتاني مصنفٌ خاصٌ عظيمٌ في هذا المعنىٰ، يقع فيه مجلد مخطوط، سلك فيه طريقة المحدثين والمتكلمين والصوفية.

(٣) قطعة من صلاة شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة تاج الدوائر الصوفية الإمام الشريف عبدالسلام ابن مشيش العلمي الإدريسي الحسني، رضي الله عنه، شيخ الإمام العارف أبي الحسن علي الشاذلي الإدريسي الحسني الغماري، رضي الله عنه.

ثم لم يقتصر في التنويه به ﷺ علىٰ هذا القدر، بل زِيدَ بأن جُعل متجلِّياً في كل ذرةٍ من ذراتِ الموجودات، «إني لأرىٰ في كل صورة»[١]، «أنا مِنَ الله، والمؤمنون مني»[٢].

[نتائج هذا المشهد]

وهذا المشهد يعطي نتائجَ منها:

ـ وجوبُ محبته ﷺ عقلاً، فأحرىٰ شرعاً وطبعاً، ومنها:

ـ تعظيمُ الوجودِ كلِّه لأجله، ومحبةُ الكون كلِّه، ومنها:

ـ الاستغراقُ فيه ﷺ، ودوامُ الإقبال عليه بالقلب، ودوامُ مدِّ أكفِّ الفاقة له، إذ لا مُفيض سواه، ودوام اللَّهَجِ بِذِكْرِ مُعْجِزَاتِه، ومناقبه ومفاخره، وما امتاز به عن كُبَراء الخَلْق، وكثرةُ الصلاة عليه، وخصوصاً بهذه الصلاة الأُنْمُوذَجِيَّة التي هي ـ في جانب الثناء عليه صلىٰ الله عليه ـ في مقابلةِ الاسمِ الأعظمِ المكنون في جانب الثناء علىٰ جلالة الربوبية.

ولو أنَّ العوالمَ كلَّها لها أَلْسُنٌ، وتلك الألسُنُ تصلِّي عليه بغيرها، وواحدٌ يصلِّي بها: لفاقَهم، وهي من موجِباتِ رضوانِ الله الأكبر الذي هو أعظمُ من كل شيء[٣].

---

(١) لم أجده.

(٢) رواه الديلمي بلا إسناد بلفظ: «أنا من الله عز وجل والمؤمنون مني»، كذا ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١:١٨٥).

(٣) قدرُ الكلام علىٰ قدرِ معناه، فراجع شروح «الأنموذجية» تَرَ العجائب، وقد نصَّ المصنفُ رضيَ الله عنه في «خبيئة الكون» وغيرها أن أفضلَ صلاةٍ علىٰ الإطلاق هي الصلاة الإبراهيمية، والصلواتُ الأخرىٰ التي خرجت من بين شفتي رسول الله ـ ﷺ وعلىٰ آله ـ الكريمتين، حالَ حياته الدنيوية، وانتقد علىٰ الصوفية عدمَ كتابتهم في فضائلها ومكنوناتها، وقد وضعها في ورده بعد كل صلاة من ثلاث إلىٰ خمس مرات (أي الإبراهيمية).

وكذا «القاسم»، فإن من قرأه خرجَ منه نورٌ لا يبقىٰ شيءٌ من الكون إلا وصلَه، وكل مَن وصلَه ذلك النورُ ازدادَ به قُرباً من الحق تعالىٰ. فالمُكثِرُ مِنهُ له هَيْمَنَةٌ علىٰ مراتب الموجودات، لأنه يُرَبِّيها، ويُرَقِّيها دائماً.

[(٢) مشاهدةُ أن له ﷺ علىٰ كل ذرةٍ من ذرات الموجوداتِ نعمةُ الاستمداد من الحق]

المشهد الثاني: أن تشهدَ أنّ له صلىٰ الله عليه علىٰ كل ذرةٍ من ذرات الموجوداتِ نعمةَ الاستمداد من الحق، فإن له مع كل نَسْمةٍ وِجْهَاتٌ يَمُدُّها بها، وبها قامت، ولولا ذلك ما ثبتَ شيءٌ من الكون، ولاضْمحلّت الموجودات.

كما أن له وجهةً عظيمةً مع الحق دائمةَ العكوفِ بمحرابِ الصَّفا، لا تشغلُها هذه الوجهاتُ الخَلْقِيَة.

وإن شئتَ إيضاح ذلك، فاعلم: أن له أربعين وِجْهَةً من وِجْهَاتِ الإمداد يقابلُ بها الرأس، فبها قِوامُ: السمع، والبصر، والشم، والذوق، والنطق، والحوافظ، والمُدْرِكات، وسائر القوىٰ التي تكون في الرأس.

وله ﷺ وجهاتٌ ثمانٍ يقابلُ بها اليدين، فبها تقدر علىٰ حمل الأشياء والأخذ والعطاء، وبها قِوامُ قوة اللمس، وقوة المفاصل، واستقامة حركاتها وغير ذلك.

وله وجهاتٌ أربعون تقابلُ القلبَ الذي به يكون الإنسانُ إنساناً، وبها قِوامُ العقل وقوةِ التدبير، ومعالجةِ أمر الصنائع، وبها قوامُ أمرِ الأحشاء ومجاري الطعام، وبها صَلُحَتْ لكونها مُجرىً علىٰ الدوام /٣/ مع ضعفها.

وله وُجهاتٌ أربعٌ تقابل الرجلَين وما والاهما، فبها يقدر الإنسانُ علىٰ الجري، يمشي هَوناً إن شاء، ويعدو إن شاء، وبها قوة الإمساك والدفع بالنسبة للمخرجَين، وبها تماسكت قوةُ الجماع وغيره.

فهذه اثنان وتسعون وجهةً، تقابلُ كل إنسان، وهي عددُ نَقْطِ حروفِ اسمه العظيم «محمد».

هذا بالنسبة لعامة الخَلْق، [. . .] إليهم بسمعين[1] تقابلُ رؤوسَهم وهي عددُ نقط ميم. . هكذا.

[(٣) أن تشهده عندَ السلام في الوِرْد]

المشهد الثالث: أن تشهده عندَ السلام[2] في الوِرْدِ الكريم، فتسلِّمَ عليه باعتبار ذاته الشريفة مجرَّدةً في الخارج.

وتسلِّمَ عليه أيضاً في مظاهره التي هي العيون، وهو معنىٰ: «السلامُ عليك يا عينَ العيون». فيرد عليك صلىٰ الله عليه باعتبار ذاته المجرَّدة في الخارج، وباعتبار مظاهره، لقوله في الحديث الشريف: «من سلَّمَ عليَّ ردَّ الله عليَّ روحي حتىٰ أردَّ عليه»[3].

ثم تسلِّمُ علىٰ روحه العظيمةِ أيضاً، باعتبار التجرُّد، وباعتبار مظاهرها التي هي عوالمُ اللطافة، من أملاك، وأرواح مهيّمة، وغيرها. وهو معنىٰ: «السلام عليك يا رُوح الأرواح».

---

(١) كذا في الأصل! ويظهر أنّ في الأصل سقطاً كما أشرنا بالمعقوفتين، فليُقَدَّر.

(٢) أي قوله في الورد الشريف: «السلام عليك يا عين العيون، السلام عليك يا روح الأرواح، السلام عليك بلسان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] »، وهي تقرأ في الورد الشريف عشر مرات.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٠٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠:٢٥٢): «وفيه عبد الله بن يزيد الإسكندري ولم أعرفه، ومهدي بن جعفر ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات».

ثم تسلِّمُ عليه بلسان المعدِّلين المقدِّسين المرضيين الصحابةِ الكرام رضوانُ الله تعالىٰ عليهم، تأوِّياً كونَ الحق أنزله منزلته واستخلفه في المُلْك الأعظم، لا في الأرض فقط كسيدنا آدم وسيدنا داود، وهو معنىٰ: «السلامُ عليكَ بلسانِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾».

وحاصلُ هذا المشهد: أن تشهده ﷺ عينَ الأشياء وروحَ الكائنات.

[(٤) أن تشاهده نوراً صِرْفاً]

المشهد الرابع: أن تشهدَه نوراً صِرْفاً حَقّانياً لاهوتياً استبدَّ باسم البشرية، وتلثمَ ببراقع العَبْدية.

[نتائج هذا المشهد]

وهذا المشهد يعطي نتائجَ منها:

ـ سجودُ القلبِ له صلىٰ الله عليه كما سجدت الملائكةُ لآدمَ بالوجه والجسم، ومنها:

ـ اللَّجَأُ إليه في الشدائد، واستمناحُه في جميع المطالب والمراغب، وعدمُ قطع النظر عنه في مشهَدٍ من المشاهد وفي طَلِبةٍ من الطلبات والمراغب، فهو صورةُ الحضرة العلية تشكَّلَ فيما ترىٰ، فارجع البصرَ نحو حقائقه الكريمة(١).

فهذه أخي مشاهدُ أربعٌ اقتصرنا عليها تبصرةً للطالب، من أدمنَها انتقلَ منها إلىٰ أرقىٰ منها، إلىٰ أن يشاهدَه ﷺ بعينِ رأسِه متىٰ شاء، واللهُ ذو الفضلِ العظيم.

---

(١) أي: باتباعه، والاقتداء به صلىٰ الله عليه وسلم وعلىٰ آله، والتوسل به إلىٰ الله تعالىٰ، والفزع إلىٰ حديثه وهديه في رَوْم فك الكُرَب والصبرِ علىٰ البلاء، حتىٰ تتشخصه في حياتك وكل أمورك ﷺ وعلىٰ آله.

[الدعوة إلىٰ البحث عن الشبهات التي بين الحلال والحرام]

ثم أَدُلُّكَ ـ أخي ـ علىٰ أمرٍ إذا عملتَ به كنت سَيِّدَ أهلِ زمانك، وكنتَ من الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله، وهو: البحثُ عن الشُبُهات التي بين الحلال والحرام، التي لا يعلمُها كثيرٌ من الناس، بل لا يُلْقُون لها بالاً حتىٰ يعلموها أو لا يعلموها، فاعمل علىٰ مقام الوَرَعِ تكن أعبدَ الناس.

وليس الشأنُ في توقّي الحرام، ولا فعل الواجب، وإنما الشأنُ عندَ أهل الطريق في البحث عن الشبهات، وعدمِ الإفراط في تعاطي المباحات.

وتذكَّر ما في الحديث الشريف: أنه ﷺ وجد تمرةً فقال /٣/: «لولا أني أخاف أن تكونَ من الصدقة لأكلتها»[1]، مع أن العقلَ ربما يقول: إن كانت قرينةٌ تُقَرِّبَ كَوْنَها مِنَ الصَّدَقة فهذا مقامُ الورع، وإلا فكذا، ومع ذلك اتقاها أورعُ الخلق وأتقاهُم لله سبحانه، فاقتفِ أخي أَثَرَ نَبِيِّكَ العَظِيم.

ودُمْ علىٰ إخراج وِرْدِنا الشريف في وقته، وهو في الصباح من الفجر إلىٰ الزوال، وفي العَشِيِّ من المغرب إلىٰ الثلث الأول، واستعظم شأنَه، فإن قارئه المداومَ عليه لا يموتُ إلا علىٰ أكمل الحالات، ويحضُرُه المصطفىٰ ﷺ عندَ موته فيسقيه كاساً من كؤوس التقريب الخاص، فيلقىٰ الله وقد حصل علىٰ المقصود الأهم.

[الشروط الخاصة]

وراعِ أيضاً شروطَ الطريق الخاصة، زيادةً علىٰ العمومية، وقد أُخِّرت إلىٰ هنا.

وهي مراتب، أدناها: حِفْظُ الجوارح، وأوسطُها: دوامُ السَّيْر القَلْبي، ومعنىٰ ذلك: أن يكون القلبُ دائمَ العُكُوف برَصِيدِ المُنَاجَاة، مستمنِحاً روحانيةَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٣١)، ومسلم (١٠٧١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

شيخِه، ونبيه، مترقّباً ما يَرِدُ عليه من الأمداد القُدْسِيّة، مستعداً للعطايا الوَهْبية، مجتنباً ما يكدِّرُ صفوَه من المناهي والغفلات، لا يردُّه رادٌّ عن تلك الموارد، ولا يصده صادٌّ عن تلك المعاهد.

فإن لم يحترز مما قلنا فقد انقطعَ سيرُه القلبي، حتىٰ إن فرضنا أنه كان محتفظاً بالأعمال الظاهرة وقلبه غير مستشرف لتلك الموارد؛ فقد انقطعَ سيرُه القلبي وبقيَ سائراً بجسمه، وسيرُ الجسم بعيدُ المدىٰ، بل ربما لا يُجدي، بخلاف السير القلبي، ذرةٌ من أعمال القلوب خيرٌ من أمثالِ الجبالِ من أعمال الجوارح.

وأعلاها: معاملةُ الحق سبحانه في المظاهر، وهِيَ هِي. ومعنىٰ ذلك بإيماء: أن يُشاهِدَ أنوارَ الربوبية في كل شيء، فيعامِلَه علىٰ حسب ذلك، وغيرُ خفي ما يجبُ لمقامِ الموجوداتِ كلِّها عندَ هذه المشاهدة، وهي كلُّها من شجرةٍ مباركةٍ يكادُ زيتها يضيءُ ولو لم تمسسه نار.

ولا نعذُرُك أخي في القيامِ في الأسحار، وإظهارِ شعائر الدين، وإعلاءِ كلمة الله، ونشرِ أعلام الطريق، والدلالةِ علىٰ الله سبحانه بالقول والفعل والهِمّة والحال، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

وأكثِرْ من دعوة العلماء وحَمَلةِ الكتاب العزيز للطريقة، وكُن عِوَضاً منّا في تلك النواحي، ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]، ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ونسألُ اللهَ الكريمَ أن يُحْيِيَ بِكَ القلوبَ المَيْتَةَ المُظْلِمَة، ويُعامِلَنا وإياكم بِجَمِيلِ لُطْفه، وأستودعكم اللهَ الذي لا تخيب ودائعه، والسلام.

انتهت الرسالةُ العجيبة، ذاتُ الأسرار المُفَاضَةِ علىٰ مُنْشِئِها من حضرة النبوّة عليها السلام.

الوصايا الكتانية

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهَدِ بفاس سنةَ ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

رحماك يا شيخنا السيد العلم والبحر الزاخر الغطمطم سيدنا
أبا [illegible] محمد بن الشيخ عبد الكريم [illegible] الكنتي رضي الله عنه

أما بعد فقد علمتم أصلحكم الله أن عمر الإنسان جوهرة نفيسة لا ينبغي أن يضيع في غير
طائل [illegible] السلف الصالح رضي الله عنهم كانوا أحرص على أوقاتهم منهم على دراهمهم
ودنانيرهم [illegible] أن الإنسان حمل أمانة عرضت على السموات والأرض
والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا
حيث وضعها في غير محلها [illegible] حيث [illegible] الأمانة [illegible]
[illegible]
[illegible] السموات والأرض
والجبال [illegible] بأنه ظلوم جهول [illegible] واعلموا [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

فخير عندكم عبادة وعند غيركم عادة ولا تكونوا مع المقصر إذا سئل عنكم في جميع أعمالكم
وأموالكم ومعارضة زواريكم ميزونكم وعمار تعالى إذا وقفت إلى نغا صورنا عليها فإن لم تنظروا
بما أمركم به مولانا محمد صلى الله عليه وسلم فلا ينفع لكم خير ولا حرج وكل من خفوه عليكم
يجزاه ويكفر به وتكونوا على خيبة أمره خسرا .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا أحمد، وآله وصحبه

وصايا شيخنا المفرد العلم، والبحر الزاخر الغَطَمْطم مولانا أبي الفيض الإمام محمد بن الشيخ عبد الكبير الأحمدي الكتاني رضي الله عنه

أما بعد:

فاعلموا إخواني أن عمرَ الإنسان جوهرةٌ نفيسةٌ لا ينبغي له ضياعُها في غير طائل، فإن السلفَ الصالحَ ـ رضيَ الله عنهم ـ كانوا أحرصَ علىٰ أوقاتهم من حرصنا علىٰ دراهمنا ودنانيرنا، لِمَا كانوا يعلمونه من أن الإنسانَ حُمِّلَ أمانةً عُرضت علىٰ السماوات والأرض والجبال فأَبَيْنَ أن يحمِلْنَها، وأشفقنَ منها، وحملَها الإنسانُ إنه كان ظَلُوماً جهولاً، ظلوماً حيثُ وضعَها في غير محلِّها، جَهُولاً: حيثُ ادعىٰ حملَ ما لا يطيق حملَه.

وفي ضمن الآية أنها عُرِضَت أيضاً علىٰ الإنسان فادعىٰ القدرةَ علىٰ حملها، بشاهد: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، فذلك نتيجةُ المحاوراتِ معه، ثم كرَّ عليه الحقُّ بالإبطال، حيثُ لم يتنصَّل كما تنصَّلت السماواتُ والأرضُ والجبال، ووصفه بأنه ظلومٌ جهول.

واعلموا إخواني أن الآدابَ المُكَلَّفَ بها الإنسانُ كثيرةٌ جداً، سيّما من له نفسٌ حرّة، فهَبْ أنه تقرَّبَ بما تقرَّبَ، وجاهدَ وكدَّ وارتاض، وارتكبَ متنَ المشاق، فلا يرىٰ نفسَه إلا مقصِّراً، لأن الجنابَ عظيمٌ.

وقد غُفِرَ لمولانا رسولِ الله ﷺ ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر[1]، ومع ذلك قام يصلي حتىٰ تورَّمَت قدماه، فقيل: أتفعلُ هذا وقد غُفر لكَ ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً!»[2].

فجِدُّوا إخواني في السير، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، هو اجتباكم وما جعلَ عليكم في الدين من حَرَج، واقتفوا أثرَ جدِّكم ﷺ كي يكثرَ تدفُّقُ الإمداداتِ المحمديةِ عليكم من حضراته، فعلىٰ قدرِ الاتِّباع يكثرُ المَدَد[3].

واعلموا إخواني أنه لمّا شَطَّتْ بنا الديار، وعاقتنا وعاقتكم عن الوُصْلةِ الأقدار، وصِرْنا وصرتُم في بلادٍ شاسعة، ومفاوزَ ومهامِهَ قاطعة، وكنا نترقّب أقدامَكم الشريفةَ لأوطاننا لِمَا وعدتُمونا به من صلةِ الرحم، ولكن لَمّا لم تصلوا، ولم ترسلوا أجوبةَ رسائلنا، مع أن جوابَ الكتابِ واجبٌ كرَدِّ السلام[4]: لم يكن بدٌّ من مراسلتكم ثانياً، لتنوبَ رقومُ الأشكال عنّا في رؤيتكم، وتقبّلَ الأيدي لأنها تشبه سوادَ العين.

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث عائشة رضيَ الله عنها.

(٣) قس هذا بحال أغلب السالكين هذا الزمان، الذين هجروا الاتباع، واتبعوا الدنيا، ثم يدعون وتدعىٰ فيهم المقاماتُ العليا، والأحوال العظيمة، ولا أثر للسنة الشريفة لا في هيآتهم، ولا في أخلاقهم، ولا في عاداتهم، ولا في غيرتهم علىٰ المسلمين وبغضهم لأعداء الدين، ولا في أذكارهم ـ إن ذكروا ـ ولا في دراستهم لسنة المصطفى ﷺ وعلىٰ آله وسيرته، والفقه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٤) في هذا المحل إشارةٌ لطيفةٌ إلىٰ وجوب الإجابة عن الرسائل ومواصلة الأحباب، لا كما اعتاده كثيرٌ من الإخوان هذا الزمان من الاعتذار بكثرة الأشغال، تذرعاً لعدم الإجابة عن أسئلة طلبة العلم وغيرهم.

فهي سوادٌ في بياضٍ يذكرُ وصايا نافعة، تَقلَعُ عن القلب الحُجُبَ المانعةَ له من التطلع علىٰ هاتيك الحضرات، وعن القالَبِ التكاسلَ والتراخيَ والتثبُّطَ عما ناله السادات. فنقول:

وصيةٌ

[في حِفْظ الجوارِح]

احفظوا إخواني جوارحكم، فإن من أطلقَ جوارحَه فيما يحبُّ دامت حسراتُهُ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

والعاقل إن ادعىٰ محبةَ نفسه فلا يتسبَّبُ لها فيما يُخجلها غداً بين يدي ملك الملوك، ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ ﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

وصيةٌ

[في الصمتِ وترك فُضولِ الكلام]

ولما كان المؤمنُ بأصغرَيه: قلبه ولسانه، كما في الحديث[١]، لم يكن بدٌ من تنزيههما عما يتسبب لهما في غضب الجبار.

ولا يخفاكم إخواني، أن اللسانَ ما من: موجودٍ ولا معدوم، خالقٍ أو مخلـوق، متخيَّلٍ أو معدوم، مظنونٍ أو موهوم، إلا واللسانُ يتناولُه، ويتعرَّض له بإثباتٍ أو نفي، فإنَّ كلَّ ما يتناوله العلمُ يُعرِبُ عنه [اللسانُ] إما بحقٍ أو باطل.

---

(١) لم أجده.

ولا شكَّ أيضاً إلا والعلمُ متناوِلٌ له، وهذه خصيصةٌ لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العينَ لا تصلُ إلا لأحدَ عشرَ إدراكاً: النور، والظلمة، واللون والجسم، وسطحه، وشكله، ووضعه، وأبعاده، وحركاته، وسكناته، وأعداده.

والأذنَ لا تصل إلىٰ غير إدراكين: الصوت الخفيف، والصوت الثقيل.

واليد لا تصل إلا إلىٰ عشرة إدراكات: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، واللين، والخشونة، والصلابة، والرخاوة، والثقل، والخفة.

وكذا سائرُ الأعضاء، فلكلٍ إدراكاتٌ مخصوصة، عدا اللسان، فهو رَحْبُ الميدان لا يردُّه رادٌّ، ولا يصدُّه صادٌّ، ولا لمجاله منتهىٰ.

فمن أطلق عَذَبَةَ اللسان وأهمله، مُرخيَ العِنان: سلكَ به الشيطانُ في كل ميدان، وساقه إلىٰ شفا جُرُفٍ هارٍ، إلىٰ أن يضطره إلىٰ البوار، «وهل يُكَبُّ الناسُ في النار علىٰ وجوههم إلا حصائدَ ألسنتهم» كما في حديث سيدنا معاذ رضيَ الله عنه[١].

ولا ينجو من شر اللسان إلا من ألجمه بلجامِ الشريعة السمحة، فلا يطلقه إلا حيثُ ينفعه في الدنيا وفي الآخرة، وعلمُ ما يُحمَدُ في إطلاق اللسان أو يُذَمُّ غامضٌ عزيز، والعملُ بمقتضاه علىٰ من عرفه عسير.

وأعصىٰ الأعضاء علىٰ الإنسان اللسان، فإنه لا تعبَ في إطلاقه، ولا مؤنةَ في تحريكه، وقد تساهلَ الخَلْقُ في الاحتراز عن غوائله ودواهيه، وتعرُّفِ طرق الاحتراز عنها، ولأجل هذا وردت الأحاديثُ والآثارُ بالصمت.

وفي الحديث: «مَن صمتَ نجا»[٢]، رواه الطبراني، وقال سهلُ بن سعد بن مالك بن خالد الخُزاعي الساعِدِي: قال ـ مولانا ـ رسولُ الله ﷺ: «من يتكفَّلَ

---

(١) رواه البخاري (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) وغيرهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٠١)، والدارمي (٢٠٩٢)، والإمام أحمد (٢: ١٧٧)، وغيرهم من حديث ابن عمرَ رضي الله عنه، قال الحافظ في «فتح الباري» (١١: ٣٠٩): «رواته ثقات».

لي ما بين لحييه ورجليه أتكفَّلُ له بالجنة»، رواه البخاري[١].

وسُئل مولانا رسولُ الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة، فقال: «تقوىٰ الله وحسنُ الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل النارَ فقال: «الأجوفان: الفمُ والفرج» رواه الترمذي وصحّحه، وابنُ ماجَهْ من حديثِ سيدنا أبي هريرة[٢].

وفي الحديث: «إن أكثرَ خطايا ابنِ آدم في لسانه»، رواه الطبراني وابنُ أبي الدنيا في «الصمت».

ورُوِيَ أن سيدَنا معاذَ بن جبل ـ رضيَ الله تعالىٰ عنه ـ قال: يا رسولَ الله، أوصني، قال: «اعبد الله كأنك تراه، وعُدْ بنفسِكَ الموتىٰ /٢/، وإن شئت أنبأتُكَ بما هو أملكُ لك من هذا كله»، وأشار بيده الشريفة إلىٰ لسانه الكريم رواه ابنُ أبي الدنيا في «الصمت» والطبرانيُّ في «الكبير»[٣].

وفي الحديث: «أخزُن لسانكَ إلا من خير، فإنك بذلكَ تغلبُ الشيطان»، رواه الطبراني في «الصغير»[٤].

وفي الحديث: «إذا رأيتم المؤمن صَمُوتاً فاقربوا منه، فإنه يُلقَّنُ الحكمة»، رواه ابن ماجه من حديث ابن خلّاد[٥].

---

(١) البخاري (٦٤٧٤) بلفظ «من يضمن...» وأما رواية «من يتكفل...» فقد رواها الترمذي (٢٤٠٨).

(٢) الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

(٣) ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٢) باختلافٍ يسير، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠: ٣٧٤)، وقال المنذري في «الترغيب» (٤: ٢٤٣): «رواه الطبراني بإسناد جيد، إلا أن فيه انقطاعاً بين أبي سلمة ومعاذ»، وهو بلفظ: «واعدُدْ نفسك في الموتىٰ».

(٤) رواه الطبراني في «الصغير»، (٩٤٦) وأحمد (٣: ٨٢)، وأبو يعلىٰ (١٠٠٠) في «مسنديهما»، وقال الهيثمي في «المجمع»: «وفيه ليث بن أبي سُليم وهو مدلس، وقد وُثِّقَ هو وبقية رجاله».

(٥) أخرجه ابن ماجه في «السنن» بلفظ: «إذا رأيتم الرجل أُعطيَ زهداً في الدنيا، وقلةَ منطق، فاقتربوا منه، فإنه يُلقي الحكمة» (٤١٠١).

وقال سيدُنا عيسىٰ عليه ـ وعلىٰ نبينا وسائرِ الأنبياء ـ أزكىٰ التحياتِ والتسليمات: «العبادةُ عشرةُ أجزاء، تسعةٌ منها في الصمت، وجزءٌ في الفرار من الناس». رواه ابنُ أبي الدنيا في «الصمت»، من طريق وُهَيْب بن الورد[١].

وفي الحديث: «عليكم بحُسْن الخُلُق، وطولِ الصمت، فوالذي نفسي بيده ما تجمَّل الخلائقُ بمثلهما»، رواه أبو يعلىٰ من حديث سيدنا أنس[٢].

ومن حديثه أيضاً: «الصمتُ سيّدُ الأخلاق، ومن مزح استُخِفَّ به». رواه الديلمي في «مسند الفردوس»[٣].

ومن حديث سيدنا أبي هريرةَ: «الصمتُ أرفعُ العبادة»[٤].

وكان سيدنا أبو بكرٍ الصدّيق يضعُ حَصاةً في فيه يمنعُ بها نفسَه من الكلام.

وقال ابنُ طاووس: لساني سَبُعٌ، إن أطلقته أكلني»[٥].

وقال وهبُ بن مُنَبِّه: «في حكمة آل داود: حقٌّ علىٰ العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، وحافظاً للسانه، مقبلاً علىٰ شانه». أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت»[٦].

---

(١) ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦٣)، والذي في المطبوعة بلفظ: «والعاشرة عزله الناس»، ورواه أيضاً أبو نعيم في «الحلية» (٨: ١٤٢).

(٢) رواه أبو يعلىٰ (٣٢٩٨)، والطبراني في «الأوسط» (٧٢٤٥)، والبزار (٣٥٧٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨: ٢٢): «رجال أبي يعلىٰ ثقات».

(٣) رواه الديلمي في «الفردوس» (٣٦٦٦) عن أنس رضي الله عنه.

(٤) رواه الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في «طبقات الأصبهانيين» (٢: ٣٤).

(٥) انظر كتاب «الصمت» لابن أبي الدنيا (٦٣)، و«الإحياء» (٣: ١١).

(٦) لم أجده في «الصمت»، وقد رواه الحافظ الأزدي في كتابه «الجامع» (١١: ٢٢) الملحق بالمصنف لابن أبي شيبة.

وقال أبو عَمْرو الأوزاعيُّ الفقيه رحمه الله: «كتبَ إلينا عمرُ بن عبد العزيز: أما بعدُ، فإن مَن أكثرَ ذِكْرَ الموت رضيَ من الدنيا باليسير، ومن عدَّ كلامَه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه». أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت»[1].

وقد اجتمع أربعةُ ملوك، رمَوا رميةً واحدةً بكلمةٍ واحدة: ملكُ الهند، وملكُ الصين، وكسرىٰ، وقَيْصَر.

فقال أحدهم: إنما أندمُ علىٰ ما قلتُ، ولم أندم علىٰ ما لم أقل.

وقال آخر: إذا تكلمتُ بكلمةٍ ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتُها ولم تملكني.

وقال الثالث: عجبتُ للمتكلِّم إن رجعَتْ عليه الكلمةُ ضرّته، وإن لم ترجع لم تنفعه.

وقال الرابع: أنا علىٰ ردِّ ما لم أقل، أقدرُ مني علىٰ رد ما قلت. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت»[2].

فالزموا إخواني الصمتَ كي تسلموا من آفات اللسان، وتَغنَمُوا من حيثُ جمعُ الهمم من التشتيت والتفكر، والفراغُ للذكر، والسلامةُ من تَبِعاتِ القول في الدنيا، ومن حسابه في الآخرة، ودوامُ الوقار والهَيبةِ بين الناس، وأيضاً هو سترٌ للجاهل ووقارٌ للعالم.

* تحصيلٌ:

ولنختم هذه الوصية بتحصيل:

فلتعلموا إخواني، أن الكلامَ أقسامٌ أربعة:

---

(١) ذكره الحافظ ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦١)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٢٩٦).

(٢) ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٧١).

(١) ضررٌ محض، فلا بد من السكوتِ عنه، كالغِيبة، والنميمة، وشهادة الزور، والكلام الفُحْش، والغِلظة، والفظاظة، والكلام المُوحِش، والكذب، والبهتان، والتكلم بما لا يعني.

(٢) وقسمٌ هو نفعٌ محضٌ.

(٣) وقسمٌ فيه ضررٌ ومنفعةٌ.

(٤) وقسمٌ ليس ضرراً ولا منفعةً.

فأما الذي فيه ضررٌ ونفعٌ: فلا بد من السكوتِ عنه، لأن منفعتَه لا تفي بالضرر.

وأما ما لا منفعةَ فيه ولا ضررَ فهو فضولٌ، والاشتغالُ به تضييعٌ للوقت في غير طائل، وهو عينُ الخسران.

فما بقيَ إلا القسم الرابع، وهو الذي فيه نفعٌ محضٌ، فقد سقطَ ثلاثةُ أرباع الكلام، وبقي ربعٌ، وهذا الربعُ فيه خطرٌ، إذ يمتزجُ به ما هو إثمٌ من دقائق الرياء، والتصنّع، والغِيبة، وتزكيةِ النفس، وفضولِ الكلام امتزاجاً لطيفاً يخفىٰ دَرْكُه، فيكون الإنسان مخاطراً.

ومن علم دقائقَ آفاتِ اللسان وغوائلِه ودواهيهِ شَمَّ بعضَ رائحةِ قولهِ ﷺ كما صدّرنا به: «من صمت نجا»[1]، والله المستعان.

فواظِبُوا إخواني علىٰ أورادكم ـ معاشرَ الطائفةِ الكتانية ـ بالشرائط التي شرطناها عليكم عندَ التلقين، ودونكم والمواظبةَ علىٰ «الصلاة الأنموذجية» سائرَ نهاركم بحسب المستطاع، وليلكم بحسب المستطاع، فإن الفقيرَ ابنُ وقته.

وقد كان جدُّكم سيدُنا عليٌّ يقول لمولاتِنا فاطمةَ: «إن صنعتِ طعاماً فاجعليه مائعاً كي لا أحتاجَ إلىٰ المضغ فتفوتني سبعونَ تسبيحةً»، فتأسَّوا به رضيَ الله عنه و﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) مر تخريجه.

فما مضىٰ من عمركم لا عِوَضٌ لكم منه، وما بقيَ ربما لا تدركونه، فما بيدكم إلا الوقتُ الذي أنتم فيه، فاملؤوا رحابَه بالذكر حتىٰ تتجوهَرَ ذاتُكم، وتصيرَ كثائفُكم لطائفَ، وعلومُكم معارفَ، وهواجِسُكم عوارفَ، وتصيروا مع الله ظاهراً وباطناً والناس يظنون أنكم معهم: «اعبد الله كأنكَ تراه»[1]، ومحالٌ أن تراهُ وتشهدَ معه سواه.

فاعملوا علىٰ صقل مرآة قلوبكم، حتىٰ تتنزهوا عن المخالفةِ والأوهام والأغيار، وهناك تمدكم الملائكةُ الحَفَظةُ بما معها من آدابها مع ربها، فتصيروا من الحفظ بالمكانة الزلفىٰ والمحل الأرفع.

وصيـةٌ

[في صلةِ الرَّحِم]

وعليكم إخواني بصلةِ الرحم، فإنها تزيدُ في العمر، ويُبسَطُ بها الرزق.

وكان ﷺ يقول: «مكتوبٌ في التوراة: من أحبَّ أن يُزادَ له في عمره ورزقه فليَصِلْ رحمَه»[2]، وفي الحديث: «إن اللهَ ليعمُرُ بالقوم الديارَ، ويثمر لهم الأشجارَ والأموال، وما نظر إليهم منذُ خلقهم إلا بالرحمة»، قيل: وكيف ذلك يا رسولَ الله؟! قال: «بصلتهم أرحامَهم، وإحسانِهم إلىٰ جيرانِهم»[3].

وفي الحديث: «ليس الواصلُ بالمكافىء، ولكنّ الواصلَ إذا قطعَتْهُ رحمُه وصلَها»[4].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤: ١٦٠) وصححه.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٥٥٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤: ١٦١)، بلفظٍ قريب، قال الهيثمي في «المجمع» (٨: ٢٧٨): «وإسناده حسن».

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٩١)، وأبو داود (١٦٩٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

فامتثلوا إخواني أمرَ نبيكم، فصِلُوا رَحِمَكم، وإن قطعكم وأدبرَ عنكم، فصِلُوا من قطعكم، واعفوا عمن ظلمكم، وأعطوا مَن حرمكم.

وصيـةٌ
[في ستر عوراتِ المسلمين]

وعليكم إخواني بستر عوراتِ المسلمين الحسّيةِ والمعنوية، كي يعاملَكم مولانا بذلك أيضاً، وفي الحديث: «من نفَّس عن مسلمٍ كربةً من كُرَبِ الدنيا نفَّسَ الله عنه كربةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومن ستر علىٰ مسلمٍ ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عونِ العبد ما دام العبدُ في عونِ أخيه»[١]، وفي الحديث: «من ستر عورةَ مؤمنٍ فكأنما استحيا موؤودةً في قبرها»[٢].

وسببُ هذا: أن رجلاً جاء إلىٰ عُقبةَ بن عامر الجُهَني رضيَ الله عنه، فقال: لنا جيرانٌ يشربون الخمر، وأنا داعِ الشُرَطَ، ـ أي أصحاب المخزن ـ ليأخذوهم. فقال / ٤/ عقبة: لا تفعل، وعِظْهم وهددْهم. قال: إني نهيتُهم فلم ينتهوا، وإني داعِ الشُرَطَ ليأخذوهم. فقال عقبة: ويحكَ لا تفعل، فإني سمعتُ ـ مولانا ـ رسولَ الله ﷺ يقول: «من سترَ عورةً فكأنما استحيا موؤودة في قبرها».

وفي الحديث: «البلاءُ مُوكَلٌ بالمنطق، فلو أنّ رجلاً عيَّر رجلاً برضاع كلبةٍ لرضعها»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٢:٢٥٢)، ومسلم (٨:٧١)، والترمذي (١٤٢٥)، وأبو داود (١٤٥٥)، وابن ماجه (٢٢٥) وغيرهم، وأورده المصنفُ ـ رضي الله عنه ـ بشيءٍ من الاختصار.

(٢) ورد بألفاظٍ عدة، رواه الإمام أحمد (٤:١٥٣)، والبيهقي (٨:٣٣١)، وابن حبان (١٤٩٣)، وأورده المنذري في «الترغيب» (٣:٢٣٨).

(٣) أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣:٨٣)، وابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢:٢٩٦)، والفتّني في «تذكرة الموضوعات» (١٧٠)، والحافظ السيوطي في «الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة» (٥٨)، وغيرهم، وله شواهد غير أنها ضعيفة. وانتصر لمعناه الحافظ ابن القيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في كتابه «تحفة المودود في أحكام المولود»، ونقل لمعناه أدلةً كثيرة، فلتراجع.

فاقتدوا إخواني بأخلاق جدكم ﷺ، واكتموا عيوبَ الناس، وعاملوهم بما تحبون أن يعاملوكم به، «وليحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[١]، ولا بد.

ومن رأيتموه ينشرُ مساوىءَ المسلمين فاستكتموه برفق، ثم بعنف، ثم قوموا من المجلس أو اقطعوا المجلس بالذكر، فما اجتمع قومٌ في مجلسٍ لم يذكروا الله فيه إلا تفرقوا عن أنتن من جِيفةِ حمار[٢].

وصيـةٌ

[في حفظِ حقوق الجيران]

عليكم إخواني بحفظ حقوق الجيران وإن كانوا مسيئين، وإلا فنفسُكم تحبهم بالطبع إن كانوا ذوي أخلاقٍ حسنة، وكان ﷺ يقول كثيراً: «والله لا يؤمن بالله من لم يأمَنْ جارُه بوائقَه»، قالوا: يا رسولَ الله وما بوائقه؟، قال: «شرُّه»[٣].

وجاء رجلٌ إلىٰ مولانا رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، متىٰ أكون محسناً، ومتىٰ أكون مسيئاً؟! فقال ﷺ: «إذا قال جيرانُكَ إنك محسنٌ فأنتَ محسن، وإذا قال جيرانُكَ إنكَ مسيءٌ فأنتَ مُسيء»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلمٌ في كتاب الإيمان (٤٥)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

(٢) كما ورد ذلك في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد (٩٠٥٢)، وأبو داود (٤٨٥٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٠٨)، وابن حبان (٥٩٠)، والحاكم (١: ٤٩١-٤٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٦)، ومسلمٌ في كتاب الإيمان (٤٦) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٢٢) بلفظ «أحسنت، وأسأت»، بدل «محسن، ومسيء»، والبيهقي في «السنن الكبير» (١٠/١٢٥)، من حديث كلثومٍ الخزاعي، وهو مرسَلٌ، لأنّ كلثوماً لا تصحُّ له صحبة.

وجاء رجلٌ آخر إلىٰ مولانا رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إني نزلتُ محلةَ بني فلان، وإن أشدَّهم لي أذىً أقربُهم إليَّ جواراً. فَبَعَثَ رسول الله أبا بكرٍ وعمرَ وعلياً يأتون المسجدَ فيقومون علىٰ بابه فيصيحون: «ألا إنَّ أربعين داراً جار، ولا يدخل الجنة من خاف جارُه بوائقَه»(١).

فاحفظوا إخواني وصيةَ جدِّكم الكريمِ صلىٰ الله عليه وأحسنوا إلىٰ جيرانكم ما لم يكونوا شرفاءَ من آل بيتِ النبوءة، وإلا تأكدت مبرَّتُهم ومودّتُهم، وما لم يكونوا متقين عاملينَ بعلمهم، أصحابَ خشية، وسَخاء، ووَقار، وصبر، وعلم وتوكّل، وزهد، ويقين، ومحبة، ورضىٰ، وخوف، ورجاء، وغير هذا من مقاماتِ الكمال، فتتأكد محبتهم بحسب كلِّ صفةٍ من هذه الصفات.

لأن الذواتَ ما أُحِبَّت من حيثُ هيَ، فإنها ترابٌ وماءٌ وهواء، وإنما أُحِبَّت بالنسبة لما جمعته من الكمالاتِ والفضائلِ والأخلاق، بدليل أنَّ الذاتَ تنتقل وتصيرُ تراباً ولا تزال محبةُ صاحبها في القلبِ مغروسةً في صميمِ الفؤاد ولا تتزلزل. والله المعين.

وصيـةٌ
[في زيارة الإخْوان والأحِباء]

عليكم إخواني بزيارة الإخوان والأحباء، فإنها يزدادُ صاحبُها علماً وأدباً ووقاراً وعقلاً من المزور، لأن الناسَ متفاوتون في الفضل والذكاء والنباهة والأخلاقِ والشِيَم.

وفي الحديث: «من عاد مريضاً أو زار أخاً له في قريةٍ ناداه منادٍ أن طبتَ وطابَ ممشاك، وطابت لكَ الجنة، وإلا قال الله في ملكوت عرشه: «عبدي زارَ

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٩:٧٣)، وقال الهيثمي في «المجمع»: «وفيه يوسف بن السفر، وهو متروك».

فيَّ، وعليَّ قِراهُ»، فلم يَرْضَ له بثوابٍ دونَ الجنة»[١].

وفي الحديث الشريف: «من زارَ أخاه المسلمَ شيَّعه سبعون ألفَ ملكٍ يصلُّون عليه /٥/ يقولون: اللهم كما وَصَلَهُ فيكَ فَصِلْه»[٢].

ولا شكَّ ـ إخواني ـ أن دعاءَ الملائكة مستجابٌ، فاغتنموا هذه الفرصة، وصلوا إخوانكم، وتفقدوا مَن غاب عن جمعكم السعيد الشريف في وقتِ تلاوة الورد الشريف الذي قاريه المداومُ عليه لا يموتُ إلا علىٰ أكمل الحالات.

ومن وجدتموه مهموماً بغَمِّ الرزق فعَظِّموا يقينَه في مولاه، والحقُّ لم يكلِّفنا بصلاةِ غدٍ، فلا نكلِّفُه برزقِ غدٍ، علىٰ أنه تعالىٰ تكفَّل به قبلَ خلقِ الخلق: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢].

أو متشاجراً مع فقيرٍ فالصلحُ خيرٌ، والشحناءُ ليست من وصف المسلمين، وانصحوه برفقٍ ولينٍ وحنانةٍ وعطف، لما في الحديث: «من أمرَ بمعروفٍ فليأمر بمعروف»[٣]، ﴿وَلَوْ كُنتَ ـ يا محمد ـ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكان مولانا رسولُ الله كثيراً ما يزور رجلاً مكفوفَ البصر بالمدينة ويجلس عنده[٤].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣:١٤٢)، والبزار (٢٠٠٤)، وأبو يعلىٰ (٤١٢٦)، وانظر المنذري في «الترغيب» (٣:٣٦٤)، وقال: «رواه البزار وأبو يعلىٰ بإسناد جيد»، وكأن المصنف جمع هنا بين حديثين.

(٢) روىٰ نحوَه الحافظ ابن عدي في «الكامل» (٢:٢٩٥) عن علي عليه السلام.

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٠٣)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦٢٤٢)، وهو ضعيفٌ.

(٤) رواه البزار (١٩٢٠)، والطبراني في «الكبير» (١٥٣٣) عن جُبَيْر بن مُطْعِم رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨:٣١٩): «ورجال البزار رجال الصحيح غير إبراهيم بن المستمر العُرُوقي، وهو ثقة».

ولا بدَّ ـ إخواني ـ فإنّ من لا أخَ له كاليد الجذماء، وكالطير المقصوص الجناح، وربَّ أخٍ لم تلده لك أمُّك، والله المستعان.

وكان مولانا رسولُ الله يتفقد أصحابه، ويقول: «لعلكم إخواني وجدتم مني أو من أصحابي شيئاً»، والله المعين.

وصيــةٌ
[في إفشاء السلام]

وعليكم ـ إخواني ـ بإفشاء السلام علىٰ من عرفتم وعلىٰ من لم تعرفوا، وردِّ الجواب، وطلاقة الوجه، وطِيبِ الكلام، والمصافحة.

وفي الحديث الشريف: «لا تدخلوا الجنةَ حتىٰ تؤمنوا، ولا تؤمنون حتىٰ تحابوا، ألا أدلكم علىٰ شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلامَ بينكم»[1].

وفي الحديث: «حقُّ المسلمِ علىٰ المسلمِ ستٌّ» قيل: وما هنَّ يا رسولَ الله؟!، قال: «إذا لقيتَه فسلِّم عليه، وإذا دعاكَ فأجِبْهُ، وإذا استنصَحَكَ فانصَح له، وإذا عطسَ فحَمِدَ الله فشمِّتْه، وإذا مرضَ فعُدْهُ، وإذا مات فاتَّبِعْه»[2].

وكانت الصحابة ـ رضيَ الله عنهم ـ إذا طلع الرجلُ عليهم من بعيد، يبادرونه بالسلام قبلَ أن يسلِّمَ عليهم، يبتغون بذلك الفضل.

فتأسَّوا ـ إخواني ـ بجدِّكم عليه السلام وخُلاّفه، تحوزوا الشرفَ الدنيوي والأخروي، فإنا طلبنا العزَّ في غير طاعة الله فلم نجده، وطلبنا الذلَّ في غير

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٣٩٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨: ٦٤): «وفيه عطاء بن مسلم، وهو ثقة، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٨٨٤٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٢٥)، ومسلمٌ (٢١٦٢)، وأبو يعلىٰ (٦٥٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

معصية الله فلم نجده، فليس لأحدٍ عزٌّ إلا من اقتفىٰ الآثار المحمدية، والسنن السَّنيّة، من التواضع والانخفاض، وغلبة العنصر الترابي علىٰ العنصر الهوائي أو الناري.

والأشياء كامنةٌ في أضدادها، فمن تواضعَ رفعه الله، ومن تكبَّرَ وضعه، ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

وكان ﷺ يقول: «إن الله عزَّ وجلَّ يبغض المُعبِسَ في وجوه إخوانه»[١].

فانشرِحوا صدراً مع إخوانكم، ولا تلقوهم إلا ببَشاشة، ولا تقولوا إلا حقاً، فكان جدُّكم يباسِطُ أصحابه ولا يقول إلا حقاً.

وصيـةٌ
[في المُصَافحة]

وفي الحديث: «إذا التقىٰ المسلمان وتصافحا، وحَمِدا الله، واستغفراه، وضحك كل واحدٍ منهما في وجهِ صاحبه، لا يفعلان ذلك إلا لله: لم يفترقا حتىٰ يُغفَرَ لهما»[٢].

وقال سيدُنا أبو هريرةَ: لقيَ ـ مولانا ـ رسولُ الله ﷺ حذيفةَ بن اليَمان فأراد أن يصافحَه، فتنحّىٰ /٦/ حذيفة، فقال: إني جُنُبٌ، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ المسلمَ إذا صافحَ أخاه تحاتَّتْ خطاياه كما يتحاتُّ ورقُ الشجرة»[٣]، فإذا تساءلا

(١) رواه الديلمي في «الفردوس» (٥٥٨) عن علي عليه السلام.

(٢) رواه أبو داود (٥١٦٩)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٧: ٩٩) بدون زيادة الضحك.

(٣) رواه البزار (٢٠٠٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨: ٧٦): «وفيه مصعب بن ثابت، وثقة ابن حبان وضعفه الجمهور».

أنزلَ الله بينهما مائةَ رحمة، تسعةٌ وتسعين لأبشرِهما وأطلَقِهما وأبَرّهما وأحسنِهما مسألةً باقية»[١].

وفي الحديث: «تصافحوا يذهب الغِلّ، وتهادَوْا تحابوا وتذهب الشحناء»[٢].

فَعُوا ـ إخواني ـ هذه الخصيصةَ العظمىٰ، التي ذكرها مولانا رسولُ الله للمصافحة، وهي: أنها تُذهِبُ الغِلَّ من القلب، فأعظِمْ بها من مزيةٍ ومنقَبة.

وهذا ترياقٌ جرّبناه لذهاب الغِلِّ والشحناء فيمن كانت بينهما مشاحنةٌ ومشاجرة، فوجدناه نافعاً، جزىٰ الله عنا سيدَنا محمداً ﷺ وعلىٰ آله ما هو أهلُه.

وقد دار الشارع مع كل أحدٍ بحسب ما تعطيه قابليته، فقال: «تبسُّم أحدكم في وجه أخيه صدقة»[٣]، وكثيراً ما كان يقول: «اتقوا النارَ ولوْ بشِقِّ تمرة، فمن لم يجد، فبكلمةٍ طيبة»[٤].

وصيةٌ
[في ترك الجلوس في الطُّرُقات]

إياكم إخواني وكثرةَ الجلوس في الطرقات، إلا لضروراتٍ شرعية، وفي أثناء تلك الضرورة أعطوا الطريقَ حقها.

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٧٦٧٢)، قال الهيثمي في «المجمع» (٨: ٧٦): «وفيه الحسن ابن كثير بن عدي، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (١٧٥٠).

(٣) بلفظ «تبسمك في وجه أخيك صدقة»، رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٩١)، والترمذي (١٩٥٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٦٣) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

ففي الحديث: «إياكم والجلوسَ في الطرقات» فقالوا: يا رسولَ الله، ما لنا من مجالسنا بُدٌّ، نتحدَّث فيها. فقال: «إن أبيتم إلا الجلوسَ فأعطوا الطريقَ حقه»، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال:

«ـ غضُّ البصر،

ـ وكفُّ الأذىٰ،

ـ وردُّ السلام،

ـ والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر،

ـ وإرشادُ الضالة عن الطريق،

ـ وإغاثة الملهوف،

ـ وحسنُ الكلام»[1].

فهذه شروطٌ ثمانيةٌ لمن أراد الجلوس في الطريق.

فحافظوا ـ إخواني ـ عليها كما أمركم نبيكم، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ٧].

وفي الحديث: «مثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحُمِهم وتعاطفهم، مَثَلُ الجسد، إن اشتكىٰ منه عضوٌ تداعىٰ له سائرُ الجسد بالسهر والحُمَّىٰ»[2].

وفي الحديث: «رأسُ العقل بعدَ الإيمان بالله: التودد إلىٰ الناس، واصطناع الخير إلىٰ كل برٍّ وفاجر»[3].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٢٢٩) باختلاف يسير ليس فيه «.. والنهي عن المنكر»، ومسلمٌ (٢١٢١).

(٢) رواه البخاري (٨: ١١)، ومسلمٌ (٨: ٢٠) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٠٧٠)، والبزار (١٩٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فليعامل العاقلُ عَبِيدَ الله بما يحبُّ أن يعاملوه به، لا غير، ولذلك كان من شعب الإيمان: «أن تحبَّ لأخيكَ ما تحبُّ لنفسك»[١]، وفي ضمنه أن من شُعب الكفر: أن تحبَّ لأخيك ما لا تحب لنفسك.

*** لطيفة:**

وأما لو أحببتَ لنفسكَ ما لا تحبُّ لأخيك من حيثُ تحمُّلُ الأذىٰ عنه، علماً منكَ أنه لا يقدر علىٰ تحمّل ذلك، فهو من الأخلاق الشريفة التي لا يقدر عليها إلا أربابُ الصَّفا.

كأنْ علمتَ زوجةً سيئةَ الأخلاق شريرةً، وعلمت أن أخاً يخطِبُها، فخطبتها أنت علىٰ خطبته تحققاً منك بنفسكَ أنكَ تقدرُ علىٰ تحمُّل أذاها، وكفُّ أذاك عنها، والأخُ لا يقدر علىٰ حمل أذاها، ولا يكفُّ عنها أذاه، فيمكثا في وادي التشاجر، فأحَبَّ لنفسه ما لا يُحبُّ لغيره.

وكذلك لو عَلِمَ دابةً صعبةً، أو رِقّاً لا يأتي بخير، فاشتراه لترتاضَ به نفسُه من حيثُ ذُلُّها وذَوقانُها النكباتِ والقبائحَ، فترتاضَ للحلم، والصفح، وكظم الغيظ، وعدم مقابلة السيئة بالسيئة، ولكن بالعفو، وبالخصلة التي هي أحسن.

ولكل مقامٍ رجالٌ، فإياكَ والاعتراضَ /٧/ علىٰ من سمعته يقول: «أُحِبُّ لنفسي ما لا أُحبه لغيري»، فربما يكون قصدُه ما طرقَ سمعك، ويفوتُك هذا العلمُ لو أنكرتَ عليه بمجرَّد سماعك منه، بخلاف ما لو استفسرتَ قصده، فاعلم هذا.

---

(١) رواه البخاريُّ (١٣)، ومسلمٌ (٧١) بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

ويُتصور هذا الخُلق أيضاً فيمن علمَ من نفسه النصيحةَ، ونُصُوعَ الرحمة للمسلمين، وخلوصَ السياسة لهم فيما يقطع سيرَهم عن الله، ولا يكتم عنهم شيئاً من أمور تسليكهم، ومع هذا رأىٰ من لم يظفر بهذه الرتبةَ يدعو الناسَ لنفسه ويدعي المشيخةَ وليس من أهلها: فيجبُ علىٰ الأول أن يزجرَه عن خلطته والذهابِ إليه، بل ربما لم تكن في الذاهب إليه أخلاقٌ سيئة، وتثورُ عليه وتسري إليه من مخالطته ومشاهدة سِيرته في المأكل والمشرب، والملبَس والحركات والسكنات، وكيفية الكلام، وكيفية المشي، وما يرجعُ لأمر الرياسة، والنخوة الصُّورية، ورائحةِ الدعوىٰ، وتنقيص الغير، وعدمِ نُصُوح النصيحة بأن لا يدلَّهم علىٰ رأس المهالك فيقطعوا شجرتَها، وبانقطاعها تنقطعُ غصونُها من الصغائرِ والخَطَراتِ والأعمالِ المشوبة بما يحُطُّها عن درجة الاعتبار.

فهذا دَأبُ الناصحين ـ رضيَ الله عنهم ـ العارفين بغوائل الطريق ومفاوزها، ومهالكها ودسائسها القاطعةِ لأصحابها عن نَيْل المراتب السَّنيّة.

والغيرُ النُّصّاح يُتعِبون الناس، فيدلونهم علىٰ قلع كل غُصنٍ علىٰ حِدَتِه، فتطُول عليهم المسافات، وربما لا يفي عمرُهُم بقطع أغصان، فكيف بشجرةٍ من جثتها؟! فكيف بشجرات؟!

والعارفون الوَرَثةُ يدُلُّون أصحابَهم علىٰ أصل القواطع الذي بانقطاعه تنقطع شُعَبُ الشجرةِ من أصلها، ثم شجرةٌ أخرىٰ، وهلمَّ جراً إلىٰ أن تنقطعَ الأمهات، فتسهل عليهم الطريق.

وهذا الغالبُ لا يليق ولا يقدر عليه إلا أهلُ الاجتباء، وأما أربابُ الإنابة فلا يقدرون علىٰ شيءٍ من هذا، ولا يدلُّون عليه لأنهم إنما يدلُّون الناسَ علىٰ ما دُلُّوا عليه، ويَرحمُ الله العارفَ حيثُ قال: «من دلَّك علىٰ العمل فقد أتعبك»، والسلام.

وصيـةٌ

[في ترك الجدال]

وإياكم ـ إخواني ـ والجدالَ والمخاصمةَ في الحق، فأحرىٰ في الباطل، لما يؤدِّي للفشل في الجَمْع وذهاب ريحِه، ويؤدي لامتلاء القلبِ بالغِلِّ والحقد والحسد، والتقاطع والتدابر، وكل هذه من أعظم القواطع عن الله، فما أدىٰ إلىٰ المحذور محذورٌ، فأحرىٰ إلىٰ محذورات.

وعن محمد بن كعب بن سليم بن أسد القُرَظي قال: قال ـ مولانا ـ رسولُ الله ﷺ: «إنّ أولَ من يدخلُ الجنةَ من هذا الباب: رجلٌ من أهل الجنة» فدخل عبدُ الله بن سَلاَم، فقام إليه ناسٌ من أصحاب رسول الله فأخبروه بذلك. وقالوا: أخبِرْنا عن أوثق عملٍ في نفسك ترجو به، فقال: «إني ضعيفٌ، وإنّ أوثقَ ما أرجو به: سلامةُ الصدر، وتركُ ما لا يعني». رواه ابنُ أبي الدنيا هكذا مرسَلاً[١].

فافهموا ـ إخواني ـ أنْ ليس المرادُ /٨/ كثرةُ العبادة والمجاهدة مع خُبث الطوية والسريرة، لا، لا، فلا يُعتدُّ بعملٍ شابتْهُ كثرةُ الدنائس وخالطته، وقليلُ العمل مع طهارةِ القلب وصفاءِ السرائر يُجدي ما لا يجدِيه كثرةُ العمل وتدنيسُ الباطن، كما في هذا الحديث، ففيه بشارتان عظيمتان:

الأولىٰ: ما أومأنا إليه، و[هو] أنّ قليلَ العمل يكفي مع صفاء القلب والعقل والنفس والروح والمعاهِدِ والمراغِب، وكم من صحابيٍ كان كثيرَ المجاهدة وربما في تلك اللحظة لم يعثر علىٰ هذه الرتبة، ففاقهم سيدُنا عبدُ الله بن سلام بهذين النعتَين الخفيفين، الثقيلين عندَ الله، وهما: تركُ ما لا يعنيه، وهذا يرجع للسان، وسلامةُ الصدر، وهذا يرجع للقلب. وهو معنىٰ ما قدمناه: «المؤمنُ بأصغرَيه: قلبه ولسانه»[٢].

---

(١) ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١١١).

(٢) لم أجده فيما مضىٰ.

الثانية: زيادة شفقته ﷺ إلىٰ أن تلطَّفَ حتىٰ أخبرَ بهذا المعنىٰ في صورة تهييج قلوبهم لانتهازِ هذه الفرصة، وهو أبلغُ في الحضِّ علىٰ الفعل كما لا يخفىٰ علىٰ الماهرين في علم السياسة.

وفي الحديث: «من تركَ المِراءَ ـ أي الجدال ـ وهو مُحِقٌّ بُني له بيتٌ في أعلىٰ الجنة، ومن تركَ المِراءَ وهو مبطِلٌ بني له بيتٌ في رَبَضِ الجنة». أخرجه ابنُ أبي الدنيا عن هارون بن معروف[١].

وفي الحديث: «ما ضلَّ قومٌ بعدَ هدىً إلا أوتوا الجدل»، رواه الترمذي من حديث أبي أمامة[٢].

ففيه إخباران:

الأول: من رأيناه كثيرَ الجدل، ولا يثبتُ علىٰ نحوٍ واحد، بل علىٰ أنحاء، ويُكثِرُ من ملاحاة الناس، فنعلمُ أن الإمداداتِ الإلٰهيةَ كانت متدفقةً عليه، ثم لما لم يَقمْ بواجباتِ حقوقِها سُلِبَت عنه، وأثرَ السلْبِ من حاله النوراني هو الذي ظهرَ في حواشيه حتىٰ أظهرَ ما أنبأ بأنّ باطنَه خرابٌ من المعرفة الإلٰهية، والآنَ لا قَلَّ من الجدل بسبب كثرةِ وجوه علمه التي تكسوها المساوىء فتصير محاسن.

ولما لم يظهر هذا الوُسع[٣] إلا لمن علمنا أنه رُدَّ أسفلَ سافلين، فلم يَبْقَ في أحسن تقويم، ويا ما أعرفه ﷺ بطرق الرقائق والحقائق والمراكز والمعارف

---

(١) أخرجه بألفاظ متعددة: الطيالسي (٢٢٩٢)، والحميدي (٥٨١)، والإمام أحمد (٢:١٦٢، ٢٠٣)، والدارمي (٢٤٥)، والبخاري (١:٣٦) و(٩:١٢٣)، ومسلم (٨:٦٠)، والترمذي (٢٦٥٢)، وابن حبان (٤٥٧١).

(٢) الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٥:٢٥٢، ٢٥٦)، وقال الحاكم (٢:٤٤٧): «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي. قلت: ولفظه: «بعد هدى كانوا عليه».

(٣) لعلها تصحّفت عن: الوصف.

صلىٰ الله عليه! ولا تكون منا غِيبةً، لأنه أخبر بها من لا ينطق عن الهوىٰ، وأنها فيه، فيُوصَفُ بها تصديقاً لمن أخبر بها.

الثاني: نبَّهَنا المصطفىٰ صلىٰ الله عليه علىٰ قانونٍ كبيرٍ يُحتاج إليه كثيراً، ولا يُعذَر علىٰ الإباحة به خوفاً من الغِيبة والكذب، ولما أخبَرَنا به ﷺ صرنا نستدلُّ بالقرائنِ علىٰ أحوال الإنسان، كمن رأيناه يذكرُ الله حتىٰ كأنه مجنون، وأنكرَ منكرٌ عليه، فنقول لذلك المنكِر إنه منافقٌ، بشهادة الصادق المصدوق بقوله: «اذكروا الله حتىٰ يقولَ المنافقون إنكم مجانين»[١]، فأخبرَ عن المنكر عليهم أنه منافقٌ، فكفانا مؤنته، فلا يهمنا قولُه.

وكما أخبر عمن يشهدُ المساجدَ /٩/ بأنه مؤمنٌ بقوله: «إذا رأيتم الرجلَ يعتادُ المساجدَ فاشهدوا له بالإيمان»[٢]، فربما يكون إخبارُنا عن شيءٍ محمودٍ أو مذموم غيبةً أو كذباً، فنبَّهَنا الطبيبُ الأكبرُ علىٰ الاستدلال بقرائن الأحوالِ علىٰ ما أُكِنَّ في صدور الرجال، ولأجل هذا وردَ الاتّقاءُ من فراسة المؤمن، «فإنه ينظر بنور الله»[٣]، ففيه حظٌّ لمن يفعل الفِعلاتِ الحسية والمعنوية أن يتقيَ اطلاّعَ المؤمنِ علىٰ قلبه لئلا يُفتَضَحَ بينهم.

فما أعرفَهُ صلىٰ الله عليه بالله! حيثُ مهَّد الطريقَين لكلٍ من المطَّلِعِ والمطَّلَعِ عليه، فاعلَمْ هذا فإنه دقيقٌ.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣:٦٩، ٧١)، وأبو يعلىٰ (١٣٧٦)، وابن حبان (٨١٧)، والطبراني في «الكبير» (١٢٧٨٦)، قال الهيثمي في «المجمع» (١٦٧٦١): «رفعه درّاج، وقد ضعفه جماعة، ووثقه غير واحد، وبقية رجال أحد إسنادي أحمدَ ثقات».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣:٦٨، ٧٦)، وعبد بن حميد (٩٢٣)، والدارمي (١٢٢٦)، والترمذي (٢٦١٧) و(٣٠٩٣)، وابن ماجه (٨٠٢).

(٣) «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، رواه الطبراني في «الكبير» (٧٤٩٧)، وأورده القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٦٣)، وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠: ٢٧٣): «وإسناده حسن».

وفي الحديث: «ستٌّ مَن كُنّ فيه بلغَ حقيقةَ الإيمان: الصيامُ في الصيف، وضربُ أعداء الله بالسيف، والتعجيلُ في الصلاة يومَ الدَّجَن ـ أي: الغَيم والمطرِ الكثير ـ والصبرُ علىٰ المصيبات، وإسباغُ الوضوء علىٰ المكاره، وتركُ المراء وهو صادقٌ». رواه الديلمي[1].

ففي هذا الحديث أنّ من تركَ الجدالَ وهو فيه صادقٌ مُحِقٌ غيرُ مبطِلٍ فقد أقامَ ركناً من أركان الإيمان، فإنه ﷺ جعلَها ها هنا مبنيةً علىٰ ستّ خصال، فمن استكملَ هذه الستَّ خصالٍ فقد استكملَ حقيقةَ الإيمان.

ومفهومُه: أن من لم يترك الجدالَ وهو صادقٌ فيه لو جادل، فقد خرم دعيمةً من دعائم الإيمان، وأحرىٰ لو لم يترك الجدالَ في الباطل.

فأقيموا إخواني دعائمَ إيمانكم بترك الجدال وما معه، خصوصاً: الصبرَ عندَ الصدمة الأولىٰ، وإسباغَ الوضوء وحسنَه في أيام الشتاء، أو الوضوءَ بالماء البارد وعدمَ تسخينه، فهو من إقامة دعيمةٍ أخرىٰ.

وقال بلالُ بن سعد بن تميم الأشعري: «إذا رأيتَ الرجلَ لَجُوجاً مُمارياً معجَباً برأيه فقد تمت خسارتُه» أخرجه أبو نُعيم في «الحلية»[2].

وقال سفيان الثوري: «لو خالفتُ أخي في رُمّانةٍ فقال: هي حلوةٌ، وقلتُ: حامضة، لسعىٰ بي إلىٰ السلطان»[3]. اهـ. وتباً لهذه الأخوّة ومَن يرضىٰ بها، وتسميتها بالأخوّة كَذِبٌ، بل تسميتها بالمُعاشرة أيضاً كذلك.

---

(١) أورده الديلمي في «فردوس الأخبار» (٣٣٠٣) بلفظ: «ست خصال من كن فيه كان مؤمناً: إسباغ الوضوء، ومبادرة الصلاة في يوم دجىٰ، وكثرة الصوم في شدة الحر، وقتل الأعداء بالسيف، والصبر علىٰ المصيبة، وترك المراء وإن كنت محقاً».

(٢) «الحلية» لأبي نُعيم الأصفهاني (٥: ٢٦٠).

(٣) أخرجه أبو نُعيم أيضاً في «الحلية» (٧: ٨)، ولكن: «لخشيتُ أن يشيط بدمي».

*** سانحة:**

والأخُ هو أنتَ إلا أنه غيرُكَ بالشخص، وإذا كنتم بهذه المثابة فمن أين يطرأُ عليكم التعاقُمُ والتشاجُرُ والمشاحَنة؟!، فيكونُ رأيُكَ رأيَه، ورأيُه رأيَكَ، ومرادُكَ مرادَه، ومرادُه مرادَك، فلا تنازُعَ أصلاً.

ومن ادّعىٰ وصولَ هذه الرتبة فله **علاماتٌ**:

أعظمُها: أن أخاه مهما احتاجه إلا ويجده متمثلاً بين يدَيه قبلَ أن يناديه، ومهما أرادَ أن ينادِيه بأمرٍ إلا ويجدُ الآخرَ مُصغِياً له يترقَّبُ ما يسمع منه كأنه عَلِمَه لتواطؤ قلبيهما، فكيف لو أمرتَهُ مِراراً بشيءٍ لخالفَكَ مِراراً بقدر ما أكّدتَ عليه من المأمورات؟! فهذا تلاعبٌ ليس عليه أثارةٌ من أثاراتِ الأخوّة في الله التي كان عليها ساداتُ الناس الصحابة الكرام، رضيَ الله عنهم وعنا بهم.

ومنها: اكتفاءُ أحدهما بالأكل عن الآخر.

ومنها: أن لا يَرىٰ أحدُهما جفاءً / ١٠/ من الآخر، وإن كان ولا بد فيقابِلُ بالعفو والصفح.

ومنها: أن يقعَ الإيثارُ بينهما في المأكل والمشرَب والملبَس، والغِطاء والوِطاء، والكلام والتصدّر في المجالس السَّنية، ونسبةِ الفضائل منهما لأحدهما.

ومنها: أن ينسىٰ أحدُهما بأحدِهما ضغطةَ الشدائد، وألَمَ النوائب، وطَفَحاتِ الدهر، بحيثُ جميعُ المِحَنِ يشاهدُها من المِنَن، والأتراحُ يراها أفراحاً بسبب قُربِ أحدِهما من الآخر.

هذا إذا كانا معذَّبَين، وأما إذا كانا منعَّمَين، أو كان أحدُهما يسعىٰ في صلاحِ الآخر ومرادِه، والآخرُ منه منقبضُ الأعطاف، ضَيّقُ الأكناف، كأنه بين فكَّيْ أسد يُمضَغ، فالفُرقةُ أولىٰ من صحبة دانٍ وناءٍ، ومقبِلٍ ومدبِر، وواصلٍ ومنفصِل.

ولـو كان للإنسان مُسكةٌ من العقل لعلمَ أن الكريمَ ربما أغضا وبين يديه نـار الغضا، ولعلم أن احتمالَ الكُلَف يُنيـل الزُلف، ولعلم أن التغطيـةَ بظل

جناح الأصدقاء والأصفياء ـ ولو مع البؤس ـ أعلىٰ من الجلوس علىٰ الأسِرّة لا معهم.

ولَعَلِمَ ما قيل: لأنْ يطرحكَ أهلُ الخير في المآخِير، خيرٌ من أن يصدِّرَكَ أهل المَواخير، جمعُ ماخور: أي: أهلُ الرِّيبة.

ولَعَلِمَ أن الطرحَ علىٰ الأعتاب، ومَمَرِّ النِعال، هو زُبدة الفهم لما فيه من لقائه الأصدقاء.

وآهٍ، آهٍ، آه... قد ارتفعت الأمانةُ اليومَ من الناس، فكدتَ أن لا تجدَ مَن لا يرىٰ جفوتك، ولا من يَسُدُّ خَلَّتَك، ولا من يواري عورتَك، ولا يُغضي عن زلّتِك، ولا مَن يسترُ ما أودعتَه، ولا من تبيعُه ولا يبيعُك، وتغضي عنه ولا يغضي عنك، وتنأىٰ منه ويدنو منك، اللهم أجِرْني في مصيبتي، واعقُبْني خيراً منها.

فتجدُ اليومَ: تأكلُ مع الخَلْق إردباتٍ من الطعام، ومع ذلك يبيعكَ بأدنىٰ ثمنٍ بَخْسٍ ويَزْهَدُ فيك، وليس هذا بغريب، ولكنهم في الأدب غرباء، لا يذوقون له ذواقاً، فأهل الدناءة هم أهل الشناءة.

ولا تجدُ إلا من يَنبُعُ لكَ منه أمورٌ لم تكن تتوقّعها، وتبدي لك حَرْبُه ناجِذَيْها، فالله المستعان علىٰ هذا الوقتِ وأهله.

وقال سفيان: «صافِ من شئتَ ثم أغضبه بالمِراء، فَلَيَرْمِيَنَّك بداهيةٍ تمنعُك العَيش». أخرجه أبو نعيم في «الحلية»، وصدق والله.

*** تنبيه:**

واعلم ـ أخي ـ أنكَ ربما تتحدَّث نفسُك: حَدُّ المِراءِ ما هو؟

فنقولُ: كل اعتراضٍ في كلامِ الغير بإظهارِ قالٍ فيه وركاكةٍ ونقص، إما في اللفظ المَسُوق، وإما في المعنىٰ المفهوم من ذلك اللفظ، وإما في قصدِ المتكلم فيقول: اللفظُ والمعنىٰ صحيحان، ولكنّ قصدَكَ غيرُ صحيح.

وتركُ المِراء بترك الإنكار والاعتراض، فكل كلامٍ سمعتَه فإن كان حقاً فصدِّق به، وإن كان باطلاً وكذباً ولم يكن متعلِّقاً بأمورِ الدين فأمسك لسانَكَ عنه، ولا تَخُضْ فيه.

والطعنُ في كلامِ الغير: تارةً يكون في لفظه، بإظهار خَلَلٍ فيه، من جهة النحو: بأن يكون التركيبُ مخالفاً لأقوال الفصحاء، أو من جهة اللغة: بأن يكون /١١/ اللفظ المَسُوقُ غيرَ مستعمل عند أهلها لا من جهة العربية، أو من جهة النظم والترتيب بسُوء تقديمٍ أو تأخير، وذلك تارةً يكون من قصور المعرفة، وتارةً يكون بطغيان اللسان، وتارة بطغيان القلم، وكيفما كان فلا وجهَ لإظهارِ خَلَلِه.

وأما في المعنىٰ: فبأن يقول: ليس كما تقول، وقد أخطأتَ فيه من وجه كذا و كذا.

وإما في قصده، فمثلَ أن يقول: هذا الكلامُ حقٌّ ولكن ليس في قصدك منه الحق، إنما أنتَ فيه صاحبُ غَرَض، وما يجري مجراه مع المتناظرين. وهذا الجنس إن جرىٰ في مسألةٍ علمية، ربما خُصَّ باسم الجدل، وهو أيضاً مذموم، بل الواجبُ السكوتُ، أو السؤالُ في معرض الاستفادةِ لا علىٰ صفة العناد والنكارة، أو التلطُّف في التعريض لا في معرض الطعن.

وأما المجادلة: فعبارةٌ عن قصد إفحام الغير، وإسكاته، وتعجيزه، وتنقيصه، بقدحٍ في كلامه ونسبته إلىٰ القصور والجهل فيه.

وآيةُ ذلك أن يكونَ تنبيهُه من جهةٍ أخرىٰ مكروهاً عندَ المجادل، بحيثُ يكون هو المُظهِرَ له خطأه ليبيّن به فضلَ نفسه ونقصَ صاحبه، ولا نجاةَ من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه.

وأما الباعث علىٰ هذا: فهو الترفع بإظهار العلم والفضل لنفسه، والتهجم علىٰ الغير بإظهار نقصه، وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها.

وصيـةٌ

[في ترك الخصومة]

ومن هذا المعنىٰ أيضاً: الخصومة، وهي مذمومة، وهو لَجاجٌ في الكلام يُستوجَبُ به مالٌ أو حقٌ مقصود، وذلك يكون تارةً ابتداء، وتارةً يكون اعتراضاً.

والمِراءُ لا يكون إلا باعتراضٍ علىٰ كلامٍ سبق، وقد قالت مولاتنا عائشةُ رضيَ الله عنها: قال: ـ مولانا ـ رسولُ الله ﷺ: «إن أبغضَ الرجالِ إلىٰ الله: الألدُّ الخَصِم». رواه البخاري ومسلم[1].

وقال سيدنا أبو هريرةَ: قال ـ مولانا ـ رسولُ الله ﷺ: «من جادلَ في خصومةٍ من غير علمٍ لم يزل في سخط الله حتىٰ ينزع». رواه الأصفهاني في «الترغيب والترهيب»[2].

وفي قوله: «من جادل في خصومةٍ من غير علم» إشارةٌ إلىٰ من كان له حقٌ علىٰ آخرَ ولا بدَّ له من الخصومة في طلبه منه أو في حفظِه عندَه مهما ظلمه ظالمٌ، فكيف يكون حكمُه ففعله ليس بحرامٍ شرعاً.

فالمظلومُ الذي ينصر حجّته بطريق الشرع من غير تَرَدٍ ولا إسرافٍ وغُلوٍّ وزيادةِ لَجاجٍ علىٰ قدر الحاجة، ومن غير قصد عنادٍ وإيذاءٍ ونكايةٍ لأخيه المسلم: ففعلُه ليس بمحظور، ولكن الأَولىٰ والأَليَقَ تركُه ما وجدَ إليه سبيلاً.

فإنّ ضبطَ اللسان في الخصومة من غير تفريطٍ ولا إفراطٍ متعذِّرٌ، والخصومةُ تُوغِرُ الصدر، وتهيّجُ الغضب، وإذا هاج الغضبُ غطّىٰ علىٰ عقله،

---

(١) البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٢) وكذلك أخرجه أبو داود (٢٥٩٧)، والحاكم (٢: ٢٧)، والبيهقي في «السنن الكبير» (٦: ٨٢).

ونُسي المتنازَعُ فيه، ويبقىٰ الحقدُ بين المتخاصمين حتىٰ يفرح كلُّ واحدٍ بمَساءة صاحبه، ويحزنَ بمسرّته، ويطلقَ اللسانَ في عرضه.

فمن بدأ بالخصومة فقد تعرّض لهذه المحذورات /١٢/، وأقلُّ ما فيه: تشويشُ خاطره، حتىٰ إنه في صلاته يشتغل بمُحاجّة خصمه، فلا يبقىٰ الأمرُ علىٰ حد الواجب.

فالخصومةُ مبدأ كل شر، وكذا المِراء والجدال، فينبغي أن لا يُفتَح بابه إلا لداعية، وعندها ينبغي أن يحفظَ اللسانَ والقلبَ عن مذمّات الخصومة، وذلك متعذِّرٌ جداً، فمن اقتصر علىٰ الواجب في خصومةٍ، فسَلِمَ من الإثم ولا يذمُّ خصومته، إلا أنه لما كان مستغنياً عنها صار تاركاً للأولىٰ، ولا يكون آثماً لاقتصاره علىٰ الواجب.

نعم: أقلُّ ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال: طِيْبُ الكلام ولِينُه، وما وردَ فيه.

وصيـةٌ

[في تَرْك الغِيبة]

واعلموا ـ إخواني ـ أن الإنسانَ مركَّبٌ من جوهرين: لطيفٍ وكثيف.

أما اللطيفُ: فهو الجوهر الروحاني المتدفقُ من عالم الأمر.

وأما الكثيفُ: فهو الجوهر الجسداني المتكون من العناصر الأربع: الماء والنار، والهواء، والتراب.

ثم إن كل عنصرٍ يميل لوطنه الأصلي:

أما الروحُ فلا تميل إلا لمقتضياتِ عالَمِها من النورانيات، من الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقات، والذكر والتفكر، وتلاوة القرآن، والصلاة علىٰ النبي ﷺ.

وأما الجسد: فلا يميل إلا لمقتضيات عالمه من الظلمانيات من التثبط عن الله بالتكاسل عن أداء المأمورات من عدم الصلاة وعدم الصدقة، وعدم الأخلاق الحسنة، وعدم الوفاء بالعهد، وعدم الحياء، وعدم الشحناء، وغير هذا.

فلمّا تستولي الروحانيّة علىٰ السجية لا يفعل الإنسانُ إلا مقتضىٰ القرُبات التي تقربه من مولاه، وإذا استولت السجيةُ علىٰ الروحانية انخرطَ الإنسان في سِلْكِ الغير الهادِين، فظهرت منه المخالفات.

واعلموا ـ إخواني ـ أن كل من له همةٌ عاليةٌ فلا يرضىٰ بأن يكونَ من المُبعَدِين، وإنما يرضىٰ أن يكون من المقرَّبين، وإن أردتم ذلك فاسمعوا لما يُتلىٰ عليكم:

احفظوا ـ إخواني ـ جوارِحَكم من كفِّ لسانٍ عن الغِيبة والنميمة وشهادة الزور، والبهتان والكذب وقول الفحش، والغِلْظة والفَظاظة، و[حافظوا علىٰ] أضدادها من الغضِّ عن مساوىء الناس، والإصلاح بينهم، وشهادة الحق، وعدم البهتان، والصدق، والأخلاق الحسنة من حيثُ عدمُ الانتصار للنفس، وعدمُ الذّبِّ عنها، وكثرة الذكر وتلاوة القرآن، والثناء علىٰ الله، والصلاة علىٰ نبيه ﷺ.

وكفِّ السمع عن سماع ما لا يَحِلُّ له، كسماع المغنِّيات، وسماعِ صوت /١٣/ النساء غير المتجالآت[1]، وسماعِ الخوض في الباطل، وسماع شتم أهل الله، وإذايتهم، والإقرار علىٰ ذلك، ممّا هو آيلٌ لكل شرٍ ديني ودنيوي، في النفس والأهل والأموال، قال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

---

(١) تجالّ: تعاظم. «قاموس». فلعله عنىٰ: النساء غير الكبيرات، أي: الشابات.

فانظروا ـ إخواني ـ كيف تشرَّكَ المستمعُ إن رضيَ بذلك مع القائل لذلك الكلام، وفي الحديث: «المستمعُ أحدُ المغتابَين»، أي المستمع والمغتاب شريكان في الإثم، رواه الطبراني من حديث سيدنا عبد الله بن سيدنا عمر(١).

وقد رُوِيَ عن سيدنا أبي بكرٍ وسيدنا عمرَ رضيَ الله تعالىٰ عنهما أن أحدهما قال لصاحبه: إن فلاناً لنؤوم ـ أي كثيرُ النوم ـ ثم طلبا أدماً من مولانا رسول الله ﷺ ليأكلاه مع الخبز، فقال ﷺ: «قد ائتدمتما»، فقالا: ما نعلمه! فقال: «بلىٰ: ما أكلتما من لحم صاحبكما». رواه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق»، وأبو العباس الدُّغولي في «الأدب» من رواية عبد الرحمٰن بن أبي ليلى مرسَلاً.

فانظروا إخواني كيف جمعهما وكان القائلُ أحدَهما والآخرُ مستمعٌ.

وفي رواية: «أوليس قد ظللتم من اللحم شباعاً؟!»، قالوا: من أين؟ فوالله ما لنا باللحم عهدٌ منذ أيام، فقال: «من لحم صاحبكم الذي ذكرتم»، قالوا: يا نبيَّ الله إنما قلنا: والله إنه لضعيفٌ ما يعيننا علىٰ شيء. قال: «ذلك فلا تقولوا»، فرجع إليهم الرجلُ فأخبرهم بالذي قال، قال: فجاء سيدنا أبو بكر فقال: يا نبيَّ الله طأ علىٰ صِماخي واستغفر لي، ففعل، وجاء سيدنا عمر فقال: يا نبيَّ الله طأ علىٰ صماخي واستغفر لي الله(٢).

وهذا السياق دلَّ علىٰ أنهما ـ رضيَ الله عنهما ـ كانا مستمعين، وأن المتكلمَ بالكلام المذكور الذي أوجب هذا الزجرَ غيرُهما، بدليل قولهما: طأ علىٰ صماخي، فأشار به إلىٰ أنه كان مستمعاً.

---

(١) قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١٤٣:٣): «أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر: نهىٰ رسول الله عن الغيبة وعن الاستماع إلىٰ الغيبة، وهو ضعيف».

(٢) رواه الإمام أبو بكر الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (٨٢) ـ وعزاه العراقي في تخريج الإحياء (١٤٣:٣) لأبي العباس الدُّغولي في كتاب «الأدب»، وله شاهدٌ مرسلٌ من مراسيل السعدي، أخرجه أبو الشيخ في «التوبيخ» (٢٤٨).

وأخرج عبدُ الرزاق في «المصنف»، والبخاريُّ في «الأدب المفرد»، وأبو يعلىٰ، وابن المنذر، والبيهقي في «الشُّعَب» بسند صحيح، ولفظُهم: أنَ ماعزاً لمّا رجمه [النبيُّ ﷺ عند الرابعة مرَّ به رسولُ الله ﷺ ومعه نفرٌ من أصحابه فقال رجلٌ منهم: إنّ هذا الخائنَ أتىٰ النبيَّ ﷺ مراراً كل ذلك يرده، ثم قُتِلَ كما يقتل الكلب، فسكت عنهم النبي ﷺ حتىٰ مرّ][1] بجيفة حمار، فقال: «أين فلان وفلان، فكُلا من جيفة هذا الحمار» فقالا: وهل يُؤكَل هذا!!، قال: «فأكلتما من أخيكما آنفاً أشدُّ أكلاً منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»[2].

فانظروا إخواني أيضاً كيف جمع مولانا رسول الله ﷺ بينهما، مع أن القائلَ واحدٌ.

وروىٰ ابنُ أبي الدنيا عن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان أنه قال لمولىً له: «نزِّهْ سمعَكَ عن استماع الخَنا، كما تنزه لسانك /١٤/ عن القول به، فإن المستمعَ شريكُ القائل»[3]، فالمستمعُ لا يخرج من إثم الغِيبة إلا بأن ينكرَ علىٰ المغتاب بلسانه إن قدر، أو بأن تتجلىٰ عليه فيصمتَ قهراً عليه، كما هو عادةُ أهل الله.

فإن خاف الضررَ علىٰ نفسه فبقلبه، وإن قدر علىٰ القيام من ذلك المجلس أو قطع الكلامَ بكلامٍ آخرَ فلم يفعله لزمه الإثمُ، وإن قال بلسانه: اسكت، وهو مُشتَهٍ لذلك بقلبه؛ فذلك نفاقٌ لمخالفةِ قلبِه لسانَه، ولا يُخرجه عن الإثم ما لم يكرهه بقلبه مصمِّماً عليه.

---

(١) أضفتُ هذه الفقرةَ من «الأدب المفرد» ص١٤٨، محلَّ بترٍ في المخطوطة.

(٢) رواه أبو داود (٤٤٢٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (ص١٤٨).

(٣) رواه الإمام أحمد (٢: ٤٤٠)، والبزار (١٩٠٢)، وابن حبان (٥٧٦٤)، والحاكم (٤: ١٦٦).

[حقيقة الغيبة وتعريفها]

واعلموا ـ إخواني ـ أن النفسَ ربما تشتاق لحقيقة الغيبة ما هي؟ فنقول:

هي ذكرُ العَيب بظهر الغَيب، سواءٌ ذكرتَ مما يكرهُهُ نقصاً في بدنه، كالعَمَش، والحَوَل، والقرع، والقِصَر، والطول، والسواد، والصفرة، وغيرها، أو نَسبِهِ، أو في خُلُقه: ككونه سيءَ الخُلُق، [كقوله:] بخيلٌ، متكبِّرٌ، مراءٍ، شديدُ الغضب، جبانٌ، عاجزٌ، ضعيفُ القلب، متهورٌ.

أو في فعله: من حيثُ المدمنُ كقولنا: هو سارقٌ أو كذّاب، أو شارب خمر، أو خائن، أو ظالم، أو متهاونٌ بالصلاة أو الزكاة، أو لا يُحسِنُ الركوعَ أو السجود، أو ليس باراً بوالديه، أو لا يضع الزكاةَ موضعها، أو لا يُحسن قسمتَها، أو لا يحرس صومَه عن الرَّفَث والغِيبة والتعرُّضِ لأعراض الناس.

أو قولِه المتعلِّقِ بالدنيا، كقولنا: إنه قليلُ الأدب، متهاونٌ بالناس، أو لا يرىٰ لأحدٍ علىٰ نفسِه حقاً، أو يرىٰ لنفسه الحقَّ علىٰ الناس، أو أنه كثيرُ الكلام، كثيرُ الأكل، نؤومٌ، ويَنامُ في غير وقته، ويجلس في غير موضعه.

أو ثوبه: ككونه واسعَ الكم، طويلَ الذيل، وَسِخَ الثياب.

وقال قومٌ: لا غِيبةَ في الدين، ولو كان المغتابُ يكره ذلك، لأنه ذمُّ ما ذمه الله، فذكرُه بالمعاصي وذمّه بما يجوزُ زَجْرٌ له، بدليل ما رُوِيَ أنه ذُكر لمولانا رسول الله ﷺ امرأةٌ وكثرةُ صومها وصلاتها، لكنها تؤذي جيرانها، فقال: «هي في النار»[1]. رواه ابن حبان والحاكم. وذُكر له امرأةٌ أخرىٰ بأنها بخيلة فقال: «ما خَيْرها إذاً؟!». رواه الخرائطيّ في «مكارم الأخلاق»[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢: ٤٤٠)، والبزار (١٩٠٢)، وابن حبان (٥٧٦٤)، والحاكم (٤: ١٦٦).
(٢) رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» ص٥٩.

وما ذكروه فاسدٌ؛ لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلىٰ تعريف الأحكام الشرعية بالسؤال والبحث، ولم يكن غرضُهم التنقُّصَ ولا الهضمَ للجانب، بدليل أنه: لا يحتاج إليه في غير مجلس مولانا رسول الله ﷺ.

قلت: ولعل ما ذكره هؤلاء القومُ في المستفتي من غير تعيين، إنما هو سائلٌ عن دينه ليعرفَ حكمَ الله في النوازل في نفسه، أو عَلِمَ من جليسه أنه ذو شوكةٍ لا يقدر علىٰ مكافحته بالخطاب، وأراد نصيحتَه فاستفتىٰ بعضَ من مُكِّن في الأرض بأمرِ المنكر، فيتذاكرُ في حكمِ مَن قامت به تلك الأوصافُ ليجتنبها المرتكبُ /١٥/ لها، وهي سياسةٌ عظيمةٌ يرتكبها الناصحون فيُوهِمون غيرَهم أنهم لا يعرفون ذلك الحكم، ومرادُهم تعريفُ غيرهم بذلك.

وقد ارتاضَتْ نفوسُهم حتىٰ صارت تأمرُ بالجهل، مع أن الجليسَ ربما يفهم أن السائلَ قصَدَه، بل يكرهه، لكنها ليست بغيبةٍ من حيثُ إنها ذمُّ ما ذمه الله.

وأما في غير هذا: فالإجماعُ من الأمة علىٰ أن من ذكر غيرَه من ورائه بما يكرهه فهو مغتابٌ، لأنه داخلٌ فيما حدَّه النبيُّ ﷺ في الغِيبة من قوله: «ذِكْرُكَ أخاكَ بما يكره»[1]، فكلُّ ذلك - وإن كنتَ صادقاً فيه - فأنتَ به مغتابٌ عاصٍ لربك، آكلٌ للحم غيرك.

وأخرج ابنُ مردويه عن أم سلمةَ رضيَ الله عنها أنها سُئلت عن الغِيبة، فأخبرت أنها أصبحت يومَ الجمعة وغدا رسولُ الله إلىٰ الصلاة، وأتتها جارتان لها من نساء، فاغتابتا وضحكتا برجالٍ ونساء، فلم تبرحا علىٰ حديثهما من الغيبة حتىٰ أقبلَ النبيُّ صلىٰ الله عليه منصرِفاً من الصلاة، فلما سمعتا صوتَه سكتتا، فلما قام بباب البيت ألقىٰ طرفَ ردائه علىٰ أنفه ثم قال: «اخرجا فاستقيئا ثم تطهّرا بالماء»،

---

(١) أخرجه الإمام مسلم (٢٥٨٩)، وأبو داود (٤٨٧٤)، و الترمذي (١٩٣٤)، والدارقطني (٢:٢٩٩) من حديث أبي هريرة رضيَ الله عنه.

فخرجت أمُّ سلمة، فقاءت[١] لحماً كثيراً قواصِلَ[٢]، فلما رأت كثرةَ اللحم تذكرت أحدثَ لحمٍ أكلته فوجدته في أولىٰ جمعتين منتناً، فسألهما: «مما قاءت؟»، فأخبرته، فقال: «ذاك لحمُه طلبتِ تأكلينه، فلا تعودي أنتِ ولا صاحبتُك فيما تكلمتما فيه من الغِيبة»، وأخبرَتْها صاحبتُها أنها قاءت مثلَ الذي قاءت من اللحم.

وأخرج ابنُ جرير من حديث سيدنا معاذٍ بلفظ: كنا مع ـ مولانا ـ رسول الله ﷺ فذكر القومُ رجلاً فقالوا: ما يأكل إلا ما يُطعَم، ولا يرحل إلا ما رُحِل، وما أضعفه. فقال مولانا رسول الله: «اغتبتم أخاكم»، قالوا: يا رسولَ الله، وغِيبةٌ مما يحدُثُ فيه؟! فقال: «بحسبكم أن تحدِّثوا عن أخيكم بما فيه»[٣].

وقال سيدنا البَراء بن عازب رضيَ الله عنه: خطبنا ـ مولانا ـ رسولُ الله ﷺ حتىٰ أسمعَ العواتِقَ في بيوتها، فقال: «يا معشرَ من آمنَ بلسانه ولم يؤمن قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتِهم، فإن مَن تتبع عورةَ أخيه تتبع الله عورتَه، ومَن تتبع اللهُ عورتَه يفضحْهُ في جَوفِ بيته». رواه ابن أبي الدنيا[٤].

ففي الحديث الأولِ مصيبتان عظيمتان:

الأولىٰ: الغِيبة، وقد سمعتم وعيدَها، ويمكن التنزهُ عنها بالانكفاف عنها.

الثانية: ما ينشأ عن الغِيبة، وهو ما يتولَّدُ في القلب من أكل اللحم الخبيث المنتن، وهذا كان يمكن التنصُّل منه في زمنه ﷺ، فلم يكن يبقىٰ في قلبهم حتىٰ

---

(١) لعلها: فقاءتا، وبه يستقيم المعنىٰ. الناشر.

(٢) قصلَ الشيء يقصِلُه: قطعَه، فقواصلَ: قطعاً. اهـ من «القاموس».

(٣) أورده الطبراني في «الكبير» عن معاذ (٢٠:٣٩)، ولكن بلفظ: «إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه».

(٤) أخرجه أبو يعلىٰ (١٦٧٥)، والبيهقي (٦:٢٥٦)، وأبو نعيم (٣٥٦)، كلاهما في «دلائل النبوة»، قال الهيثمي في «المجمع» (٨:٥٣): «رجاله ثقات»، والمنذري في «الترغيب»: «إسناده حسن».

يتراكم علىٰ آخر، وأما نحن فيتزايد هذا علىٰ هذا، حتىٰ تمتلىءَ حواشينا من حيثُ هي بالروائح المنتنة، والملائكةُ لا تقدر علىٰ شمِّ الروائحِ الخبيثة؛ فتتباعد، وإذا بعدت بقيت الأعادي؛ وهم الشياطين. والأخيار ـ وهم الملائكة ـ لا شغلَ لهم إلا الذَّبُّ عن شجرة الإيمان فيبسطوا عليها فيوضاتِ الأمداد المحمدية إلىٰ أن تسكنَ وتثبت، ولمّا يتباعدون /١٦/ تبقىٰ الشياطين ـ وأهم شيءٍ عندَهم الإيمان ـ فيصيروا يُزحزِحُونها من محلها.

فاعملوا إخواني علىٰ صقلِ مرآة قلوبكم حتىٰ تعلموا الوقتَ الذي تهرب منكم الملائكة، فتيقّظوا إذ ذاك واعلموا أنكم أسارىٰ في يد العدو.

وفيه إخبارٌ آخر، و[هو] أن المعاصيَ لها روائح كريهةٌ منتنةٌ يدركها العارفون بالله، غيرَ أنها تقل وتقوىٰ بحسب المرتكَب، فتدور مع الحرام والكراهة والإباحة، لأن العارفَ أعمالُه كلُّها دائرةٌ بين الواجب والمندوب لا غير.

وهذا أخذٌ لطيفٌ من الحديث، فأنقروا[1] أنفسَكم منه بالتنزه عن المعاصي والمخالفات حتىٰ لا يقرُبَ منكم.

وأما باللسان: فنلعنه في الظاهر ونواليه في الباطن؟! هذا من أمارات النفاق، فكونوا من قومٍ يلعنون الشيطانَ ظاهراً و باطناً بمجانبته، أو بعدمِ لعنه ظاهراً، ولعنه باطناً بمخالفةِ ما به أمر، وامتثالِ ما عنه نهىٰ.

وفي الحديث الثاني خَطرانِ عظيمان:

الأول: أنه ﷺ نفىٰ عنهم دخولَ الإيمان لقلبهم، ولو دخلَ الإيمانُ لانبسطت مقتضياته من الأمان، فَتَنْبَجِسَ فيمن قام به إلىٰ أن لا يصير يصدر منه شيءٌ يؤذي المسلمين، فيؤمِّنوه علىٰ أنفسِهم وأموالهم.

---

(١) أي: كُفُّوا. كما في «القاموس».

ومن نفىٰ عنه سيدُنا ﷺ الإيمانَ أفلا ننفيه عنه نحن أيضاً لمّا نراه يغتابُ المسلمين ويتتبع عوراتهم ؟!

ولا يُروِّعْكَ مني هذا، فمذهبُ السلف العلماء رضيَ الله عنهم أن أحاديثَ الزجر والإقماع تبقىٰ علىٰ بكارتها من سَوْرة التهديد، فلا تؤوَّل، لتكون أدخلَ في بساط الانزجار والانكفاف، ويكون الانكفافُ عن الرتوع في بساط المناهي أقربَ للحصول، بخلاف إذا أُوِّلت، فتنتفي سَورةُ التهديد الهائلة.

ومنه أحاديث: «ليس منا من لم يوقِّر كبيرَنا.. إلخ»[1]، وحديث: «ليس منا مَن لم يتعاظم بالعلم»، وغيرها، ونعمَ المذهب، فهو أقربُ للسياسات الإلٰهية، ومَن كانت له ممارسةٌ بأحوال السَلَف أيقنَ هذا، وأنهم ينتحلون البُسُط القريبةَ من المشي علىٰ المنهج الإلٰهي، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراطٍ مستقيم.

الثاني: أن عاقبةَ أمر مَن يغتابُ المسلمين: أن يفضحَه الله في جوف بيته.

فاحفظوا ـ إخواني ـ ألسنتكم فيما لا يعني، حتىٰ لا تتعرضوا لهذا الخطر العظيم، اللهمّ احفظ، اللهمّ احفظ، اللهمّ احفظ.

ومُثُلُه ﷺ كلها مقصودة، فقد رأينا من يتتبع عوراتِ الناس فَضَحَهُ الله في رحله، نسأل الله السلامة والعافية ببركته ﷺ.

وقال سيدنا أنسُ بن مالك رضيَ الله عنه كما في «مسند الإمام أحمد»: خَطَبنا رسول الله ﷺ فذكر الربا وعَظّم شأنه، فقال: «إنّ الدرهمَ يصيبه الرجلُ من الربا، أعظمُ عندَ الله في الخَطِيِّة من ستٍ وثلاثين زنيةً يزنيها الرجل، وأربا الربا: عِرضُ الرجل المسلم»[2] أي الاستطالة فيه بأن يتناولَ منه أكثرَ مما يستحقه.

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٨١٢).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٤)، وابن عدي في «الكامل» (٤:١٥٤٨)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢:٢٤٥).

فصارت الغِيبةُ أعظمَ وأفظعَ من ستٍ وثلاثين زنية، التي هي أيضاً أعظم من درهمٍ من الربا، والغِيبة أعظمُ من الكل.

وقال سيدُنا أنس /١٧/ : أمر ـ مولانا ـ رسولُ الله ﷺ الناسَ بصوم يوم، وقال: «لا يفطرنَّ أحدٌ حتى آذن له»، فصام الناسُ حتىٰ إذا أمسوا جعلَ الرجلُ يجيء فيقول: يا رسولَ الله ظللتُ صائماً فَأْذن لي لأفطر، فيأذن له، والرجلُ والرجلُ، حتىٰ جاء رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، فتاتان من أهلِكَ ظلّتا صائمتين وإنهما يَسْتحْيِيان أن يأتياك فأذن لهما فلتفطرا، فأعرضَ عنه، وعاوده، فقال: «إنهما لم يصوما، وكيف صام من ظلَّ هذا اليومَ يأكلُ لحومَ الناس؟ اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا». فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا، فقاءت كل واحدةٍ منهما عَلَقةً من دم، فرجع إلىٰ النبي ﷺ فأخبره، فقال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار». أخرجه ابن أبي الدنيا عن علي بن الجَعْد[١].

وأوحىٰ الله إلىٰ سيدنا موسىٰ عليه السلام: «يا موسىٰ، مَن مات تائباً من الغيبة فهو آخرُ من يدخل الجنة، ومن ماتَ مصرّاً عليها فهو أولُ من يدخل النار».

وقال سيدُنا أنس: قال ـ مولانا ـ رسولُ الله ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسرِيَ بي علىٰ قومٍ يَخمِشُون ـ أي: يقطعون ـ وجوهَهم بأظافيرهم، فقلتُ: يا جبريلُ مَن هؤلاء؟» قال: هؤلاء الذين يغتابون الناسَ ويقعون في أعراضهم. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت»، ورواه أبو داود مسنَداً أو مرسَلاً، والمسند أصح[٢].

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢١٠٧)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢١)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤ :١٩٠): «إسناده ضعيف، ومتن غريب»، وساق له شواهد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣ :٢٢٤) وأبو داود (٤٨٧٨)، وكذا ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١١٩).

وقال قتادة: ذُكر لنا أن عذابَ القبر ثلاثةُ أثلاث: ثلثٌ من الغيبة، وثلثٌ من البول، وثلث من النميمة[١].

وروىٰ ابن أبي الدنيا عن عيسىٰ بن عبد الله التميمي قال: بلغني عن عتّاب ابن بشير، عن خُصاف وخصيف وعبد الكريم بن مالك، قالوا: أدركنا السلفَ وهم لا يرَون العِبادة، في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكفِّ عن أعراض الناس[٢].

وقال سيدنا ابنُ عباس: «إذا أردتَ أن تذكرَ عيوبَ صاحبك فاذكر عيوبك»[٣].

وقال سيدنا أبو هريرةَ رضيَ الله تعالىٰ عنه: «يبصر أحدكم القَذىٰ في عين أخيه ولا يبصر الجَذْعَ في عينه»[٤].

وكان الحسن البصري يقول: «ابنَ آدم، إنكَ لن تصيبَ حقيقةَ الإيمان حتىٰ لا تعيبَ الناسَ بعيبٍ هو فيك، وحتىٰ تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحَه من نفسك، فإذا فعلتَ ذلك كان شغلُك في خاصة نفسك، وأحبُّ العبادِ إلىٰ الله من كان هكذا». رواه ابن أبي الدنيا عن نصر بن طرخان: حدّثنا عمران بن خالد الخزاعي[٥].

وقال سيدُنا عمرُ رضيَ الله عنه: «عليكم بذكر الله، فإنه شفاءٌ، وإياكم وذكرَ الناس، فإنه داء»[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٩) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٨٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٢٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٣٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٧٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٢) وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٣٠)، بلفظ: «وينسىٰ الجِذْلَ في عينه»، وغيرهم بسند صحيح.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٣١).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٢٢)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٣٣).

وعن مولاتنا عائشةَ وسيدِنا ابنِ عباس رضيَ الله عنهما قالا: «الحَدَث حدثان: حَدَثٌ من فيك، وحَدَثٌ من نومك، وحَدَثُ الفمِ أشدّ: الكذبُ والغِيبة».

وعن ابن عباس رضيَ الله عنهما: أن رجلين صليا صلاةَ الظهر والعصر، وكانا صائمين، فلما قضىٰ النبيُّ ﷺ الصلاةَ قال: «أعيدوا وضوءكما وصلاتكما، وامضيا في صومكما واقضيا يوماً آخر مكانه»، قالا: لم يا رسول الله؟! قال: قد اغتبتما فلاناً». أخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق»[1].

ففي هذا الحديث الكريم أنّ الغِيبةَ تُبطل الوضوءَ والصلاةَ والصوم، وقد أمرهما بقضاء ذلك اليوم.

وقال عَبِيدة /١٨/ السلماني: «اتقوا المفَطِّرين: الغِيبة والنميمة والكذب». رواه ابن أبي الدنيا[2].

وعن عكرمةَ رفعه: أنه ﷺ لحق قوماً فقال لهم: «تخللوا»، فقال القوم: يا نبيَّ الله، واللهِ ما طعمنا اليومَ طعاماً!، فقال: «والله إني لأرىٰ لحمَ فلانٍ بين ثناياكم»، وكانوا قد اغتابوه. رواه عبد بن حميد.

وعن سيدنا جابر قال: كنا مع ـ مولانا ـ رسول الله ﷺ فارتفعت لنا ريحٌ منتنة، فقال: «أتدرون ما هذه الريح؟! هذه ريحُ الذين يغتابون الناس». أخرجه الإمام أحمد، وابن أبي الدنيا في «الصمت»[3].

---

(١) أخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (٩٠) بلفظ: «أعيدوا وضوءكما» أو قال: صلاتكما».

(٢) ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٥) بلفظ: «اتقوا المفطرَيْن: الغيبة والنميمة» كما في النسخة المطبوعة.

(٣) رواه الإمام أحمد (٣: ٣٥١) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٣٢)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٣٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨: ٩١): «رواته ثقات».

ففي هذا النص تصريحٌ بأن المعاصيَ لها روائحُ منتنة، ولا يدركها إلا أهلُ الله رضيَ الله عنهم، أرباب البصائر المنوّرة، وأما أربابُ الحُجُب الظلمانية فهم بمَعزلٍ عن هذا المَنحىٰ، والله المستعان.

والشيءُ بالشيء يُذكر، وكما يُتَطيَّب بالمسك يُتَطيَّب بالعنبر: كذلك استعمالُ القربات من نوافل الخيرات، يُكسِبُ صاحبَه لواجح المِسْكِ الأذفر، فتظهرُ عليه ويشمُّها الكُمَّل أيضاً، ويُرشِّحُ هذا قولُه في الحديث: «إذا زار الرجلُ أخاه في طرف القرية ناداه منادٍ من السماء أن: طِبْتَ وطاب ممشاك، وتبوّأتَ من الجنة منزلاً»[1].

فقف علىٰ قوله: «وطاب ممشاك»، فإن المفتوحَ عليه يُدرِكُ الفرقَ بين طِيب زيارة الإخوان، وطِيب المفروضات، وطِيب السنن، وطِيب المندوبات، والطِيبِ المستعمل، ويُدرك طِيب زيارة الإخوان بأثر المسير، فيجدُ وطأةَ قدميه لها روائحُ سماويةٌ يعلم أنها من ذلك العمل الخاص، وإذا أدركَ طِيبَ هذا المستحب مثلاً فهو ذريعةٌ لإدراك مراتبِ بقيةِ الأحكام.

وصاحبُ هذا المقام يخبر بأن هذا الطريقَ مَرَّ عليها زائرُ الإخوان بما أدركَ من أثر وطأته.

وهذا يدركه أهلُ الكشف، فلا يُدافَع بقول جدلي: ليس معنىٰ الحديث ذاك، لأنا نقول له: مَن رام حصرَ معاني كلامه ﷺ فقد كدَّ في غير طائل، ودونكَ ما أُقمتَ فيه، والسلام.

وعن عمرو بن العاص رضيَ الله عنه أنه مر علىٰ بغلٍ ميتٍ وهو في نفر من أصحابه، فقال: «والله لأنْ يأكلَ أحدُكم من هذا حتىٰ يملأ بطنه خيرٌ له من

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٨)، وابن ماجه (١٤٤٣)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «من عاد...».

أن يأكلَ لحمَ رجلٍ مسلم». أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» وابن أبي شيبة[١].

وعن سيدنا أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «الربا سبعون حُوْباً، أيسرها كنكاح الرجلِ أمَّه، وأربىٰ الربا عرضُ الرجل المسلم». رواه ابن ماجه[٢].

وعن وَهْب بن منبِّه أن ذا القرنين قال لبعض الأمم: «ما بالُ كلمتكم واحدة، وطريقتكم مستقيمة؟!»، قالوا: «إننا لا نتخادع ولا يَغتابُ بعضنا بعضاً». رواه ابن أبي الدنيا[٣].

وعن شُفَيّ بن ماتع الأصبحي أن النبيَّ ﷺ قال: «أربعةٌ يؤذون أهلَ النار ـ علىٰ ما بهم من الأذىٰ ـ يسعَون بين الحميم والجحيم، يدعون بالوَيل والثبور، يقول بعضُ أهلِ النار لبعض: ما بالُ هؤلاء قد آذونا علىٰ ما بنا من الأذىٰ؟ قال: فرجلٌ معلَّقٌ عليه تابوتٌ من جمر، ورجلٌ يجُرُّ أمعاءه، ورجلٌ يسيل فُوهُ قَيحاً ودماً، ورجلٌ يأكل لحمَه /١٩/ ، فيقال للذي يأكل لحمه: ما بالُ الأبعدِ قد آذانا علىٰ ما بنا من الأذىٰ؟ فيُقال: إن الأبعدَ كان يأكل لحومَ الناس بالغِيبة، ويمشي بالنميمة». رواه ابن أبي الدنيا[٤].

وقال بكرُ بن عبد الله المُزَني: «إذا رأيتم الرجلَ مُوكَلاً بعيوب الناس، ناسٍ لعيبه، فاعلموا أنه قد مُكرَ به». رواه ابن أبي الدنيا[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢١٦)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٧٧)، وأورد الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (٨٣) مرفوعاً بمعناه.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٢٧٤)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٣).

(٣) في كتاب «الصمت» (١٢٧).

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد ـ زوائد نُعيم» (٣٢٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٨)، والطبراني في «الكبير» (٧:٧٢٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥:١٦٧)، وغيرهم.

(٥) في كتاب «الصمت» (١٣٢).

اللهم يا حيُّ يا قيومُ برحمتكَ أستغيث، أصلحْ لي شأني كلَّه، ولا تكلْني إلىٰ نفسي طَرْفةَ عينٍ يا أرحمَ الراحِمين، يا أرحمَ الراحِمين، يا أرحمَ الراحِمين.

[الأخذ علىٰ يد المغتاب]

فتنزهوا إخواني عن هذه الرذيلة، وأبغِضُوا كلَّ مَن هذا وصفُه، فإن مِن شُعَبِ الإيمان: الحبُّ في الله والبغضُ في الله من الإيمان، وكل مَن رأيتموه مُوكَلاً بعيوب الناس، فاعلموا أنه ممقوتٌ مبعَدٌ عن حضرةِ الله وحضرةِ رسوله، فازجروه علىٰ كل ذلك باللسان، واغضبوا لله، لا لحَظِّ نفس، ولا تكفي الإشارةُ باليد، أي: اسكت، أو يشير بحاجبَيه أو جبينه، أو طرفِ عينه، فإن ذلك استحقارٌ للمذكورِ بالغِيبة، بل ينبغي أن يعظِّمَه فيذُبَّ عنه صريحاً.

قال مولانا رسولُ الله ﷺ: «من أُذِلَّ عندَه مؤمنٌ وهو يقدر علىٰ أن ينصرَه فلم ينصُرْه أذلَّه الله يومَ القيامة علىٰ رؤوس الخلائق». رواه الإمام أحمد والطبراني[١].

وروىٰ ابن أبي الدنيا عن أبي خَيثمة: حدثنا جرير: عن ليث: عن شَهْر بن حَوْشَب: عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «من رَدَّ عن عِرْضِ أخيه بالغَيبِ كان حقاً علىٰ الله عز وجل أن يرُدَّ عن عرضِه يومَ القيامة»[٢]، وفي لفظِ للترمذي والطبراني: «كان له حجاباً من النار»[٣]، وفي لفظ لعبد بن حُمَيد وابن زَنْجَوَيهِ والرُّوْياني وابن السُّنّي في «[عمل] اليوم والليلة» أيضاً.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣:٤٨٧)، و الطبراني في «الكبير» (٥٥٥٤)، قال الهيثمي في «المجمع» (٧:٥٢٦): «وفيه ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦:٤٤٩)، والترمذي (١٩٣١) وحسنه، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٤٧) بلفظ: «كان حقاً علىٰ الله أن يعتقه من النار».

(٣) رواه البيهقي في «السُّنن الكبير» (١٦٤٤٦).

ورویٰ الطبراني والخرائطي: «كان حقاً علىٰ الله أن يردَّ عنه نارَ جهنم يومَ القيامة»[١].

وفي حديث سيدنا أنس: «من حمىٰ عرضَ أخيه في الدنيا بعثَ الله إليه مَلَكاً يومَ القيامة يحميه من النار»[٢].

وفي حديث سيدنا جابر، وأبي طلحةَ: «ما من امرىءٍ يخذل امرءاً مسلماً في موطنٍ تُنتهَكُ فيه حرمتُه ويُنتقَصُ فيه من عرضِه إلا خذله الله في موطن تجبُ فيه نصرتُه، وما من امرىءٍ ينصر امرءاً مسلماً في موطنٍ يُنتقَصَ فيه من عرضه وتُنتهَكُ فيه حرمته إلا نصرَه الله في موطنٍ تجبُ فيه نصرتُه»[٣].

وفي حديث سيدنا أنس: «إذا وُقعَ في رجلٍ وأنتَ في ملإٍ فكن للرجل ناصراً، وللقوم زاجراً، أو قم عنهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]».

وفي حديث سيدنا أنس أيضاً: «من اغتِيبَ عندَه أخوه المسلمُ فلم ينصره وهو يستطيع نصرَه أدركَه الله في الدنيا والآخرة»[٤].

وقال سيدنا عمرُ رضيَ الله عنه: «ما يمنعكم إذا رأيتم السفيهَ يخرق أعراضَ الناس لا تُغِيروا عليه؟!»، قالوا: نخافُ لسانَه، قال: «ذلك أدنىٰ أن لا تكونوا شهداء»[٥]، أي علىٰ ما قال من السُّوء.

---

(١) رواه الإمام أحمد (١١٣١١)، والطبراني في «الكبير» (٢٤:٤٤٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨:١٧٩) عن إسناد الإمام أحمد: «حَسَن».

(٢) رواه أبو داود (٤٨٨٣)، والإمام أحمد (٣:٤٤١)، وغيرهما.

(٣) رواه الإمام أحمد (٤:٣٠)، وأبو داود (٤٨٨٤)، والبيهقي (٨:١٦٧)، قال الهيثمي في «المجمع»: «وإسناده حسن».

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١١:١٧٨)، وذكره المنذري في «الترغيب» (٣:٣٠٣).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥:٢٣٠).

وإذا كان هذا في انتهاك حُرمة المسلمين، فكيف بانتهاك حُرمة الله وشعائره، والتخلُّقِ بأخلاق الجاهلية والعوام باتخاذكم النُزهة، وحِلْيَتِكم فيها بحِلْيةِ أهل الجهل الذين لم يراقبوا اللهَ ولا يخافوه، حتىٰ /٢٠/ أوقعتم الناسَ في المحظوراتِ من تطرق ألسنتهم فيكم، وفي الحقيقة أوقعتموهم فينا.

فما هذا الهذيان، وما هذا الاتباعُ للهوىٰ، وما هذا الانهماكُ في شهواتِ النفس، وتتبّع حظوظِها، وما هذا النقضُ الذي وقع منكم لعهدِنا حتىٰ فعلتم هذا الأمرَ البشيع، ولم ينهكم المقدَّمون؟!

وفي القرآن في ذكر أوصافِ عُذِّبَ بها بنو إسرائيل: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: ٧٩] ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨﴾ [المائدة: ٧٨] إلخ. وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾ [الجن: ١٦-١٧].

ومثلُ هذه الأمور ما ثَمَّ مَن يستحي منها أو يخافُ عقباها أو يزجره زاجرٌ عنها، عدا النسبةِ الطاهرةِ وما فيها من السنن المحمدية والآثار النبوية، فإنها محلُّ الإنكار، ومن أُنكِرَ عليه يضعُفُ ويتأخر عن محبته.

وكان مقتضىٰ القاعدةِ العكسُ، إذا أنكر عليه أحدٌ في طريقته يقول: هذا اختبارٌ اختبرني ربي لأني ادعيت محبتَهُ هل أثبتُ أم لا.

وأما في السنة المحمدية: فإذا لم ينكر عليكَ منكِرٌ في فعل البِدَع، وأنكرَ عليك في فعل السنن المحمدية فاتركه واعلم أنه صاحبُ رُعُوناتٍ نفسية، وشهواتٍ طبيعية، وإذا كان مرادُه اللهَ فهلا أنكرَ عليكَ في فعل ما لا ينبغي وأعانكَ في فعل السنن المحمدية التي فعلها مَن هو خيرٌ من كل أحد ﷺ وعلىٰ آله تصديقاً لقول رب الأرباب: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[المائدة: ٢] ؟!

ولكن أوحىٰ الله إلىٰ سيدنا داود عليه السلام: «يا داود، اتخذ لنفسك إخواناً، وكل أخٍ لا يوافقكَ علىٰ طاعتي فاتركه، فهو لك عدوٌّ، وكل من يمنعك من فعل السنن ويُقرِّبُك علىٰ الكبائر فاعلم أنه ليس بناصح»، وإذا لم يَسْعَ في صلاح نفسه بأن يمشيَ بها علىٰ النهج القويم؛ فغيرُه أولىٰ وأولىٰ وأولىٰ، لأن الإنسانَ لا أعزَّ عليه من نفسه، ومع ذلك يتركُها توصلُه لبساط التهلكة، أفلا يُوصِلُ غيرَه لتلك الرتبة التي هو فيها من السُوء؟! بلىٰ، وإنا لله علىٰ سوء الأدب، المؤدي إلىٰ موارد العطب.

وفي الحديث الشريف: «إنّ الرجلَ ليتكلَّم بالكلمة من سخط الله فيكتب الله سخطَه عليه بها إلىٰ يوم القيامة». رواه ابن ماجه والترمذي[1].

وفي الحديث الشريف: «أكثرُ الناسِ خطايا يوم القيامة أكثرُهم خوضاً في الباطل». رواه ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلاً[2]. وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ [المدثر: ٤٥].

وقال محمد بن سِيرين رحمه الله تعالىٰ: «كان رجلٌ من الأنصار يمر بمجلسٍ لهم فيقول: توضؤوا فإنّ بعضَ ما تقولون شرٌّ من الحَدَث»، أخرجه ابن أبي الدنيا عن الحسن بن الصباح»[3]. سيما إن كان ذلك محضَ الكذب، وهو من قباح الذنوب، وفواحش العيوب.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/٩٨٥/٥) وأحمد في «المسند» (٣:٤٦٩)، وفي «الزهد» (١٥)، والترمذي (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩) والحميدي (٩١١) والبخاري في «التاريخ الصغير» (١:٩٤) وغيرهم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٦٠)، والطبراني في «الكبير» (٩:٨٥٤٧)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٨٠)، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٣:١١٢): «سنده صحيح».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٩١).

وفي الحديث: «إن الكذبَ بابٌ من أبواب النفاق»، رواه ابن عدي في «الكامل»[١].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «كان يُقال: إن من النفاق اختلافَ السر والعلانية، واختلافَ القول والعمل، واختلافَ المدخل والمخرج، وإن الأصلَ الذي بُني عليه النفاق: الكذبُ»[٢].

وروىٰ أبو الشيخ في «طبقات الأصبهانيين» من حديث سيدنا أبي هريرةَ رضيَ الله عنه: «الكذبُ ينقص الرزق»[٣].

فانظروا عِظَمَ هذه المصيبة كيف تتسبب لنا في نقص رزقنا، إما حساً أو معنىٰ، حساً بأن لا يأتي، فيتعب عليه صاحبُه ولا يصلُه، ومعنىً: بأن تُدفعَ البركة منه فيذهبَ كأنه لم يكن وإن كثر.

وفي الحديث: «ثلاثة نفرٍ لا يكلِّمهم الله يومَ القيامة ولا ينظر إليهم: المَنّان بعَطِية، والمنفق سلعتَه بالحَلِفِ الفاجر، والمُسبِل إزارَه»[٤]، رواه أحمد وأبو داود.

وفي الحديث: «ما حَلَفَ حالفٌ بالله فأدخل فيها مثلَ جناح بعوضةٍ إلا كانت نكتةً في قلبه إلىٰ يوم القيامة»، رواه الترمذي والحاكم من حديث سيدنا عبد الله بن أُنَيس[٥].

---

(١) رواه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (٥٦، ٥٨) عن أبي أمامة مرفوعاً، وعزاه الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٣: ١٣٠) لابن عدي في «الكامل».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت» (٢٤٠).

(٣) عزاه العراقي في «تخريج الإحياء» (٣: ١٣١) لأبي الشيخ في «طبقات الأصبهانيين»، وقال: إسناده ضعيف. قلت: ورواه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (٥٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٥: ١٤٨)، والدارمي (٢٦٠٨)، ومسلم (١٠٦)، والترمذي (١٢١١)، وأبو داود (٤٠٨٧)، والنسائي (٥: ٨١) وابن ماجه (٢٢٠٨).

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٣: ٤٩٥)، والترمذي (٣٢٠٩)، والحاكم (٤: ٢٩٦)، وابن حبان (٥٥٣٧)، والخرائطي في «مساوىء الأعمال» ص٦٠.

وقال سيدنا أبو ذرٍّ رضيَ الله عنه: «ثلاثةٌ يحبهم الله: رجلٌ كان في فئةٍ فنصب نحره - أي رقبته - للعدو حتىٰ يُقتل أو يفتح الله عليه أو علىٰ صاحبه، ورجلٌ كان له جارُ سُوء يؤذيه فصبر علىٰ أذاه حتىٰ يفرق بينهما موتٌ لأحدهما أو ظَعْنٌ - أي رحلة -، ورجلٌ كان معه قومٌ في سفر أو سريةٍ فأطالوا السُّرىٰ حتىٰ أعجبهم أن يَمَسُّوا الأرض - أي من غلبة النوم - فنزلوا فتنحىٰ يصلي حتىٰ يُوقِظَ أصحابه للرحيل، وثلاثةٌ من الناس يشنؤهم الله - أي يبغضهم - التاجر - أو البيّاع - الحلّاف، والفقير المختال - أي المتكبر - والبخيل المنان»، رواه أحمد واللفظ له[١].

وروىٰ البخاري من حديث سَمُرة بن جندبٍ في حديثٍ طويل عن المصطفىٰ صلىٰ الله عليه أنه قال: «رأيت كأن رجلاً جاءني فقال لي: قم، فقمتُ معه وإذا أنا برجلين أحدُهما قائمٌ، والآخرُ جالسٌ، بيد القائم كَلُّوبٌ من حديد يُلقمه في شِدْقِ الجالس فيجذبه حتىٰ يبلغ كاهِلَه رأسَ الكتف، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده، فإذا مده رجع الآخر كما كان، فقلت للذي أقامني، ما هذا؟ قال: هذا رجلٌ كذّابٌ يعذَّب في قبره إلىٰ يوم القيامة»[٢].

وفي الحديث عن ابن عمرَ: «إن العبدَ ليكذب الكذبةَ فيتباعد المَلَكُ عنه مسيرةَ ميل من نَتَنِ ما جاء به». رواه الترمذي[٣].

وفيه تصريحٌ أيضاً بأن للمعاصي روائحَ، ولما أخبر به المترجِمُ عن الله فلا يسعنا إلا الإيمان، سيما من زاد الإيقان علىٰ الإيمان بأن شمه وأدركه، فلا تبقىٰ عنده مريةٌ في ذلك.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥:١٥١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥:٨-٩)، والبخاري (١٣٨٦).

(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٠٧٦)، والترمذي (١٩٧٢)، والطبراني في «الصغير» (٢:٣٠). قال الترمذي: «حديثٌ حسنٌ جيدٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه، تفرد به عبد الرحيم بن هارون».

ويا عجباً للإنسان لا يُدرِك المراتب السَّنِيّة، ولا يسلِّمُ لأهلها، فيجمع علىٰ نفسه نقيضتين.

وإنما لم يدركها كل أحدٍ لاعتيادهم ذلك حتىٰ دُبغ أديمُهم بها، فلم تبقَ أنفسهم تشمئز منها، كالجُعل؛ فإنه يحيىٰ برائحة رَوث الدواب، وفي تلك الحياة الموت لو درىٰ.

وكما أخبر المبيِّن عن الله أن الموتَ يأتي في صورة كبشٍ أقرن فيذبح.. إلخ[1]، مع أن الموتَ معنىً من المعاني، فربما تكون المعاني تتجسَّدُ كما ظهر العلمُ في صورة اللبن، والإيمانُ في صورة قميص[2]، وغير هذا كما في الأحاديث، ومعلومٌ في القرآن الفرقُ بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين فافهم /٢٢/.

فتنزّهوا إخواني عن مثل هذه الأمور، وتفقّدوها في أنفسكم وأهليكم وأقاربكم، ومن تلزمُكم نفقتُهم، وكل مَن لا يوافقك علىٰ هذا فاتركه فهو لك عدوٌّ.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) فصل المؤلف ـ رضي الله عنه ـ في هذا المَبْحَث، وهو أن المعاني تَتَجَسَّد في كتابه العظيم «ختم البخاري»، الذي ضمنه بضعاً وعشرين علماً مستنبطة من اسم رسول الله ﷺ (محمد)، باعتبار رُباعيته، وقد طبع بالحجر في فاس عام ١٣٢١.

[الخاتمة، في أمور جامعة]

وكذا تحفَّظوا من يدَيكم ورجلَيكم، أما يدكم: فبلمس ما لا يحل لكم من النساء الأجنبيات أو الأحداث، وأما رجلكم، فبالسعي إلىٰ ما لا يحل، كمحلٍ لا يُذكر فيه الله، وتُذكر فيه عوراتُ المسلمين أو حديثُ الدنيا أو مجلسُ الضحك.

وقد قال الفُضَيل: «رحمةُ الله مصروفةٌ عن ثلاث مجالس: مجلسُ ذكر الدنيا، ومجلسُ الضحك، ومجلسُ الغِيبة».

فانظروا ـ إخواني ـ لأنفسكم إذا ذهبت الرحمة ما يَبْقَ إلا العذاب، ونحن ضِعافٌ لا نقدر علىٰ شيءٍ من ذلك، وأيضاً هذا إذا كان واحدٌ من هذه الأمور، فإذا اجتمعت فلا حولَ ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكذا صونوا قلبَكم من الغِلِّ والحقد والحسد والبغضاء والشحناء، فإن القلبَ إذا صَلُحَ صلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدَ فسدَ الجسدُ كلُّه.

وكذا صُونوا فرجَكم عن الزنىٰ، فإنها من الطامات، وبطنكم من أكل الحرام.

واعلموا ـ إخواني ـ أنّ ما في الدنيا شيءٌ ينسينا عن حضرة القُدْس، كائناً من كان، لأن الملذوذاتِ الدنيويةَ سبعةٌ: المأكولات، والمشروبات، والمنكوحات، والملبوسات، والمشمومات، والمسموعات، والمبصَرات.

فأما المأكولات: فأفضلُها العسل، وهو ضَعَةُ ذباب.

وأما المشروبات: فأفضلُها الماء، وهو مباحٌ، أهونُ موجود، وأعزُّ مفقود.

وأما المنكوحات: فمَبالٌ في مَبال، وحسبك أن المرأةَ تزين أحسنَ شيءٍ فيها ويُراد أقبحُ شيءٍ فيها.

وأما الملبوسات: فأفضلها الديباج، وهو نسجُ دودة، ويؤول لتلاشٍ.

وأما المشمومات: فأفضلها المسك، وهو دم فأرة.

وأما المسموعات: فريحٌ هابّةٌ في الهواء.

وأما المبصرات: فخيالاتٌ سائرةٌ إلىٰ الفناء.

والعاقلُ لا يترك ما يبقىٰ، ويتشبّث بما هو أوهىٰ من بيت العنكبوت، وحلالُه حسابٌ، وحرامُه عقابٌ، وقد تتعب وتجمع المالَ ولستَ بآكلِه، ويأكله غيرٌ من جمعه.

فبقدر حزنكم ـ إخواني ـ علىٰ ما فاتكم من التقرب إلىٰ الله بأنواع الطاعات: علىٰ قدر زهدكم فيما أبعدكم عن ذلك المشتهىٰ، وعلىٰ قدر توغُّلِكم في حُطَم الدنيا وجمعها والكدِّ عليها، مع أن الحقَّ تكفَّل بها: علىٰ قدر تراخيكم عن الآخرة، لأن الدنيا والآخرةَ ضَرّتان كما قال سيدنا علي ـ بقدر ما ترضىٰ إحداهما تسخط الأخرىٰ.

وقد قال الفُضَيل: لو أنّ الدنيا عُرِضَت عليَّ حلالاً لا أحاسَبُ بها في الآخرة لكنت أتقذّرها كما يتقذّر أحدُكم الجيفةَ إذا مر بها أن تصيبَ ثوبه»[1].

وإن كان ـ إخواني ـ ولا بُدَّ فخذوا من الدنيا لأبدانكم لتتقوىٰ بذلك علىٰ طاعة الله، سيما إن أكلتم بهذه النية، فيكون الأكلُ واجباً في حقكم.

فاجتهدوا في أن تكونَ عاداتكم عباداتٍ ولا بدَّ، فمهما أردتم فعلَ عادةٍ من العاداتِ فجدِّدوا لها النيةَ /٢٣/ تصيرُ عندكم عبادةً وعندَ غيركم عادةً، ولا تكون هي المقصدَ الأسنىٰ عندكم فتضيع أعماركم.

وإياكم ومفارقةَ زواويكم، فدونكم وعمارتَها في الأوقاتِ التي تعاهدنا عليها، وإن لم تنقضوا ما أمرَكم به مولانا محمدٌ ﷺ فلا يقعُ لكم ضَيْمٌ ولا حَرَج، وكل من تعدّىٰ عليكم يُخذَلُ ويُمكَرُ به، وتكونُ عاقبةُ أمره خُسراً.

انتهىٰ

---

(١) «حلية الأولياء» (٨: ٨٩).

*** فائدة**[١]:

ينبغي للإنسان عند امتثاله الأوامرَ واجتنابه النواهيَ أن ينويَ أنه يمتثلُ أمرَ اللهِ وأمرَ رسولِه ﷺ، وكذلك جميع الصحابة وجميع العلماء الذين قالوا بذلك الحكم. وكذلك تصديقُ روحانيةِ الإمام الذي قلّده، وله في ذلك أجورٌ كثيرةٌ لا يُحاط بها، وأسرارٌ تعود عليه، وإمداداتٌ ربانيةٌ تسوقه إلىٰ حضرة الله تعالىٰ، فيستمد من جميع ذلك.

وكذلك ينوي بذلك تصديقَ سيدِنا جبريل وسيدنا إسرافيل وسيدنا ميكائيل [١]، واللوحِ والقلمِ الأعلىٰ، والكرسيِّ والعرش، لأن الحكمَ ينزل من الحضرة الإلهية إلىٰ العرش بلا تفصيل، ثم منه إلىٰ الكرسي وفيه يظهر تفصيلُه من أيِّ حكمٍ من الأحكام الخمسة.

وكذلك إذا سمعَ أمراً إلهياً ينوي أنه يسمعه من سيد الوجود صلىٰ الله عليه وسلم، فحينئذ يكون في مشاهدة له دائماً.

ولا يَبعُدُ أن يُحملَ علىٰ هذا قولُ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي: «لو احتجبَ عنّا رسولُ الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم ما عَدَدْنا أنفسَنا من المسلمين»، لأن المشاهدةَ الحقيقيةَ لا تُطاق علىٰ الإطلاق دائماً، والعارفون رضيَ الله عنهم في طاعةٍ دائماً حتىٰ في الأنفاس، والحضرات، فيستحضرون أن ذلك كلَّه طاعةٌ، وأنه مأمورٌ به من قِبَلِ الشارع، وأنه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم يأمرُ بذلك الفعل أمرَ إيجابٍ أو ندب، فيفعلُه، أو ينهىٰ عنه نهيَ تحريمٍ أو كراهة، فيتركُه، فيكون في طاعةٍ دائماً مع المشاهدة.

ولا يَبعُدُ أن يُحملَ علىٰ هذا قولُه ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، فإذا دخل الإنسانُ للصلاة فكلُّ فعلٍ منها أو ذكرٍ يَقصد به امتثالَ أمرِ الله وأمر رسوله صلىٰ

---

(١) هذه الفائدة زيادة من أمالي المؤلف رضي الله عنه في دروسه كما وجدته بخط العمراني عنه.

صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم، فيكون مقتدياً به في الصلاة كلِّها، فيحصلُ له من الخشوع والحضور فيها ما لا يُكَيَّف، ويترقّىٰ بذلك مراتبَ عليةً، ومقاماتٍ مصطفوية، ويحصل له انجذابٌ باطنيٌّ للحضرة النبوية.

وإذا تأملَ واستحضرَ ما يهديه الله تعالىٰ له ويمنحُه إياه عندَ تكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة والسورة، أو الفاتحة فقط، من الأنوار والفتوحاتِ والفيوضاتِ والأسرار، واستحضرَ عظمةَ الله، وعبوديتَه له، وأن جميعَ الأفعال كلَّها بيده، وأنه الفاعلُ علىٰ حقيقة، وأنه إنما هو آلةٌ تتحرك بتحريك الله إياه، رفعَ يدَه عندَ إرادة الركوع إشارةً إلىٰ انسلاخه عن جميع ذلك، وأنه ركعَ لله صِفْرَ الكَفَّين خاشعاً متذللاً خاضعاً. فإذا ركع وحصل له من التجليات والأسرار والأنوار في ذلك الركوع ورفع منه: رفع يديه أيضاً إشارةً إلىٰ وقوفه منسَلِخاً عن جميع الأعمال /٢/ التي تقدمت قبلَ الصلاة، وعن تلك الترقيات والأحوال التي حصلت له في ذلك الركوع.

فإذا سجد لله تعالىٰ سجدَ عبداً حقيقياً لا شائبةُ حريةٍ فيه، فكان سجودُه في ظاهره كسجودِه في باطنه، فيحصلُ علىٰ مقام المناجاة.

فقد بان لك سرُّ رفع اليدين في الركوع والرفع منه، وهو من الحُورِ المقصُورات في الخيام، وسرُّ الرفع عندَ تكبير الإحرام انسلاخاً من جميع الأعمال التي تقدمت قبلَ الصلاة.

ولما نظرَ الإمامُ الأعظمُ أبو حنيفةَ ـ رضيَ الله عنه ـ إلىٰ هذا السر العجيب، والمرتع الغريب، وأنه أمرٌ خاصٌّ بالعارفين رضيَ الله تعالىٰ عنهم، وأما مَن فعل ذلك كان متشبِّهاً بالمُرائي: أنكرَ الرفعَ من حيثُ هو إلاَّ لِمَن قام به سببُه أو تحقيقُه من نفسه، فإنه منسوخٌ عندَه معنىً لا اصطلاحاً وإن كان ثابتاً عند البخاري. ويسوغُ لمن لم يدرك ذلك المقامَ أن يفعلَه متشبِّهاً بالسادة الكرام.

* * *

النفائس الكتانية

٩

سُفُنُ النجاة وكهوف العِبَاد

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهَدِ بفاس سنةَ ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

سبب التجانية وكشوف العباد

بسم الله الرحمن الرحيم — اللهم صل وسلم وبارك على السيد [illegible] تنزهت عنها [illegible] الواحد [illegible]

من محمد بن الشيخ عبد الكريم الكنسلاء للركاب إخواننا في الله تعالى وأحبابنا بكل [illegible] وأوداننا في سبيل من طلبة الأخيار الأبرار المائلون نحو سفر بحضرات الله والمعرضون عن الخلق في جنب ما لاحظوه من علامة الأقبال على الله [illegible] الأصفياء الأتقياء [illegible] أن [illegible] أهل كل [illegible] كل واحد باسمه واسم عشائره [illegible] الله تعالى البر الرحيم على الفوز [illegible] الله [illegible] ما [illegible] [illegible] الباب [illegible] أن يفتح [illegible] وما غاب مقبل على الله تعالى عن [illegible] وربما [illegible] وإخبار [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] صاحبنا [illegible] التقرب من الله تعالى والعمل [illegible] [illegible] أنا نعهد لكم عهودا [illegible] ما [illegible] [illegible] الإخوانية والمودة الإسلامية مع بعضكم بعضا بحيث تجعلون جميعكم [illegible] واحدة [illegible] ولينظر كل واحد منكم هذا [illegible] الإخلاص [illegible] الإسلامية لهذا العهد في جميع [illegible] الأرض [illegible] الجمع مجتمعا وهو يعرف عليه [illegible] جميعا وقلوبهم شتى [illegible] والأعياد [illegible] الكسوف والاستسقاء [illegible] [illegible] [illegible] بالتلبس [illegible] والقيام [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] بعضا ولا [illegible] وذكرها [illegible] بذلك [illegible] الأخوة الإسلامية [illegible] [illegible] رضوان الله الأكبر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الاستغفار [illegible] وبذلك [illegible] الشارع [illegible] على [illegible] [illegible] العهد الثاني [illegible] الصلوة [illegible] الفاتحة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الفاتحة [illegible] [illegible] [illegible]

الاوماد... الاعمال والعون على الاعمال وعنوان قبول الاعمال وهو اقوى
الديوان ... الذي ... ولا تكرير ... فانه يراك العهد الخالد ...
اشتركوا او ... القرآن الكريم ... اذ الاحباب ما تنبو التلاوة في ... بما ...
...ب: وغيرها ... السنوية ... المواهب اشتغلت عنا بوريراتك والا
... من نعم الاوصياء ... وعنه عجائب من قبلنا وخبرنا ومن بعدنا فكيف
...بغيرة او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى
لقوم يؤمنون ولقد ضربنا ... هذا القرآن من كل مثل ... اكثر الناس الا كفورا
... فعجبا ... والاخلاق النبوية التي بها تصلح الامور ... وهو ...
... وتعقلوا ... وتعلموا من ... وتاملوا وصف عباد الرحمن الى آخر
... ووصف ... المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون الى آخر ...
... سورة ... فتفهموا معانيها وتدبروا ...
... ان ... على الاعمال ... فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا
... ولا يشرك بعبادة ربه احدا ...

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم وبارك علىٰ المادة الأصلية التي تفرّعت عنها سائرُ المواد، وعلىٰ آله وصحبه.

من محمد بن الشيخ عبد الكبير الكتاني إلىٰ كافة إخواننا في الله تعالىٰ، وأحبائنا من أجله، وأودائنا في سبيل مرضاته، [من هم] الأخيارُ الأبرار، والباذلون نفوسَهم في ذات الله، والمعرِضُون عن الخَلق في جنب ما ذاقوه من حلاوة الإقبال علىٰ الله، الصادقون الأسخياء، الأشِحّاءُ بمحبتهم أن لا يبذلوها إلا لمَن يستحقها.

ساداتَنَا أهل مَرّاكشَ كلَّ واحدٍ باسمه، واسمِ عشائره، سلامُ الله تعالىٰ البر الرحيم علىٰ أُخُوتِكم ورحمة الله وبركاته ما ثبتَ سارٍ لقرعِ البابِ يُوشِكُ أن يُفتَحَ له، وما غاب مُقبِلٌ علىٰ الله تعالىٰ عن حظوظِه ورياستهِ وأغيارِ نفسِه وشهواتِها الخسيسة التي لا طائلَ تحتها إلا مَحْوُ اسمِ صاحبها من ديوان أهل الصدق مع الله تعالىٰ وأهله.

أما بعد: فإنّا نعهدُ لكم عهوداً مَن حافظ عليها فله ما لنا وعليه ما علينا.

العهد الأول

حفظُ الرابطة الإخائية والمودة الإيمانية مع بعضكم بعضاً، بحيثُ تجعلون جميعَكم نفساً واحدةً قائمةً بذاتٍ واحدة. ولينظر كل واحدٍ منكم هذا النظرَ ربما

تحصل منه نتائجُ؛ الإخلالُ بها هو الذي أوصلَ المَعالِمَ الإسلاميةَ لهذا الحدِّ في جميع معمور الأرض.

فكيف وتجدُ الجمعَ مجتمعاً وهو يصدُق عليه قول العالم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

وما شرع ـ جلَّ ثناؤه ـ الجماعةَ والجمعةَ والأعيادَ وصلاةَ الكسوف والاستسقاء، والموسمَ الأكبرَ بعرفةَ إلا للألْفة والائتلاف وحسنِ التآخي، ولُطفِ تحكيم الروابط الدينية، حتىٰ تأتلف القلوبُ علىٰ محبة الدين وخدمته، والتشريف بالتلبُّسِ بشعائره والقيامِ بوظائفه، وقد يسري الأمانُ منا لبعضنا بعضاً، فلا يشتم البعضُ منا البعضَ، ولا يَنُمُّ عليه ولا يغشه، وَنغُضُّ الجفونَ عن مساوىء بعضنا بعضاً، فلا نطمح إلا لمحاسن بعضنا بعضاً، وذكرِها ونشرِها.

وبذلك ينتظمُ شَمْلُ الأخوةِ الإسلامية، ويدوم التعاضُدُ والترقِّي في المعارج التي تُنتجُ رضوانَ الله الأكبر، وتُنتجُ رضىٰ الخَلْقِ أيضاً.

فإنما شرعَ سبحانه الشرائعَ ليسترَ قبائحَنا ومساوئنا لو علمنا سِرَّ مشروعيتها، لأنّا إذا امتثلناها قامت بنا المحامدُ واجتنبنا المذامَّ، وبذلك يحصلُ قصدُ الشارع.

علىٰ نفسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضاعَ عُمْرُهُ وليسَ لهُ فيها نَصِيبٌ ولا سَهْمُ[١]

العهد الثاني

عدمُ إيقاع الصلاة إلا بزاويتكم، فإن أغلبَ الأئمة لا يُحسنون قراءةَ الفاتحة، ويجعلونها ثلاثَ آياتٍ مع أنها سبعةٌ، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧].

---

(١) من شعر سلطان العاشقين الإمام عمر بن الفارض رضي الله عنه.

وقليلٌ من يَشُدُّ الياء من ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقليلٌ من يُظهِرُ السين والتاء من ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وهل بلاحِنٍ مطلَقاً أو في الفاتحةِ بغيرِ مميِّزٍ بين ضادٍ وظاءٍ. خلاف.

وأبطلَ الشافعيةُ صلاةَ من يخفف الياءَ في «التحيات لله» في التشهد، /١/ والحالُ أنها ليست بقرآن.

ومخارجُ الحروف قلَّتْ مراعاتها، لعدم إتقان علم القراءاتِ والأداء.

وأيضاً قوادحُ الشهادة والإمامة كثرت في الناس، ولتُراجَع القوادحُ في «المختصَر» وشروح «التحفة» و«التبصِرة» لابن فرحون[١]، ولتنظروا الحطَّاب[٢] عندَ قوله: «أو فاسقاً بجارحة» عطفاً علىٰ المبطِلات: تعلموا وجوبَ التحرِّي في الإمامة ووجوب التوقِّي فيمن يُصَلَّىٰ خلفَه.

وبه يُعلم ما ذكره الأجاهرة[٣] في الاستفسار الذي ذكروه، وأن هذا تُبِعَ فيه ابنُ بزيزة[٤]، وهو غيرُ مشهور. ولا بدَّ أحضروا الحَطَّاب واسردُوه في هذا الموضوع.

---

(١) «المختصر»: هو مختصر سيدي خليل، و«التحفة» هي «تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام» أرجوزةٌ في القضاء لأبي بكر ابن عاصم المالكي، و«التبصرة»: هي «تبصرة الحكّام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام» للبرهان بن فَرحون، وكلها مطبوعة. الناشر.

(٢) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد الحطاب المالكي (٩٠٢ـ٩٥٤هـ)، والمقصود شرحه علىٰ «متن خليل» المسمَّى: «مواهب الجليل»، ونظر كلامَه فيه حول هذه المسألة (٢: ٤١٢، ٤٢٢).

(٣) الأجاهرة: هم تلامذة الإمام علي بن عبد الرحمٰن الأجهوري (١٠٦٦هـ) من فقهاء المالكية في مصر ومنهم: الخرشي والزرقاني، وانفرادهم بالقول غير معتمدٍ في المذهب، كما حرره العلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي في شرحه لمقدمة «مختصر» خليل، وهو مطبوع.

(٤) وهو الإمام العلاّمة أبو محمد عبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد القرشي التونسي المعروف بابن بزيزة (ت ٦٧٣هـ)، ترجمته في «نيل الابتهاج» للتنبكتي ص١٧٨، و«معجم المؤلفين» لكحّالة (٢: ١٥٥)، ص .

وأيضاً كثيرٌ من الناس يستعمل الغَبَرة المسماةَ بـ: التَّنْفِحة[١]، وهي مبطِلةٌ للوضوء والصلاة والصيام، و«كل عمل ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ»[٢]، و«كل محدَثةٍ بدعةٌ، وكل بدعةٍ ضلالةٌ، وكل ضلالةٍ في النار»[٣]، والعوائدُ وأهلُها في النار.

العهد الثالث

الصلاةُ تكون سُنِّية كما رأيتمونا نصلي في الزاوية الكبرىٰ[٤] وعندَكم، فلا بد من عشر تسبيحاتٍ في الركوع والسجود، فإنه أعلىٰ ما يكفي، وفي الحديث فيمن قال ثلاثَ تسبيحات: «فقد تم ركوعه»[٥]، وذلك أدناه، أي أدنىٰ الواجب، فإن نقصَ علىٰ ثلاث تسبيحاتٍ فلا صلاةَ، والمعدومُ شرعاً كالمعدوم حساً، والهديُ النبويُ فيه عشرُ تسبيحات في الركوع والسجود كما في سنن أبي داود[٦]:

---

(١) التَّنْفِحة: هي غبرة مثل الصُعاط أو قريب منه تثبت داخل الأنف، وقد تحتوي علىٰ التبغ وغيره.

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلمٌ (١٧١٨) بلفظ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» من حديثُ السيدة عائشة رضيَ الله عنها.

(٣) رواه النسائي (٣:١٨٨) برقم (١٥٧٦) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضيَ الله عنه.

(٤) الزاوية الكبرىٰ هي الزاوية الكتانية الأم في فاس، أم الزوايا، التي بناها وأسسها جد المؤلف رضي الله عنه، الإمام أبو المفاخر محمد بن عبد الواحد المدعو بالكبير، الكتاني الإدريسي المتوفي عام (١٢٨٩هـ)، وهي الواقعة بحي «القطّانين»، من عَدْوة القرويين قرب جامع القرويين الأعظم. وقد أرخ لها شقيق المؤلف، الإمام الحافظ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني في كتابه: «المظاهر السامية في النسبة والطريقة الكتانية»، في مجلدين حققهما مولانا الوالد العلامة الدكتور علي بن المنتصر الكتاني، لم يطبع بعد، وقد تخرج منها أيمةٌ ودعاة وقادة جهاد لا يحصَون كثرةً.

(٥) رواه الترمذي (٢٦١)، وابن ماجه (٨٩٠)، وأبو داود (٨٨٦)، من حديث سيدنا عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

(٦) برقم (٨٨٨) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه، ولفظه: «ما صليتُ وراءَ أحد بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتىٰ ـ يعني عمر بن عبد العزيز ـ قال: في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات».

وغَـنِّ لـي بـاسـمِ مـن أُحـبُّ ودَعْ   كلَّ مَن في الوجودِ يرمي بسَهْمِهْ
لا أُبـالـي وإنْ أصـابَ فـؤادي   إنّـه لا يضُـرُّ شـيءٌ مَـعَ اسمِـهْ

وفي القرآن في جنب نبيِّ الله [يونُسَ] عليه السلام: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

....   ومـن تكـن همَّـةُ تسموا بـه الهِمَـمُ
ونظيـرٌ فـي سـوىٰ معنـاك حُـقَّ لـهُ   يَغْتَـصُّ مِـنْ جَفْنِـهِ وهْـوَ دَمُ
والسمـعُ إن جـالَ فيـهِ مَـن يُحَدِّثُـهُ   سوىٰ حديثِكَ أمسىٰ وَقْرَهُ الصَّمَمُ

العهدُ الرابع

أن لا يقوموا مسرعين إذا فرغوا من الصلاة، فإنه أجمعَ أهلُ الظاهر والباطن علىٰ أن مِن علامة عدمِ قَبولِ صلاةِ المصلِّي قيامهُ مسرِعاً إذا فرغ من الصلاة، مع تفويته نفسُه صلاةَ الملائكة ـ عليهم السلام ـ عليه كما في الحديث: «إن الملائكةَ لتصلِّي علىٰ أحدكم ما دامَ في مُصَلاّه، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يُحْدِث»[1] ولو بالكلام في الدنيا، ودعاءُ الملائكة مستجابٌ.

كما قيل في قوله سبحانه: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، حتىٰ بمحبة الدنيا، وحبُّ المحمدة والجاه والرياسة. وكلُّ ما يُخِلُّ بكمال الحضور مع الله تعالىٰ فهو سُكرٌ يمنع دخول حضرة الله تعالىٰ الخاصة.

العهدُ الخامس

عدمُ إهمال أوراد الصلاة كلِّها كلَّ وقتٍ وقتٍ، فإنها أورادٌ نبويةٌ فيها فضلٌ عظيم، لا تُتْرَك.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد من «صحيحه» (٢٧٣)، والنسائي (٢:٥٥)، والإمام أحمد في «الزهد» (٢١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يعلمُ أدويةَ الأمراض التي في الذات إلا من خَلَقَ فيها الأمراض، والذي أنزل الداءَ هو الذي أنزلَ الدواءَ سبحانه، فإذا أُهمل تَرَتُّبُ من ترتبات الشرائع تكاففت الأمراض، وعز الدواء.

سيما إن طلبنا الأدويةَ من بيطار، أو /٢/ صَيْرَفي، أو حداد، أو حائك، والحالُ أنها أنزلها الوحي! ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

العهدُ السادس

عدمُ ترك المذاكرة صباحاً بعدَ قراءة حزبين من القرآن الشريف، تقع المذاكرةُ في «العهود»[١]، أو في كتبنا، ولو ثُلُثَ ساعة، وكذا قُبيلَ الغروب، فإن محلاً يحضره الروحُ الأعظمُ جديرٌ أن يُعمَرَ دائماً ويُستعبَدَ في أرجائه.

ومن لي بأن ترضىٰ. . . إلخ.

وأما بين العشائين فلا يُترَكُ التدريسُ لرسالة ابن أبي زَيد[٢]، فإنها تُورِثُ الغِنا، و

يا ضيعةَ الأعمارِ تمشي سَبَهْلَلا !

العهدُ السابع

اتركوا الأوهامَ وسوءَ الظنونِ بالله تعالىٰ ورسوله الكريم وأوليائه، فإن كان الإنسانُ يعتقد أنه علىٰ الحق، فليترك البحرَ رَهْواً[٣]، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ

---

(١) أي: «العهود المحمدية» للإمام الشعراني رضي الله عنه.

(٢) هي رسالة ابن أبي زيد القيرواني ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في الفقه المالكي.

(٣) أي: ساكناً، والمعنى: وليَدَع الشأن علىٰ أصله دون تعكير.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٠١﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

والدنيا بقُوّادها، وعُمّالها، وقُضاتها، وأمنائها، فعليكم بالله وحدَه، ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: ٩١].

وكذا يوم الجمعة، فعهدُ الله بيننا لا تتركوا المذاكرة، وقد قال الصحابي: «والله لو أوصلونا إلىٰ بحرٍ لعلمنا أننا علىٰ الحق وهم علىٰ الباطل».

تَبـالَـهَ قـومـي إذ رأونـي متيّمـاً ... وقالوا: بِمَنْ هذا الفتىٰ مَسَّهُ الخَبَلُ
وماذا عسىٰ عَنّي يُقالُ سوىٰ: غدا ... بنُعْمٍ له شُغْلٌ، نَعَمْ لي بها شُغْلُ
إذا أنعمَـتْ نُعْـمٌ علـيَّ بنظـرةٍ ... فلا أسْعَدَتْ سُعدىٰ ولا أجملَتْ جُمْلُ[1]

العهدُ الثامن

لا تغفلوا عن أوراد الليل والنهار، فإن فيهـا السعادةَ الدينيـةَ والدنيوية، فهي «عمل مَنْ طَبَّ لمن حَبَّ»، «يا دنيا اخدمي مَن خدمني وأتعبي مَن خدمك».

ويا ليتَ الإنسانَ إذا أقبلَ علىٰ الشوق للدنيا هذه المدةَ ولم تحصُلْ منها عطفةٌ أن يتشوّقَ لربه ولرسوله وينظرَ هل تحصلُ عطفةٌ أم لا؟!

---

(١) الأبيات من لامية ابن الفارض رحمه الله، التي مطلعُها:
هو الحبُّ فاسْلَمْ بالحَشَا ما الهَوَىٰ سَهْلُ
فمـا اختـارَهُ مُضْنـىً بـهِ ولَـهُ عَقْـلُ
وهي في «ديوانه» ص: المطبوع.

العهدُ التاسع

كلُّ من عُيِّنَتْ له خُطةٌ[١] أو عُيِّنَ له شغلٌ فليلزَمْهُ، ولا يَبْغِ بعضُكم علىٰ بعض، ولم تنتظم الزاويةُ الرِّباطِية إلا بهذا العمل، فاستقامت لهم الأحوال.

و«البُردةُ»[٢] اجتهدوا أن لا تُترك، فإن ذكرَ الكمالاتِ المحمديةِ يطفىء غضبَ الجبار جلَّ لُطفُه.

واعجباً! النفسُ الأمّارةُ تنفر علىٰ صاحبها إلىٰ أن يصيرَ الرائسُ مرؤوساً، والمتبوعُ تصيِّرُهُ تابعاً، وأيُّ شيءٍ هي الدنيا بحذافيرها حتىٰ يقعَ تكدُّرُ الأخوّةِ الدينية من أجلها! فكيف بما لا يسمن ولا يغني من جوع؟!

وكيف يُعاب علىٰ الولاة عدمُ تنظيمهم لأحوال الرعية علىٰ اتساعها في الجملة، ولا تلومون أنفسَكم علىٰ عدم قدرتكم علىٰ تنظيم زاويتكم، وهو أذرع، أو شؤون داركم، وهي كذلك.

فالمراقبةُ رأسُ الأعمال، وحسنُ الأعمال، وروحُ الأعمال، وزَينُ /٣/ الأعمال، ومادةُ الأعمال، والعونُ علىٰ الأعمال، وعُنوانُ قَبول الأعمال، وهي أقوىٰ عُرَىٰ الدين؛ «أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراهُ فإنه يراك»[٣].

العهدُ العاشر

أن لا تتركوا أوراداً من القرآن الكريم:

إذا الأحبابُ فاتَهُمُ التلاقي ... فما صِلَةٌ بأعظمَ مِنْ كِتابِ

---

(١) خُطَّة: أي وظيفة.

(٢) «البردة» للإمام شرف الدين البوصيري الصنهاجي رضي الله عنه، في مدح رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وللمؤلف رحمه الله تعليق عليها.

(٣) رواه البخاري (٥٠) ومسلمٌ (٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد قال جلالُ النبوة لأبي المواهب: اشتغلتَ عنّا بوُرَيْداتك. والقرآنُ مرتَعُ الأولين والآخرين، وفيه عجائبُ مَن قبلَنا، وخبرُنا وما بعدَنا، فكيف نشتغل بغيره؟! ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٩].

العهدُ الحادي عشرَ

مكارمُ الأخلاق النبوية التي لا تنصلح الأمورُ إلا بها، وهي أن تصلوا مَن قطعكم، وتعفوا عمَّن ظلمكم، وتعطوا مَن حرَمكم.

وتأملوا وصفَ عبادِ الرحمٰن إلىٰ آخر الآيات [الفرقان: ٦٣-٧٧]، ووصفَ المؤمنين: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ . . . ﴾[المؤمنون: ١-١١] إلىٰ آخرها، ووصفَ سورة التوبة: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ . . . ﴾ إلىٰ آخره [التوبة: ١١٢]، فتفهّموا معانيها، وتدبّروا أسرارَها، واطلبوا [منه] ـ جلَّ اسمُه ـ أن يعينكم علىٰ العمل بما فيها ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وأستودعكم الله

* * *

النفائس الكتانية

١٠

الأمالي في عِلْمِ الأُمَّهات

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهَدِ بفاس سنةَ ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

الاقاليد في علم الاسمات

للشيخ الاكبر والعارف الاشهر ختم المعارف وابن خوال
وحيد الدهر ابي العيش مولانا محمد بن الامام الكبير العارف الشهير
ابي المكارم الشيخ مولانا عبد الكبير الكتاني الحسني الادريسي
نفعنا الله بهما واعاد علينا من بركاتهما امين

إذا الحوائج أنتم السلام عليكما إلا وقربنا من لا كان قبلنا عنترة

ولنختم الرسالة بدعاء فلما كان رسول الله يقوم من مجلس إلا دعا بهؤ
الدعوات اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن
طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا
ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل
ثارنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل
الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا رواه الترمذي
وقال حديث حسن غريب ومن دعوة [illegible] اللهم زدنا ولا تنقصنا
وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا
رواه أحمد والترمذي

فقفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ورسم عفت آياته منذ أزمان

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته [illegible] لهذا المؤلف رضي الله تعالى
عنه ونفعنا به آمين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحابته أجمعين
أما بعد فإن [illegible] الكتاب الشريف لما طبع على مادة الشكل [illegible] غاية التصحيح [illegible]
[illegible] المؤلف [illegible] الله [illegible] السبيل

ملزمة أولى

وجه	سطر	خطأ	صواب
[illegible]	[illegible]	وإنما	وهي
[illegible]	[illegible]	دأبايهم وإنما	دأبايهم وعشائرهم إلى يوم القيامة [illegible]
[illegible]	[illegible]	لا يشبه ومقام	[illegible] الأشقياء [illegible]
[illegible]	[illegible]	بالكل	لا يشبه مقام ومقام
			بالكل

ملزمة ثانية

وجه	سطر	خطأ	صواب
[illegible]	[illegible]	مع سادة	مع سادة
[illegible]	[illegible]	الحضرات لم	الحضرات بحيث لم
[illegible]	[illegible]	ومقتبسة	ومقتبسة
[illegible]	[illegible]	ومن	وهي
[illegible]	[illegible]	السابت	الثابت
[illegible]	[illegible]	يغامر	يغاير
[illegible]	[illegible]	وعزيكم	بعزوركم

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمَالِي في عِلْم الأمّهَاتِ

لمحمد بن عبد الكبير الأحمدي الصديقي الكتاني

جواباً عن مسألة

الحمدُ لله الذي لا ينبغي الحمدُ إلا له، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ خاتم النبوة والرسالة، المُبَلِّغ لنا عن الله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٨]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢]، وعلى آله وصحابته الحكماء الرحماء النُّجَباء الحُلَماء النقباء، الناقلين لنا عنه: «مَثَلُ أمتي مَثَلُ المطر، لا يُدرَىٰ أولُه خيرٌ أو آخرُه»[1]، فلو كتموا شيئاً من الوحي لكتموا هذا، لما فيه من شِيمةِ الإنصاف وإعطاء المراتب حقَّها، مع علمهم أنهم بمرأىً ومسمع ممن جُمِعَ فيه كمالُ جميع الدوائر الإلٰهية والأسمائية والصفاتية، ولم يُقْتَبَسْ كمالٌ من الكمالات

---

(١) أخرجه أحمد (٤: ٣١٩)، والبزار (٢٨٤٣)، وابن حبان (٧٢٢٦)، والطيالسي (٦٤٧)، وله شواهد عدة، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠: ٦٨): «ورجال البزار رجال الصحيح غير الحسن بن قزعة، وعبيد بن سلمان الأعز، وهما ثقتان، وفي عبيد خلاف لا يضر».

قلتُ ـ الناشر ـ: قد ضعّفه النووي في «فتاويه» ص ٢٨٢، لكن تعقَّبه الحافظُ السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص ٣٧٥، ونقلَ تحسينَه عن ابن عبد البر. اهـ.

الغيبية أو الكونية إلاّ وليست مقتبسةً إلاّ من مشكاةٍ باطنيةٍ سرِّ سيدنا محمد، سواءٌ الأوائل والأواخر، وشُرِّفوا بمكافحتها بدون حُجْزَةٍ ولا حجابٍ إلا ما كان من لطيفةِ السيف في غِمْدِه: العلمِ الأوَيسي[1].

فارضَ اللهمَّ عنهم، وزِدْهم من رضىٰ نبيك عنهم، وعلينا وأحبابنا معهم يا ربَّ الأرباب.

هذا وقد ورد علينا سؤالٌ من عند أخينا الولي الحميم، الصفي الكريم أبي العباس سيدي أحمد بن محمد بن الطيب الفِلالي[2]، غفر الله لنا وله، في الجواب عن: اصطكاك وجوه تباشيرَ تُبَلْبِلُ بها أذواقُ أهل الكمال من كون كلٍ منهم يُعَنْوِنُ أن لا رتبة إلا رُتبته، ولا مشربَ فوق مشربه، ولا حُلَلَ تُفْرَغُ علىٰ أحدٍ أشرفَ مما كسبها هو، ولا معارجَ تُنصَبُ للرُّقيِّ في مدارك المعارف والمواهب اللدنية إلاّ ما نُصِبَ له، ثم يأتي آخَرُ فيقول مثلَ ذلك أو أعظم.

فكيف يُفهم مغزىٰ هذا المنحىٰ، وكيف يُكشَفُ النقابُ عن هذا المرمىٰ؟!

فنقول مستمداً من حضرة البسملة، وقد سميت الرسالة:

---

(١) أي: العلم المأخوذ عن باطنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

(٢) هو العلامة العارف المشارك الشريف أبو العباس أحمد بن محمد بن الطيب الفِلالي الجاوزي الإدريسي الحسني، أحد أساتذة جامعة القرويين المشرفة، ومن أخص تلامذة وأصحاب المصنف رضيَ الله عنه، أخذ عن كبار علماء فاس خاصة شيخ الجماعة أبا عبد الله محمد بن المدني گنون، وشيخ الجماعة أبا المواهب جعفر بن إدريس الكتاني الحسني، وبشره المصنف رضي الله عنه بمقامات عالية في التصوف، كان عابداً زاهداً قواماً صواماً، إماماً من أئمة العلم، ترك عدة مصنفات منها كناشة حافلة غزيرة بالعلوم ملأها بسماعات من الفقيه گنون، والإمام أبي الفيض ـ رضي الله عنه ـ وغيرهما من مشيخة فاس، وهي بين يدينا، وله منظومة في ألف بيت في ترجمة شيخه الإمام أبي الفيض ـ رضي الله عنه ـ رائعة في بابها، طبعت بالمطبعة الحجرية بفاس. واسمها: «الغُنْية الفريدة»، وله غير ذلك، وقد توفي رحمه الله ورضي عنه بتاريخ ٨ ذو الحجة ١٣٢٤هـ.

الأمالي في علم الأمهات

وقد اشتملت الرسالة من العلوم على اثنين وتسعين علماً بحمد الله، لا بحمد أحد، والحمدُ لله كما ينبغي لجلالِ وجهكَ وعظيمِ سلطانك.

[المقدمات]

ولكن لا بد من تقديم مقدمات /١/ غامضة، منها وعنها وبها ينتشىء العلمُ بالمواطن حتى تُنَزَّلَ الأشياءُ منزلتها، ولا نُخْسِرُ في الميزان كما لا نُهْمِلُهُ أولاً، كما لا نطغىٰ فيه.

فاعلم: أن الكلماتِ الهائلةَ لا تخلو إما أن تَصْدُرَ عن عالمٍ عارفٍ بأفانين العلوم وأساليب الكلام ومن أين انتشأت العلومُ من الدوائر الغيبية، وما وجهُ المناسبة الكونية التي تطلبها، وما الحقيقةُ التي اقتضتها، وما الدوائرُ الأسمائية المنفعلةُ عنها. ووجهُ ملاحِظِها ومثاراتِها من جنس ما انتشأت منه وعنه، لا من جنس النظر والفكر، فذلك لا يسلم من الخطأ عندَ أهلِ الكشف، لِمَا أنّ كلَّ شيءٍ لم يُتَلَقَّ عن أصله فالغالبُ شوبُه بالشوائب.

ويكونُ أعرفَ أهل وقته بالسنة ومواطنها وما تقتضيه رتبتها، وأعرفَ الناس بأسرار الحضرة الأحمدية[1] الغيبية المطلسَمَة عن أهل التقليد في علم الأسرار،

---

(١) الأحمدية: هي مقام يستقي فيه السالك من مشكاة باطنه ﷺ، وهي أخص وأعمق من الأمداد المحمدية، حتى أنكر بعض كبار العارفين إمكانية استمداد أحد من الخلق منها، وكان المصنف ممن جاهر بالاستمداد منها ـ رضي الله عنه ـ والخوض في لججها، والذبُّ عن ذلك في كثير من مصنفاته. وانظر الاختلاف في ذلك في كتاب: «جلاء الأصداء من القلوب الغينية، في بيان إحاطته عليه الصلاة والسلام بجميع العلوم الكونية» المجلد الثاني، (تحت الطباعة)، وهو في ثلاثة مجلدات كبار، تأليف ابن خال المصنف، شيخ الإسلام محمد بن جعفر الكتاني الحسني رضي الله عنه. وممن تكلم عن الختمية الأحمدية بالخصوص والختمية في العموم نجل المصنف، الإمام محمد الباقر رحمه الله تعالىٰ في كتابه «الروضة الندية في إثبات السقي من الحقيقة الأحمدية»، بما لا يوجد في غيره، وهو مخطوط.

الناس بحقائق النفوس وبحقائق الأرواح، وحقائق أرواح الموجودات علىٰ اختلاف مراتبها في العلم والطبيعة، وما يقتضيه منها العالِمُ وما يطلبه منها الفعّال، لأن الحضراتِ الأسمائيةَ من باب النِسَبِ التي لا تُعقَلُ إلا بين اثنين، فغفّارٌ لمَن؟ ورحيمٌ وتوّابٌ علىٰ من؟ وشكورٌ لفعلِ مَن؟ وعليمٌ بمَن؟ ومُهَيمنٌ علىٰ من ؟ فلا بد من الفاعل والمنفعل عنه، وهذا علمٌ طامٌّ واسعُ الذيل.

وأعرفَ الناس بحقائق الأشياء علىٰ اختلاف مراتبها، فإن كان هكذا، والآخَرُ كذلك؛ فيُحتاج للجواب دفعاً للتعارض الواقع بين كلامَيهما، لأنه بان أن لا يُهْمَلَ واحدٌ منهما لِمَا اشتمل عليه مقامُهُ من جَمْعِيّة المراتب والكمالات، فما مِثْلُ واحدٍ منهم أن يُهْمَل.

وأما إن لم يكونا علىٰ هذا النَّسَق؛ فلم يَدْخُلا حتىٰ يُحتاج لإخراجهما، وإن لم يتكافآ بأنْ كان فيهما الفاضل والمفضول، فالتعادل والتراجح معلوم.

ولا مفاضلةَ عندَ العقلاء إلاّ بالعلم أو الشرف الطيني والديني، والمرادُ بالعلم ما قدمناه آنفاً بشريطته.

وإن تكافآ فمن لا وُسْعَ عندَهُ في العلم أو رَبُّ التحامل ربما يَغْمِصُ حقَّ واحدٍ منهما.

والقولُ الفصلُ ما يُتلىٰ عليك في صورة وصول:

وَصْلٌ

[الموجوداتُ من حيثُ هي مرتبطةٌ بحضرات الأسماء والصفات]

اعلم أخي أولاً أن الموجوداتِ من حيثُ هيَ مرتبطةٌ بحَضَرَاتِ الأسماء والصفات ارتباطَ السبب والمسبَّب، وارتباطَ الفاعل والمنفعل عنه.

وصلٌ

[مقتضياتُ الأسماء والصفاتِ في نفسِها ليست متحدةً]

ولتعلم ثانياً: أن مقتضياتِ الأسماء والصفات في نفسها ليست متحدةً، بل مقتضياتُها بحَسَبِ ما تُعطِيه رُتبةُ الاسم، ويحسب /٢/ ما يَطْلب، وما يُطلب منه، وأعرفَ فمِنْ وَجْهِ مُقتضاه: هو مقتضاه، ومن وجهِ مقتضاه بحسب مَنْ يَطلب من ينفعل له نظيرُ ما قيل: لَوْنُ الماء لون إنائه.

ومَنْ فَهِمَ هذا العلم أيقن المعنىٰ المراد من آية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات: ٥٦]، وآية: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، فإن بين الآيتين تشكيكاً طالما سألَنا عنه الفقهاءُ، ونَمْكُثُ في تبيانه أوقاتاً ولا يفهمون مغزانا.. تأمل.

وصلٌ

[مقتضيات الأسماء والصفات متحدة في مدلولها]

واعلم ثالثاً: أن الأسماءَ والصفاتِ وإن كانت مقتضياتُها من وجهٍ متباينةً، فهي متحدةٌ في المدلول من وجهٍ آخر.

فمن قال: إن الاسمَ عينُ المسمَّىٰ، فلا يبعد أن يبنيَ على هذا النسق، ويتجهُ أيضاً علىٰ هذا أن لا يُخَصَّ اسمُ الجلالة بالجمعية، فيقال: إنه اسمٌ جامع، بل جميعُ الأسماء جوامعُ باعتبار اتحادِ مدلولها كليةً لا كلاًّ.

ومن هاهنا يتجهُ قولُ مَن قال: لا يصح التخلُّق بأخلاق الله، من المتكلمين، فهذا ملحَظُه.

وهذا علمٌ كالقانون يُنتجُ لكَ علوماً، منها:

ـ علمُ مَن قال: «كلُّ مجتهدٍ مصيبٌ» وما ملحَظُه،

ـ وعلمُ من قال: «المصيبُ واحدٌ»، وما مثارُه،

ـ وعلمُ الأصوبِ من القولَين، أو هل المصيبُ مخطىءٌ من وجهٍ أو المخطىءُ مصيبٌ من وجه،

ـ وعلمُ الحضرة التي تعطيكَ هذا الوُسْعَ،

ـ وعلمُ افتقارِ الممكنِ للمؤثِّر، وسرِّ افتقاره للواجب عندَ المتكلمين.

ـ وعلمُ ذلك عند أهل الحقائق، والفرقِ بين افتقارِ الممكن مِن حيثُ هو، وافتقارِ العَرَضِ لمَن يقوم به، وهل افتقارُ العَرَضِ كافتقارِ الجَوْهَر،

ـ وعلمُ افتقارِ الجوهر مِن حيثُ هو جوهرٌ، وافتقارِ العَرَض من حيثُ هو عَرَضٌ، وافتقارِ عالَم الإمكان مِن حيثُ هو إلىٰ الواجبِ الوجود: هل هو متفاوتٌ فيكون من قبيل المشكِّك، أو: الجوهرُ لَمّا أُقيمَ في مظهرية الافتقار إليه هل يثيرُ عليه ذلك سيادةً في نفسه لأنه لما احتِيجَ له صارَ كأنه مدبِّرٌ؟ فتُنْقَضُ عبوديتهِ في نفسِه من حيثُ ما شغلَه من التعاظم ؟!

ـ وعلمُ أن كونَ العَرَضِ أيضاً لمّا كان من الأشياء فإنه يسبِّحُ بحمدِه، فهل تسبيحُه يقاومُ الجوهرَ بمالَهُ من العِزّية أم لا؟،

ـ وعلمُ ما يترتب علىٰ هذا،

ـ وعلمُ أنّ كون جميعَ من يُطلق عليه الشيءُ فهو حيٌّ حياةً حقيقيةً مقاليةً لا حالية، ومنه ما في الحديث: «لا يسمع مدىٰ صوت المؤذِّنِ شجرٌ ولا حَجَر إلا شَهِدَ له بذلك يومَ القيامة»[1]، ولا يشهد بالتوحيد من ليس بحيٍ دَرّاكٍ مُحِسٍّ عالِم، فما أَحْجَبَنَا عن الله وما أَجْهَلَنا بالله! وفي الحديث: «يقول الثوبُ الوسخ

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (١٨٣)، والإمام أحمد (٣:٦، ٣٥، ٤٣)، والبخاري (٦٩)، (٣٢٩٦)، (٧٥٤٨) بمعناه. والنسائي (٢:١٢) في «الكبرى» (١٥٢٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

لصاحبه /٣/ : إن كنتَ مؤمناً فاغسلني»(١)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، فانظر قوله: ﴿أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

ومنه قولُه: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: ١٨]، ومنه قولُ الهدهد حكايةً عن حال بلقيس: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]، فانظر كيف عَلِمَ الهدهدُ حقيقةَ التوحيد وأنه ينافي الإثنينية، فلا يعْبدُ غيرُ الله لمن ادعىٰ الإيمانَ به.

ومنه قولُه ـ أي موسىٰ عليه السلام ـ: «ثوبي حجر، ثوبي حجر»(٢)، أي: يا حجر، والحجر فارٌّ بثوبه، فالأمر مُعْجِزٌ في حالة اقتضائه، وإلا فالحجر حيٌّ قبلَ تلك الواقعة، لكن لعدم المقتضي لم يفعل ذلك، والبساطُ طويلٌ فدونك القرآنَ فإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدِق.

ــ وعلمُ سرِّ حجاب هذا العلم عن الآذان والأبصار مع أنه معينٌ علىٰ أداء حمل التكاليف علىٰ وجهها لو كوشفوا به، كما تنزجر الناسُ إذا كلَّمتهم الدابة آخراً، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢]، فلا ينفعهم تأويلُ القرآن إذ ذاك ويقولون: إن التسبيحَ بلسان الحال، فقد أيقنَهم الحقُّ آخراً وإن أبطنَ حقيقةَ الأمر عنهم أولاً، وما أيقنوا به آخراً أيقنَا به أولاً.

فكم شاهَدْنا من هذا في بدايةِ دخولنا للطريق وما لا نحصره، حتىٰ عَلَّمَتْني الجماداتُ عندَ الناس علمَ المراقبةِ مع الله، وعلمَ المراقبةِ مع الخواطر المُخْتَلِجَةِ

---

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه أحمد (٢:٣١٥)، والبخاري (٢٧٨)، (٣٤٠٤)، ومسلمٌ (٣٣٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضيَ الله عنه.

فينا، فلا تدخلُ إلا وأنا علىٰ حالةٍ حسنة، بمجرَّد ما تداخلني الخواطرُ تتكيّفُ بالحالة التي وجدَتْ عليها قلبي، فلا تخرجُ إلا وهي علىٰ صُوَرٍ حسنةٍ يبتهج بها كل رائيها إلىٰ أن تُرْفَعَ مع العمل الصالح الذي يرفعه الله، وبهذا كان صالحاً لا بغير هذا العلم، وعلمُ المراقبة مع علمِ التكاليف جملةً، لأنا حملناها أولاً جرأةً علىٰ الله، لأنها ما أُمِرْنا بها تحتيماً وإنما عُرِضَت علينا، فأما الإنسانُ فادّعىٰ أنه يقدر علىٰ حملِها فوُكِلَ إليها، لِمَا في الحديث: «من طلبَ الإمارةَ وُكِلَ إليها، ومَن لم يطلُبها أُعينَ عليها»[1].

فعلمتني الجماداتُ لمّا شاهدتُ حياتَها الأدبَ مع التكاليف مِن حيثُ هيَ، ولأجل هذا سمّانا الحق: ظلوماً جهولاً، فافهم.

ـ وعلمُ التكاليف، وقد أوضحتُ هذا في: «البحر الخِضَم»[2] بما لم أرَهُ لغيري من العارفين.

ـ وعلمُ أنّ تسبيحَها: هل هو واحدٌ أو كل نباتٍ بل كل موجودٍ له تسبيحٌ خاص، وهذا العلمُ أقمتُ فيه مدةً وأنا /٤/ بمرّاكُش، وكم اقتحمتُ عليه من أخطار.

ـ وعلمُ أنّ المرؤوسَ قد يستخدم الرئيس، وذلك شرفٌ للرئيس ولُبٌّ من المرؤوس لا نقصَ فيهما،

ـ وعلمُ ارتباط العالَمِ العُلْوي بالعالم السُفْلي،

ـ وعلمُ ارتباط العالَمِ العُلْوي بالعلوي،

ـ وعلمُ ارتباط العالَمِ السُفلي بالسُفلي،

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٤٧)، ومسلم (١٦٥٢) وغيرهما عن عبد الرحمٰن بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) هو كتاب «البحر الخضم في شروط الاجتماع بالنبي الأعظم ﷺ» للمصنف رضي الله عنه.

ـ وعلمُ ارتباط العالم الشريف المتكثِّر بعُنصرٍ واحد، وقد لا يكون شريفاً،

ـ وعلمُ الارتباط الروحاني مِن حيثُ العِشْق،

ـ وعلمُ ما الذي يقتضي وجودَ التآخي في العالم،

ـ وعلمُ ما الذي ينكره ولا يطلبه مع أنه الواقع، ومع أنه من السَّفْساف في النواميس الحُكْمِية، فأحرىٰ في الشرائع الوضعية.

ـ وعلمُ الأصل في العالم هل هو الائتلافُ أو الاختلاف،

ـ وعلمُ الأصل في التكوين: التلوين أو التمكين،

ـ وعلم أنّ التأويلَ مقصورٌ علىٰ الراسخين في العلم بخلافِ التفسير فليس من السهل الممتنع،

ـ وعلمُ التشاجُرِ الواقعِ في الكون ما سببه،

ـ وعلمُ أنّ العلمَ بحضراتِ الأسماء والصفاتِ لا يقتضي التقييدَ في الكون، وإنما يقتضي الإطلاقَ والوُسع، ومن هاهنا قيل: إن لله طرائقَ علىٰ عدد أنفاس الخلائق.

فيا لَلْعَجَبِ مِمَّن لا يَدْري، ولا يدري أنه لا يدري، فهذا يُجْتَنَبُ ولا يُخالَط، لأن النظرَ إلىٰ الغافل سُمٌّ قاتل.

ويكفي هذه العلوم، فإن تفصيلَ ما تقتضيه تلك الأُمُّ لا يفي به الوقت.

وصلٌ

[لكل اسمٍ من الأسماء الإلٰهية مقتضىً]

فلتعلم رابعاً: أنّ الأسماء الإلهية لمّا كان كل اسمٍ يَطلبُ إظهارَ مقتضاه، بل كل اسمٍ له مقتضياتٌ لِمَا أن كلَّ اسمٍ ـ وإن كانت ملاحَظة فيه الاسميةُ الأسمائية ـ فقد تُلاحَظُ فيه الوصفيةُ كما تُلاحَظُ فيه العلميةُ الذاتية.

ومن المعنىٰ الثاني يُعلَم أنّ من قال إن الاسمَ: «الله» علمٌ علىٰ الذات فقط: غفلةٌ عن هذا الملحَظ، وإلا فالوصفيةُ ملاحظَةٌ فيه، لأنه علمٌ علىٰ ذاتٍ متصفةٍ بصفته، وهي الألوهية، كالأسماء الإلٰهية الأخر فكلُّها مُلاحَظٌ فيها العلميةُ علىٰ الذاتِ مع ملاحظة الصفة.

فما ثَمَّ اسمٌ إلٰهيٌ يدلُّ علىٰ الذات مجرَّدةً عن الصفة، لا، لا ما رأيناه وما علمناه، إلاّ أن يكون من الأسماء المستأثَرِ بها في علم الله، ولم يظهر.

ومن هاهنا فاتَ من لم يلاحظ هذا الملحَظَ علومٌ:

ــ علمٌ بأن ليس ثَمَّ اسمٌ يدلُّ علىٰ الذات فقط بدون ملاحظة الصفاتِ أصلاً.

ــ وعلمُ أن الوصفيةَ ملاحَظَةٌ في الاسم الجلالي زيادةً علىٰ ما قالوا فيه، ليس باسم ذاتي بحت.

ــ وعلمُ أنه كالأسماء الإلٰهية /٥/ في الجمعية بين ملاحظة الوصفية مع العَلَمِيَّةِ الوضعية.

ــ وعلمُ أن التعظيمَ في هذا أَبْيَنُ لِمَا أنّ حضرةَ الاسمِ بهذه الملاحظةِ تصيرُ أَوْسَعَ منه ـ قبلُ ـ وأَفْسَحَ أثراً، لأنّ الذاتَ حضرةُ بَهْتٍ وخَرَس، لا يصحُّ التلقّي عنها مباشرةً إلا بالبرازخ، فلما لُوحِظَت الصفاتُ صارت حضرتُه أوسعَ منها ـ قبلُ ـ بالنسبة للآثار الكونية.

وهذا الذي قلناه يناسب قولَ الأشاعرةِ أهلِ السنة أن الذاتَ تفعلُ بالصفات، لا كما تقول المعتزلة من أنه يقدر بالذات ويعلم بالذات ويريد بالذات ويسمع بالذات، ففيه إثباتُ صفات المعاني[1].

ثم إنّا لمّا قلنا: إنّ كلَّ اسمٍ له مقتضىً من المقتضيات، وعَلِمْنا أنّ أسماءَ الحق كثيرةٌ ليست محصورةً في التسعة والتسعين كما يدلك عليه حديثُ: «اللهم

---

(١) صفات المعاني عند الأشاعرة هي المجموعة في قول الإمام ابن عاشر الفاسي رحمه الله تعالىٰ:

وقـــدرةٌ إرادةٌ علـــمٌ حيـــاةْ   سمـعٌ كـلامٌ بَصَـرٌ، ذي واجبـاتْ

إني أسألكَ بكل اسمٍ هو لكَ سميتَ به نفسَك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمْته أحداً من خلقك، أو استأثرتَ به في علمِ الغَيْبِ عندك. .»[١]، خرجَ لكَ من هاهنا نتيجتان:

الأولىٰ: علمُ أنّ الأثَرات الكونيةَ شؤونُها هي مقتضياتُ الصفات، وعليه فلا تثبتُ علىٰ نحوٍ واحد، لِمَا أنّ مقتضياتِ الصفاتِ ليست متحدةً في نفسها.

الثانية: أن الكونَ لا يشبه بعضُهُ بعضاً.

وإذ وَصَلْنا إلىٰ هاهنا:

وصلٌ

[التجلياتُ الإلٰهية دائمةُ التدفق علىٰ الدوائر الكونية]

فاعلم أن التجلياتِ الإلٰهيةَ دائماً تتدفّقُ علىٰ الدوائر الكونية، ولا تخلو لحظةٌ من اللحظاتِ إلا والحقُّ خَلّاقٌ فينا علىٰ الدوام، شَعرَ بذلك من شعر، وذَهِلَ عنه من لم يُرْزَق عِلْمَ المراقبة.

ومن هاهنا صحَّ لأبي حامدٍ أن يقول: «ليس في الإمكان أبدعُ ممّا كان»[٢]، لأنّ ما ثمةَ أشرفُ من الأسماء الإلٰهية المشرَّفة بالدلالةِ علىٰ مدلولها، ولا سرَّ أفضلُ ولا أشرفُ ولا أمجدُ من الحضرة الإلٰهية.

---

(١) أخرجه جماعة منهم: أحمد (٣٧١٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢)، والبزار (٣١٢٢) في «الزوائد»، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠: ١٩٦): «ورجال أحمد وأبي يعلىٰ رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجُهني، وقد وثقه ابن حبان». وهو جزء من حديث.

(٢) هذه المقولة وقوله لحجة الإسلام الغزالي رضيَ الله عنه قام علىٰ معناها خلافٌ كبير بين العلماء، وصُنفت فيها رسائل، للمصنف رضي الله عنه، مصنف في توجيه معناها والانتصار لها، سماه: «عنوان البيان والعِيان، الشاهد لليس في الإمكان أبدع مما كان»، وضمَّنه في «خبيئة الكون».

فما في الإمكانِ أبدعُ من العالم، وليس فيه أنها تقدر علىٰ وجودٍ أبدع منه أو لا تقدر، لأنا قلنا آنفاً: «وإن الحقَّ خَلّاقٌ فينا علىٰ الدوام»، بل هو قال: «أبدع مما كان»، أي: سبق به علمُ أم الكتاب، ولا مريةَ أنها لا تقبل التبديلَ بخلافِ ألواحِ المحوِ والإثبات، فافهم فإنه نفيسٌ.

وصلٌ

[التجلياتُ لا تتشابه في نفسِها أصلاً]

واعلم أن التجلياتِ لا تتشابه في نفسها أصلاً، وإن كانت يتجلىٰ بها متشابهة كنعيم الجنة، فيظن الرائي والمتجلَّىٰ عليه أنها كالتي قبلَها، وأنها غيرها، وإنما وقعَ التشابهُ فيها، قال تعالىٰ: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، ويا لَلعجب أنّ الثانيةَ تشبه الأولىٰ، والرابعةَ تشبه الثالثةَ، والتاسعةَ تشبه الثامنةَ /٦/، وهي غيرُها! فاختلفت المتجليات بها والصورةُ واحدةٌ.

ومن هاهنا يُعلَم:

ـ علمُ العصا الموسوية: هل انسلخت عن جماديتها ولبستها الثعبانية، أو لا زالت علىٰ جماديتها واختلفت عليها الصور، ولا يُفهَم هذا إلا من بابِ:

ـ علمِ النشرِ في الطي، والطيِ في النشر،

ـ وعلمِ تكافي الأضداد،

ـ وعلمِ الجمع بين الضد،

ـ وعلمِ أنْ لا ضدَّ،

ـ وعلمِ أن ليسَ في العالَمِ من حيثُ الوجودِ إلا متميزٌ، ومنه:

ـ علمُ الكتاب الذي خرج به ﷺ علىٰ أصحابه، وقال: «هو من عند ربكم»، وقال: «إنّ في هذا علمَ أسماء القبائل وأسماء آبائهم إلىٰ يوم القيامة،

وفي الأخرة الأشقياءُ وأسماءُ قبائلهم وأسماءُ عشائرهم»[١]، وهما كتابان انضما علىٰ هذا وهما في يديه الكريمتين! فافهم.

وصلٌ

[لا مشابهةَ بين العالم]

واعلم أخي أنك إذا توغلتَ في هذا العلم، وصدّقتَ أهلَه، ولم تحكِّم العقلَ غير المؤيدِ بالكشفِ الصُّراحِ الذي لا يقبل الخطأ: أيقنتَ أن لا مشابهةَ أيضاً بين العالم، لاختلاف طوارق التجليات عليه، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٢٢]، ولي في هذه الآية أيضاً دليلٌ علىٰ حياة الجمادات، وتحققتُ أنّ تجلّيَ هذا لا يشبه هذا، وحالَ هذا لا يشبه حالَ هذا، ومقامَ هذا لا يشبه مقامَ هذا، وعقلَ هذا لا يشبه عقلَ هذا، وملاحظةَ هذا لا يشبهها هذا، كما أنّ الألسنةَ تختلف، والصورَ مختلفة، وكما أنّ الاختلافَ في عالم المحسوسات كذلك في عالم المعنويات.

[الكلام علىٰ مقامات الولاية][٢]

ومن هاهنا تعلم أن لكلٍ من أهل الكمال دوائرَ وحضراتٍ وعلاماتٍ وعلوماً، ومعارفَ وفوائدَ وأسراراً، ومقاماتٍ وتجلّياتٍ وبشارات، تناسبُ مقامَهم الذي طُنِبَ عليهم وخَيّموا فيه، فإن التجلّيَ لا يقبل في نفسِه التكرارَ، ولا يتكرر، فما في العالم تكرارٌ بوجه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤١)، وأحمد (٢: ١٦٧) وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) تكلم المصنف ـ رضي الله عنه ـ أكثر في هذا الباب، واستدل لأقواله في كتابيه: «الكمال المتلالي» و«لسان الحجة البرهانية». الأول مطبوعٌ في المطبعة الحجرية بفاس، والثاني بها ببيروت.

وعليه: فلكلٍ من الله علاماتٌ وأماراتٌ ودلالاتٌ فيما بينه وبينه، غيرَ أنَّ المقاماتِ منها الصغيرُ والأوسطُ والوسط، والكبيرُ والأكبر، وتعظُمُ الحضراتُ والإمداداتُ بحسب شفوفِ المَقام وعلوِّه.

فإنّ مقامَ القطب ـ مثلاً ـ فوقَ مقامِ الأبدال والأخيار والعمد والنجباء والنقباء، لأن له علاماتٍ مع الله تعالىٰ لا يجدونها في نفسِهم، فمِن أحسنِ علاماتِه وأرشقِها: أنه إذا نُصِبَتْ له صنعةُ القُطْبانية وصارت جنودُ السماوات والأرض تدخلُ عليه لتبايعَه علىٰ حسب ما يعلمه أهلُ الفتوحِ الكونية؛ فإنه بمجرَّد ما يدخل الداخلُ /٧/ عليه يُفتَحُ عليه بعلمٍ لم يكن عليه قبلُ، يُمِدُّ به الداخلَ عليه المبايعَ له، وكذلك الداخلُ عليه يأتيه بتحفةٍ من الله يتحفُه بها لا يعرفها هو في نفسه، كان الداخلُ ملكاً أو روحانياتياً أو حيوانياً أو معدنياً، فإنه بمثابة حامل الرسالة لا يعلم ما أكنّته.

وطالما أردنا التكلُّمَ في هذه العلوم التي يُتحِفُ بها ويُتحَفُ بها فمَنَعَنا من ذلك عدمُ القلوب الصافية غير المَشوبةِ بالكَدَر، وأيضاً أهل السُوء من الذين لا يعلمون ويُنكِرُ مَن يعلم، وكلُّ هذه العلوم لا يجدها من نفسِه من هو دون فَلَكِ القُطْبية.

والتفِتْ أيضاً لمَن هو أعلىٰ من القطب، كالأفراد، فإن لهم مشاركةً للقطب في مصدر الفَيض الذي يُتَلَقىٰ منه الفيضُ الكوني، وإن كان القطبُ أعلا منه في الأمور الكونية، والفردُ أعلا منه في العلوم الإلٰهية، لأن الفردَ لا يقول بشفوف تلك الرتبة بل هي عندَه بمثابةِ خطةٍ من الخطط لما هو عليه في نفسه من المعارف الإلٰهية، والنواشيء الاختصاصية، وتواردِ الأحوال علىٰ قلبه.

فإنّ غايةَ محافظةِ القطب علىٰ ملازمة الحجاب الذي يعلم أن الحقَّ وراءه، فيكون كالحاجِبِ في العالم ينفِّذُ أوامرَه، فليس له من الله إلا صفةُ الخطاب، لأنه صاحبُ الديوان الإلٰهي، لا صاحبُ الشهود، فلا يكونُ إلا من وراء حجاب، إلىٰ أن يموت، فإذا ماتَ لقيَ الله وهو مسؤولٌ عن العالَم والعالَمُ مسؤولٌ عنه، وهذا مقامُ الرسل عليهم الصلاة والسلام. ومن هاهنا كان لا تصرُّفَ له في الأفراد، ولا

يخرج لهم مددٌ علىٰ يديه لأنهم أعلا في العلم به، وإذا حضروا في ديوانة التحكيم ربما لا يستخدمه، لأنه علىٰ بصيرةٍ من ربه لم يَرِدْ رَوَجانُه في الأمور الكونية.

ولما كانت الناسُ تعتقد أن لا رتبةَ فوق القطبية تقليداً، وقعَ منهم إنكارُ بعضِ أهل عصرِهم، لأنهم لا يجدون فيهم ما يعرفون من الأوصاف، وهم تجاوزوا ذلك بمراحلَ فأشكلَتْ مقاماتُهم علىٰ الناس.

ثم إنّ رُتباً أخرىٰ من جنس الأفراد أيضاً، وهم: مفاتيح الكنوز، أيضاً من شاكِلَتِهِم ورتبتهم.

[الكلام عن الختمية]

ثم إن [هناك] مراتبَ أخرَ إلىٰ أن نصلَ للختمية، مرتبةٌ لها الشفوف علىٰ كل الرتب وليس لرتبةٍ شفوفٌ عليها، وصاحبُها يتحقق بوطنه أقدامَ جميعِ الأولياء الموجودين في هذه الأمة، والأمم المتقدمين، فيلبس جلابيبَهم، ويتضمَّخُ بعلومهم جملةً وتفصيلاً.

غيرَ أنّ هناك دقيقة: وهو /٨/ أنه يتلقىٰ ذلك عن الحضرة المحمدية حتىٰ لا يكون لرتبةٍ شفوفٌ علىٰ رتبته، فيكون وارثاً جميعَ مقاماتِ الولاية، من البرزخية المحمدية، ومن الجوهرة الأحمدية، ومن الدرة العنقائية، ومن الياقوتة الهيمنية، فيكون محمديَّ المقام حُكماً، فكما تحقَّقَ محمدٌ بجميع مقاماتِ الأنبياء وأحوالها وعلومها وأخلاقها وسياساتها وكمالاتها في نفسه، تحقُّقاً وتخلُّقاً، وقد ورد في الحديث: «أعطوه خُلُقَ كذا وعلمَ كذا وشجاعةَ كذا»[1] فافهم. كذلك يتحقق هذا الختمُ بجميع المقاماتِ في نفسه.

---

(١) ذكره القسطلاني في «المواهب اللدنية» (١:٢١٢) بشرح الزرقاني، وهو بلفظ: «أعطوه خَلْق آدم، ومعرفة شيث، وشجاعة نوح، وخلة إبراهيم، ولسان إسماعيل...» أي رسول الله ﷺ. وعزاه للخطيب وأبي نُعيم، قال: «عن ابن عباس وفيه نكارة».

[الختمية كبرىٰ وصغرىٰ]

بيدَ أن هاهنا معذرةً، وهي أن الختميةَ كبرىٰ وصغرىٰ، أما الكبرىٰ، فهي التي كانت عيناً ثابتةً في الحقيقةِ الأحمديةِ وهي منطرحةٌ بين يدي ربها لا يخرج فيضٌ إلا عليها، ولا يُنْتَشأ كمالٌ إلا عليها، لأنها منطويةٌ فيها، كتحقيق وجود الشخصية بما هي شخصيةٌ، وهي الإنسانية، فيكون هو البرزخَ المُمَدَّ لحضراتِ الولاية، ولا يزالُ كذلك إلىٰ أن يظهرَ عيناً، فإذا ظهرَ كان في الأرض كجبرائيل في السماء، وقد قال فيه القرآن: ﴿مُّطَاعٍ﴾ [التكوير: ٢١]، ولا يُطاعُ إلا مَن له الأمر، فكذلك يكون هذا في الأرض، تَهرعُ إليه الأرواحُ من كل حَدَبٍ تنسِل، فلا تجد روحاً من أرواح الموجودات العلوية والسفلية، وكذا أرواحِ المولَّدات الثلاثِ التي هي النباتُ والمعدنُ والحيوان، وكذا أرواحِ العناصر الأربع المركب منها البنية الإنسانية: التراب والماء والهواء والنار، وكذا الأخلاطِ الأربع: الصفراء والسوداء والبلغم والدم، وكذا الطبائع: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، فما من موجودٍ إلا وينجذبُ إليه انجذابَ الأشياء للمغناطيس خاصيةً، لأنه مطاعٌ، غيرَ أنه لا يفعل لِمَا أنه ﴿أَمِينٌ﴾، فهو من جملة أسمائه.

ومن جملة علومه إعطاءُ المراتبِ حقَّها، وحالةُ حلوله في حضرةٍ من الحضراتِ لا يغفل عن الآلافِ من الحضراتِ أيضاً ليكون عبدَ القوي، فهو من جملة أسمائه.

ويكون بإعطائه مقتضىٰ حضرةٍ من الحضرات في تلك اللحظة أيضاً متلبِّساً[١] بمقتضياتِ الحضراتِ الأخر وما يطلبه أدبُها، أعني: الأدبَ مع الله ومع السَفَرة في الخواطر، ومن حيثُ الملائكةُ المهيَّمون[٢]، ومع الكتبة الكرام.

---

(١) في المطبوعة: متلبس.

(٢) في المطبوعة: المهيَّمين.

ويلزمه الأدبُ مع الله علىٰ تكثيفه أكثرَ مما يلزمهم مع تلطيفهم، لأجل ذلك يكون كثيرَ العلوم، كثيرَ الآداب مع الله، كثيرَ الأدب مع المراتب الكونية، لا تطرأ عليه الغفلةُ عن الله إلا في مراتبَ تطرأ عليه الغفلةُ فيها لا يفهمها إلا أهلوها /٩/، ومن سمعها يبادر لإنكارها، ومن هذا أيضاً يُسمَّىٰ عبدَ المتين، لِمَا له من المتانة والثبات مع الله مع هذه الولوجات في عالم الأنوار، وعدمِ تزلزله وعبثِ طوارقِ التجليات به، ومن هاهنا يُسمىٰ بعبد العظيم، لأنه علىٰ عظمةٍ من الله كُوشِفَ بها، لو بدت ذرةٌ منها علىٰ العوالم لأتلفتهم.

ومع ذلك يأكل ويشرب وينكح ويعطي المراتبَ الكونية والغيبيةَ حقَّها، ومن هنا يُسمَّىٰ عبد الله، وتنبعث عنه أدبياتُ الحضراتِ بحيثُ لو قُسمت بعضُ أدبياته مع الله علىٰ الخَلْق لوسعتهم، ومن هنا يُسمّىٰ عبدَ الباعث.

وتنبجس فيه الرحماتُ الطامةُ الوُسْعية الامتنانية لا المُغِيرة، ومن هنا يُسمّىٰ عبدَ المؤمن، ويَعلمُ من الله علىٰ الأنفاس الفوائدَ والعلومَ والمواهبَ ما لا يُوجَدُ عندَ أحدٍ من أهل العصر، فلا تجدَ عندَهم إلا عباراتٍ في جواربَ سقطَتْ فيها منذ أزمانٍ ولا ترقِّيَ لهم، ومن هاهنا يُسمّىٰ عبدَ العزيز.

ويُورِثُ له ذلك من الحياء من الله ما لولا النصوصُ لقضَينا عليه بالعصمة، لأنه يرىٰ في الموجوداتِ ما لا يُرىٰ فيها، فتقومُ له عينُ المُعاوَنِ علىٰ التكاليف، بحيثُ لو لم يبعث في العالَم إلا وحدَه لأدىٰ التكاليفَ الشرعيةَ وما أهمل شيئاً منها، ومن هنا يَسمّىٰ عبدَ الحكيم، وهذا من أعظم علاماته التي لا تقبل الرشىٰ. وله علاماتٌ أعظمُها هذا، وهو يجدُه في نفسه، وقد تتحدث الموجوداتُ بذلك، ولا يُقال إنه يكون كثيرَ الحظِّ عليه، لأنا نقولُ: ذاك هو المقامُ الإلٰهي، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[النحل:٤٩]، فعمَّمَ وما خصَّص.

ثم قال: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾، ثم خصَّصَ فقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فافهم.

ومن علاماته: أن علمَه لا يُوجد عندَ غيرِه أصلاً، لا ممن عاصره ولا ممن قبلَه، ولا ممن يأتي بعدَه، لأنه حلَّ بجميعِ مقاماتهم وكُسِيَ جميعَ حُلَلِهم، واستفحلت رتبتُه بما أُنِيطَ به من العناياتِ الإلٰهية.

وله خواصٌّ أُخَر، اثنان وعشرون، تمجُّها العقولُ علىٰ عادة العلم الوَهْبي الذي هو من قسم علم الأذواق، فإن علامتَه أنه لا يُقبَلُ لأنه من عند الله، وهو فوقَ طَورِ العقل، ومن حواشيه علمُ الخَضِرِ مع موسىٰ.

ثم إنّا قلنا: إنّ الختميةَ كبرىٰ وصغرىٰ، فإن الكبرىٰ ما قدمناها، والصغرىٰ تكون مرتبةً أدونَ من الكبرىٰ، آخذةً عنها ومقتبسةً من مشكاتها، وهذه تكون في كل عصر.

فلكل عصرٍ ختمٌ /١٠/ يُختَمُ به مقاماتُ أولئك أهل العصر، جبراً لكسر قلوبهم لما انقطعت النبوّة، وهاهنا قال الحكيم بالمراتب: «علماءُ أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[(١)]، و«العلماء ورثة الأنبياء»[(٢)].

فما مثابتهم إلا بمثابة طيرِ بازيٍّ قُفِصَ في قَفَصٍ وبَلْبَلَتْ حرارتُهُ الطبيعيةُ لما نظرَ في زواوي القفص الأربع، ولم يجد فيها غيره، وآخرَ صارَ يبلبلُ ويترنم، ويغني بما يفهم منه السليمانيُّ المقام أنْ ليس ثَمَّ في تلك الحضرةِ غيرُه، ثم يأتي آخرُ وآخرُ وآخر، وهلمَّ جراً، وكلُّهم مصيبون، غيرَ أن صاحبَ الفَلَكِ المحيطِ يكون قفصُه محيطاً بالأقفاص، ومقامُه مشتملاً علىٰ المقامات، ورداؤه مشتمِلٌ

---

(١) قال الحافظ ابن حجر وتلميذه السخاوي ومن قبلهما الدميري والزركشي: لا أصلَ له، زاد بعضهم: ولا يُعرَفُ في كتابٍ معتبَر. انظر «المقاصد الحسنة» للسخاوي ص٢٨٦. وقال الحافظ محمد بن جعفر الكتاني في كتاب «العلم المحمدي» (مخطوط): «لا يصح صناعةً، ويصح كشفاً». قلت: ولمعناه شواهد صحيحة عدة.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٣٦)، والترمذي (٢٦٨٣) وغيرهما من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

به أهلُ الملاحظات، وبإعارة غُنَّةٍ لسانه رنَّمَت طيورُ المفاجآت، وعن مطارحاتِ أشعتِه انفهقَتْ مقتضياتُ الإشاراتِ والتمَدُّحات، وعن عليِّ رتبتِه انسابَتْ أهلُ المراتب والفتوحات، وبأنفاسِ توجُّهات روحانيتِه ترعرعَتْ أفانينُ أهلِ النسمات.

فلا بِدعَ في أنِ ادعاها غيرُ هذا الأكبر على هذه الشريطةِ المذكورة، فما هم إلا في صفا مَرْوَته يحجُّون، وإلا في محرابِ مسجدِ تحقيقه يتظللون، وفي فَيْء ظلال وُسْعِ علومه يتقلبون، وعن روحانيته يتلقَّون ويشاهدون، وفي مرآته يشاهدون، وبحضرته يكاشَفون.

وكم لنا من اجتماعاتٍ بهم[1] في عالم الأرواح والحضراتِ الغيبية، ونفيدهم من مسائل العلم الإلٰهي ما يقرُّون لنا به في عالم الأنوار والتخطيطات الوَهْبية في البقاع النورية، ونسألهم عن العلوم اللدنية فلا نجد جَوْرَبَهُم مملوءاً بما مُلِيء به جوربُنا، ولا عينُهم كانت تشاهدُ ما يشاهدُ فتحُنا وما يعطيه مشربُنا، ولا كلماتهم جامعةٌ ككلماتنا المنفتقة عن الحضرة الأحمدية، ولا استغراقُهم في الحضراتِ الذاتيةِ كاستغراقنا.

ولنا وُسْعٌ نكاشِفُ به في قربه من الرقائق الجِبْرَئيلية من وُسْعِ العيسوية، من وجه الإبراهيمية، من وجه المحمدية، من وجه العلوية، من وجه الصديقية، من وجه الآدمية، من وجه افتضَّ الأبكار العندية، ونجتاز الحضراتِ المجهولةَ التلوينية، وننزل المراتبَ في نفسِها بسبب كِفاحِيَّتِنا بأسرار الشريعة التي منها تنسابُ الروحُ للعملِ بالتكاليف الشرعية، على نهج أهلِ الحفظِ من وجه، وأهل العصمةِ من وجه.

ونكاشَفُ بما يشابه عالَمَ الجزاء في عالَمِ حضرةِ العمل، ومن هاهنا يُعلَمُ أن كل مرتبةٍ في العلم بالله دونَ العلمِ بالأمور الكونية، فإنها رتبةُ القطب.

---

(١) هنا يشير المصنف ـ رضي الله عنه ـ لنفسه بالختمية الكبرى.

[بعض العلوم المُضَمَّنة فيما مضى]

/١١/ ولما قصصنا عليك ما لم يكن بالبال قصُّهُ، آنَ أن نذكرَ ما يتضمن هذا الكلامُ من العلوم:

ـ منها: علمُ ما تقتضيه الطبائعُ من اختلافاتِ مقتضياتها، فيعامِلُ كلَّ أحدٍ بما تقتضيه طبيعتُهُ، وجُبِلَتْ عليه شاكلته، كي لا تتضرر الناسُ في نفسها، ولا يدخلَ عليها شَغَبٌ في نفسها.

ـ وعلمُ مقتضياتِ السياسة، ومن هاهنا مع ما قبلَه تفهمُ سرَّ ما بلغكَ في الأحاديث من أنه ﷺ كان يوقظُ فاطمةَ وعلياً عليهما السلام للصلاة في الليل[١]، وأخبرَ أن عائشةَ تعترضه في عرض الوسادة كالجنازة ولا يوقظها للتهجّد[٢]، وأخبرنا أنه قال لأبي بكر: «ارفع قليلاً»، ولأبي حفصٍ: «اخفض قليلاً»[٣]، وقال: «نِعْمَ الرجلُ عبدُ الله بن عمر لو كان يصلي من الليل»[٤]، وقيل في أبي بكر: «ما فاتكم أبو بكرٍ بصلاةٍ ولا بصيام، وإنما فاتكم بشيءٍ وقرَ في صدره»[٥].

وأوصىٰ أبا هريرةَ أن لا ينام حتىٰ يوتر، وبصلاة الضحىٰ وبصيام ثلاثة أيام من كل شهر لا غيرَه[٦]، وخَصَّ حذيفةَ بالسر لحقيقةٍ تطلبُها

---

(١) كما في البخاري (١١٢٧) (٤٧٢٤)، ومسلم (٧٧٥) من حديث علي عليه السلام.

(٢) كما في أحمد (٥٨٦)، ومسلم (١٣٥)، والنسائي (١٠٢:١).

(٣) الترمذي (٤٤٦)، وذلك في باب ما جاء في القراءة بالليل، وأبو حفصٍ هو سيدنا عمر بن الخطّاب رضيَ الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (١١٢٢)، ومسلمٌ (٢٤٧٩) من حديث ابن عمر رضيَ الله عنه.

(٥) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٥:٤)، من كلام بكر بن عبد الله المُزني.

(٦) أخرجه أبو داود (١٤٣٢)، والحكيم الترمذي «نوادر الأصول» (١٩٥:٣). وفيها أي «النوادر» أنه أوصىٰ ﷺ بذلك عويمراً.

طبيعتُه[١]، وأسرَّ لبعض أصحابه أذكاراً، وقال لرجلٍ استوصاه: «لا تغضب»[٢]. وقال لآخر: «ليكن لسانُكَ رَطْباً من ذكرِ الله»[٣]، ولآخرين تنوُّعاتُ حقائقَ لمَا سألوه عن أفضل الأعمال، كلٌّ وما تعطيهِ رتبتُه، بحيثُ لو لَقَّنه غيرَها لما انقاد ولَمَا انفعلَ لها.

ــ ومنه علمُ أنّ القرآنَ رسائلُ إلٰهيةٌ للخلائق، وهو علمٌ شريف.

ــ وعلمُ سرِّ تكريرِ التأيُّهِ[٤] للذين آمنوا المراتِ المتكاثرة.

ــ وعلمُ خَطِّ أهلِ هذا المشهد من آية: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝﴾ [الحجر: ٩٠-٩١]، ومنه استفهامُ حارثةَ عن حقيقة دعوىٰ الإيمان[٥]، ومنه شهادته لأبي بكرٍ وعمرَ بالإيمان في قضية البقرة[٦]، وأمر حكيم بن حزام بالتسبب[٧]، وقال لآخر: «قل الله ثم استقم»[٨]، وقال لآخر: «اعقلها وتوكل»[٩]، ولآخرَ في ثمرةٍ طلبها: «ولو لم تأتها لأتتك»[١٠].

---

(١) انظر البخاري (٣٧٤٢، ٣٧٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة رضيَ الله عنه.

(٣) أحمد (٤: ١٩٠)، والترمذي (٢٣٢٩) وقال حديث غريب من هذا الوجه، وابن ماجه (٣٧٩٣) بلفظ: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله تعالىٰ» عن عبد الله بن بسر رضيَ الله عنه.

(٤) التأيُّه: قوله تعالىٰ: (يا أيها).

(٥) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤: ٧٤).

(٦) أخرجه البخاري (٣٦٦٣)، ومسلمٌ (٢٣٨٨) من حديث عن أبي هريرة رضيَ الله عنه.

(٧) أخرجه الترمذي (١٢٥٧)، وأبو داود (٣٣٨٦) من حديث حكيم بن حزام رضيَ الله عنه.

(٨) أخرجه أحمد (٣: ٤١٣، ٤: ٣٨٥)، ومسلم (الإيمان: ٦٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضيَ الله عنه.

(٩) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) عن أنس رض الله عنه.

(١٠) أخرجه ابن حبان (٣٢٢٩)، والطبراني، قال الهيثمي في «المجمع» (٤: ٧١): «ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد وهو ثقة مأمون».

ونهىٰ عبدَ الله بن عمرو عن سرد الصوم[١]، وأقرَّ عليه حمزةَ بن عمرو الأسلمي[٢]، وغير هذا من تشعُّباتِ ترتيباته، ولْتُتَطَلَّبْ في كتب الأحاديث، فإنَّ علمَ الحديث صار كأنه يُنسَخُ اليومَ بالأهواء، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله. وهذا أحسنُ شيءٍ تُحمَلُ عليه مواردُ الأحوال وتشعُّباتُ طرائقها.

ـ وعلمُ سبب اختلاف القوابل في العالم.

ـ وعلمُ التنزلات الإلٰهية للعالم، وإن كان القولُ به لا يُعَضِّدُهُ التحقيقُ في الجملة، لكن من هاهنا علىٰ القول به انتشأ.

ـ وعلمُ الاختلاف الواقع في الكون ما سببه.

ـ وعلمُ ما يُحمَد منه إذا استند لأصلٍ ميزاني، وما يُذَمُّ منه إن أُبخِسَ الميزانُ فيه أو طغىٰ فيه، وهو علمٌ شريف.

ـ وعلمُ /١٢/ ابتناء القول بالمصالح المرسلة الذي قال بها بعضُ العلماء علىٰ هذا الأصل،

ـ وعلمُ انتشاء القول بسد الذرائع من هذا العلم.

ـ ومنه علمُ كون البلاءِ مُوكَلاً بالمنطق[٣] من أي حقيقةٍ جاءه هذا التوكيل، ولا يصح إفشاؤه.

ـ وعلمُ اعتدال الطبائع هل يمكن أم لا، وما وجهه إن صح، مع أنَّ العالَمَ مبنيٌ علىٰ التشاجر، وعلىٰ صحته ما وجهه حتىٰ قَبِلَتْهُ الكائنات؟! ومنه تعلمُ سرَّ

---

(١) كما أخرجه البخاري (١١٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضيَ الله عنهما.

(٢) أقر رسول الله ﷺ حمزة بن عمرو الأسلمي علىٰ الصوم في السفر كما في: أبي داود: الصيام (٤٢)، والحاكم في «المستدرك» (١:٤٣٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١:١٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٣:١٧٧).

(٣) وهو متنُ حديثٍ أخرجه وكيعٌ في «الزهد» (٣١٠)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٨٦) بلفظ «البلاء موكل بالقول»، وله طرقٌ كثيرة كلها ضعيفة. لكن معناه صحيحٌ.

قولِ أنس خادمِ رسول الله ﷺ: «خَدَمْتُ رسولَ الله عشرَ سنين فما قال لي لشيءٍ فعلتُه: لِمَ فعلتَه، ولا لشيءٍ تركتُه: لم تركتَه»[١].

ـ وعلمُ أن ذلك مقتبَسٌ من مشكاة اعتدال مظهرية الاسم: «الله»، وقد دل علىٰ ذلك في قوله: «ولكن يقول: ما شاء الله كان»[٢]، فأَعظِمْ برتبةٍ محمّديةٍ جامعةٍ اعتدلَتْ طبائعُها وتكافأت، ولم يُجعَل لطبيعةٍ من الطبائع هيمنةٌ عليه.

ومنه تعلمُ سرَّ كونه ﷺ لم يُخلَق من محل خط الاستواء في العالم، وإنما خُلِقَ من الحجاز مع أنه شديد الحرارة، وهل يقايِسُ هذا أميتَه ﷺ مع كون الذي أتىٰ به كان معجزاً أعجزَ به سَحَرة البيان من الفصحاء ؟

ـ ومنه علمُ الاستحسان الذي قال به أبو حنيفة ـ وهو دليلٌ ينقدح في نفس المجتهد تقصُرُ عنه عبارته ـ علىٰ أي مدرجة انتشأ. ومنه مسألةُ التخصيص في علم أصول الفقه: علىٰ أي مسلكٍ من الحقائق الإلٰهية ابتنىٰ.

ـ ومنه علمُ المكر الخفي ودوائره ومساقطه، فإن الحقَّ جلّت عظمتُه ما أعلمَ ذلك الختمَ الذي يترنم في زواويه القَفْصية أنّ ثَمَّ دوائرَ محيطةً به في نفس قفصه، ودوائرَ محتضِنةً معاني ترنماتِه، ضرورةَ أن التجلِّيَ لا يتكرر، ولا يُعاد التجلِّي به لا للمتجلىٰ عليه به ولا لغيره، ولا بدَّ من التجلِّي أيضاً، ولا بد أن يكون أعلىٰ من الذي قبلَه، لأنه ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

والمكرُ المذكور هاهنا هو المُعَنْوَنُ عنه قبلَ هذا التعبير بأن: التجلِّياتِ تأتي متشابهةً كنعيمِ أهل الجنة، وذاك من المكر الخفي في التجلِّي، حتىٰ لا يعلم ما وراءَ التجلِّي الذي تجلىٰ به عليه، وما لم يدخل حضرةَ عِلْمِيَّتِهِ حتىٰ يظن الناسُ أنه علىٰ رتبةٍ لا يُشَقُّ غبارها، ولو فَصَّلَ هو فيما عبَّرَ لَمَا وقعَ الناسُ في حَيْصَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، (٢٧٦٨)، (٦٩١١)، ومسلمٌ (٢٣٠٩).

(٢) انظر المصدر السابق.

بَيْص، ولكن التجلِّيَ لم يكن يأتيه مفصَّلاً فلم يفصِّل للناس، وإنما أُجْمِلَ له التجلِّي فأجمل لعائلةِ المستمعين.

والسرُّ في هذا المكر الإلٰهي مما لا يُعلم، لأن العلمَ بالقَدَرِ ممنوعٌ علمُه في الدنيا، والبرزخ، والقيامة، بخلاف سِرِّ /١٣/ القدر فإنما مُنِعُوا من إفشائه.

وهذا من جملة علومٍ ضاقَ بها ذَرْعاً العلماءُ بالله، ولا وجدوا عنها مناصاً، ومن هاهنا ذاقوا في الجواهر ما ذاقته الأشعرية في الأعراض فقالوا: إن العَرَض لا يبقىٰ زمانين. فلا تجد معذَّباً مثلَهم في الأرض والسماء، وفي القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف:٩]، وفي الحديث: «شيبتني هودٌ وأخواتُها»[١]، والذي شيّبه فيها ما دلت عليه آيةُ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٢]، والاستقامة إما في ظاهر العلم، وإما في باطن علم الله.

فأما في ظاهر علم الله: فقد وفّىٰ إبراهيمُ عليه السلام[٢]، فأحرىٰ روحُ الخلائق سيدُنا محمدٌ ﷺ.

ولما كان باطنُ علمِ الله لا يَحكمُ علىٰ ظاهرِ علمِه كان هذا سببَ شَيبه، وسببَ قوله: «لو تعلمون ما أعلمُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولخرجتم تجأرون إلىٰ الله في الصُّعُدات تلدمون[٣] وجوهَكم بالحجارة»[٤].

وكم رُشَّتْ علينا رَشَاشَاتٌ من هذا العلم، ففارقنا أهلَنا وأوطانَنا ومُتمنَّياتنا، ولم ندرك قوتَه ﷺ حتىٰ لم يخرج بين أهله، وإن لاحظتَ كونَه حُبِّبَ إليه الخلاء ـ فكان يخلو بغار حراء ـ قُلْ إنه تغرَّبَ أيضاً.

---

(١) ذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» ص٢٢٤، من مرسل أبي جحيفة التابعي، وبمعناه أخرجه الترمذي (٣٢٩٣)، وقال: حسن صحيح، والحاكم (٢:٤٧٦) وصححه.

(٢) لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النجم: ٣٧].

(٣) تلدمون: أي تلطمون.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٨٥) ومواضع أخرى من حديث أنس وأبي هريرة رضيَ الله عنهما، من غير زيادة: «ولخرجتم..».

ولمّا كان هذا العلمُ يعطي هذه القواصمَ والفواصمَ والنكباتِ من علم التجلِّيات هكذا، كان يقولُ لما حضرته الوفاة: «اللهمَّ الرفيقَ الأعلىٰ»[(١)]، تغرُّباً عن مقتضىٰ التجلِّيات التكليفية كما غرّبته عنه فانتقل لبساط التعريف، وما فارق أيضاً مِن يومٍ كان في دار العلم.

وبهذا العلم قَوِيَ علىٰ مكابداتِ الخَلْق، مع مكابداتِ التجليات، مع مكابداتِ التكاليفِ المكلَّف بها في نفسه، مع مكابداتِ تنزُّلِهِ للعقولِ الضِعافِ كي تَنْفُذَ مقتضياتُ الإرادةِ من حكمةِ بعثته، فيقتدرَ علىٰ التلقِّي منه.

فمن هاهنا، أي العلمُ بهذه الفتوح الأربعة التي أوتيها ﷺ في صورةِ تعبيرنا عنها بالمكابدات، يتحقَّقُ المحقِّقُ الكامل سرَّ تعظيمِ الله أخلاقَه ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، فافهم أخي فإنه من الحُورِ المقصُوراتِ في الخيام.

ومن العلم المتقدِّم قولُ القرآن: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

ولمّا رسخَتْ عروقُ العلماء بالله في هذا الموطن، أيِسُوا من وُجْدان الراحة، وتحققوا بأن خروجَهم من العدم إلىٰ الوجود لم يكن عن تَجَلٍّ جمالي، وإنما كان عن تَجَلٍّ قهريٍ جلاليٍ كماليٍ اختياريٍ ابتلائي، وقد أشارَ لهذا في القرآن: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤]، فهي مسألةٌ شريفةٌ تترتب عليها مسائلُ إلٰهيةٌ /١٤/ يُحتاجُ إليها في علم التكاليف الشرعية، وينبني عليها علمُ الرياضة، فإنه لا يُبْتَنَىٰ في الحقيقة إلا علىٰ هذه الحقيقة، وغير هذا مما ضاقَ عنه الوقت.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٨) وغيره من حديث عائشة رضيَ الله عنها.

[لا بد في العالم من التجلي، وأن التجلي الثاني أكبر من الأول]

ولما علمت هذا وأحطت به خبراً، تعلم أن العالم لا بد فيه من التجلِّي، ولا بد أن يكون التجلِّي الثاني أكبرَ من الأول، لِمَا أنّ الأسماءَ في نفسِها ذاتُ ترقٍّ، لا ذواتُ تَدَلٍّ، ولذلك ترىٰ أعينُ الموجوداتِ في النمو والتكاثر بما لم يكن في الصدر المتقدم إلىٰ أن وردَ النصُّ بانقطاع النبوّة فسُدَّ ذلك الباب، وأُبقِيَت الولايةُ لا تنقطع.

ومنه تعلم أن الآخِرَ في العصر أفضلُ ممّن تقدّمه، لأن الحضراتِ الأسمائيةَ في الترقي، فلا تأتي إلا بالأعظمِ والأجمعِ والأشرفِ والأكمل، طوبىٰ لمن أدركَ المائة الرابعة بعد الألف[1].

ومن هذه الحقيقة قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، ثم رُدَّ ذلك إلىٰ الاسم: «الله»، الشاملِ لأعالي الوجود وأسافله، ورُدَّ الأمرُ إلىٰ القدرة، وهي تتعلق بالممكن.

ومن هاهنا حُكِّمَتْ أَسِنَّةُ العقول في قَولة: «ليس في الإمكان أبدع مما كان» ظناً منهم أنه يقول بعجزِ القدرة، وحاشا لله، والإتيانُ بالأحسن والأفضل ممكنٌ فتتعلق به القدرة، وإذا قال المبيِّنُ عن الله في الصحابة الواردِ فيهم النصُّ بالتفضيل عموماً وخصوصاً قال بعدُ: «والذي نفسي بيده ليدركن المسيحُ حوارِيَّ من أمتي هم خيرٌ منكم، للعامل منهم أجرُ خمسين من يعمل بمثل عملكم»[2]

---

(١) نسب المؤلف ـ رضي الله عنه ـ هذه المقولة في عدة من مؤلفاته إلىٰ نبي الله دانيال عليه السلام.

(٢) لم أهتد لصدره، إنما أخرج عجزه البخاري في «خلق أفعال العباد» (١٥٥)، وأبو داود (٤٣٤١) وفيه: «للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله»، وزادني غيره: قال: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟، قال: «خمسين منكم». وانظر الترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤).

فكيف بمن لم يَرِدْ فيه نصٌ وإنما أُبقِيَ الأمر محالاً علىٰ القُدرة كما في آية: ﴿۞ مَا نَنسَخْ﴾ [البقرة: ١٠٦]!

واتلُ أيضاً قولَه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٨]، مع أنه وردَ في الصحابة: «لو أنفقَ أحدُكم مثلَ أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه»[١]، ومع ذلك تذكَّر ما تقتضيه القدرة، بل ما اقتضَتْه وقدَّرَتْهُ، فقال: «وددتُ أنْ لو رأيتُ إخواني»، وبكىٰ شَوقاً إليهم، فقالوا: ألسنا إخوانك؟! قال: «لا، ولكنكم أصحابي»[٢].

ومن هاهنا يُعلَم أن كلَّ مَن سلكَ مقاماً من المقامات، وخصوصاً المقامات العليا، والمكاناتِ الزلفىٰ، والرتبَ القَعْساء[٣] فإنه لا يأتي من يطأ قدمَهُ رأساً، ولا يكون مثلُه في ذاك المقام رأساً، لِمَا أن المِثْلِيَّةَ تقتضي عَوْدَ التجلِّي الذي تجلىٰ به عن المماثل، والفرضُ أنْ ليسَ في الأمر تكرارٌ، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ [ق: ١٥].

ومنه يُعلَم علمُ: عدم التماثل، وعليه فلا يأتي مثلُ مَن تقدم، بل يكون نائباً عنه، أو خليفةً عنه، لا، لا لِمَا تعطيه الحقائق، ومن هاهنا تعلمُ المانعَ من علم المناسبة.

وأما مَن شَرَطَ المناسبةَ في الأشياء فلم يُصِبْ، لأن المناسبةَ إشعارٌ بمساواةٍ /١٥/ في وصفٍ هو موجبُ الارتباط والعلقة بين المتصاحبين، مع أنْ لا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٠) عن أبي هريرة رضيَ الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣:١٥٥) عن أنس رضيَ الله عنه، وأبو يعلىٰ (٣٣٩٠) دون ذكر البكاء، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٦٦٩٧): «وفي رجال أبي يعلىٰ: محتسب أبو عائذ، وثقة ابن حبان، وضعفه ابن عدي وبقية رجال أبي يعلىٰ رجال الصحيح غير الفضل بن الصباح، وهو ثقة، وفي إسناد أحمد: جسر، وهو ضعيف، ورواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير محتسب».

(٣) أي العالية العزيزة الثابتة.

مساواةَ، فلا مناسبةَ، وفي القرآن: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: ٦١]، فمن قال بعلم المناسبة فما صدَّق اللهَ في أننا بين نواشئه الاختصاصية نتقلَّبُ ولا نعلمها، فكأنه هو يقول: إنه عَلِمَها!

كذلك علمُ ملاحظة اصطحاب المتصاحبَين، وهو غالطٌ من وجوه، وقد سهىٰ في هذا أيضاً أبو حامدٍ علىٰ شُفُوف رتبته في العلم، فقال بالمناسبات، وفاته هذا العلم، أعني: النواشىءَ الاختصاصية: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وعليه: فكل مَن درجَ علىٰ مقامٍ فلا يأتي إلا مَن هو أَفْيَحُ منه وأرجحُ وأنمىٰ وأبرك، فلا يأتي بعدَ ذلك الختمِ الأكبرِ إلا عيسىٰ عليه السلام.

[العلامة الكبرىٰ للختم الأكبر]

ثم إنه تحتم أن نختمَ المقامَ بعلامةٍ كبرىٰ من علامة هذا الختم من إحدىٰ علاماته المحالِ عليها قبلُ، وهي كالأم لكمالاته، فلا شرفَ له فوقَها، إلاَّ أن يكون الترقي فيها:

فاعلم أنا قدّمنا أن القطبَ إنما هو بالنسبة لهذه الرتبة ككاتب الديوانة، فهو من وراء حجاب، بخلاف هذا الختم، فيُكْشَفُ له عن الذات باعتبار صُرَافَةِ الصُّرافة من الذات للذات بالذات للذات، فينمحق تحتَ سُرادقاتِ كبريائها، ويتجدَّدُ عليه الاضمحلالُ عندَ بدوِّ سَلْطنة هيمنَتِها، ولنقُصَّ عليك بعضَ التبيان: فإنه يسافرُ تدلِّياً من:

١ ـ مقام أَثَرَاتِ نزول الرب في الثلث الأخير من الليل.

٢ ـ ثم يسافر إلىٰ كمال تنوية استيفاء التحقُّقِ بالأسماء الذاتية والنعوت الصِّفاتية والأوصاف الأفعالية، فيصهرها في عنوان الإجمال والتفصيل، ويتدرَّعُ بالهَيبة، ويُتَوَّجُ بالعظمة.

٣ ـ ثم يسافر إلىٰ الأمهات فيعرفها بالذات.

٤ ـ ثم يسافر إلىٰ مقام: مفاتيح الغيب، يَسْبَحُ في فلكها ويَعْلَمُ مقتضياتها علىٰ ما هي عليه.

٥ ـ ثم يسافر إلىٰ مقام: البحتية الساذِجة، فيكون كالهَيُولىٰ قابلٌ لكل تَجَلٍّ من المعاني والصور.

٦ ـ ثم يسافر إلىٰ مقام: جَمْعِ الجَمْع.

٧ ـ ثم يُلقىٰ في ساحل الفروق الثنوية، آخذاً بالله، ومانعاً بالله، ومعطياً بالله، وزاجراً بالله، وراحماً بالله، فامتطاها فتنشأت له أجسامٌ نورانيةٌ غيرُ الأجسام الطبيعية.

وهذا العلم، وهذه العلامة من إحدىٰ فروقٍ بين الغوث والختم.

واعلم أخي أنه إذا وصل لهذه المكنة، فتصير رتبتُه في العالم رتبةَ المأموم مع الإمام في الصلاة، فتراه مُغْشَوْشِباً في أرض العبودية، آخذاً بالحظ الأوفر منها الذي لم يُعْطَهُ أحدٌ من أهل عصره، وراثةً محمدية، إلىٰ أن يكون هو العبدَ المحضَ، كما كان في عالم الحرية، وليست عبوديةً كعبودية الأفراد، أو الأقطاب /١٦/ ، أو أهل الصديقية، أو أهل الشهادية، لا، لا بل عبوديةٌ أوسعَ من كل رتبةٍ كما أن حريته أفسحُ من كل رتبة، فكان صاحبَ عُبُودَة وعُبودِيَة وعِبَادة.

ولأجل هذا قلنا فيه إنه كالمأموم مع الإمام، ولا مِرْيَةَ أنّ المأمومَ ليس له من الأمر شيءٌ مع الإمام، ومقامُه في هذا المقام من القرآن: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦]، وحالُه حالُ مَن له كل شيءٍ وليس له من الأمر شيءٌ.

فلأجل ذلك يزهدون في الخوارق الكونية، ويؤثرون عليها صلاةَ ركعتين لعلمهم بما تقتضيه منهم شؤونُ الربوبية، وعلمهم بما خُلِقُوا لأجله، فيقولون: نحن قلبُ العالم وهو قلبُنا، وشرَفُنا به، وشَرَفُه بنا.

ولكن أين مَن أنا منه وهو مني ممن أنا منه وليس هو مني، كما لا تجعل من هو مني أنا منه، فكانوا خلافاً علىٰ الحقيقة، وتراهم يُسَفِّهُون آراءَ من يميلُ للأثَرات الكونية، ويُجهِّلُونهم، ويقولون إنهم عُمْيٌ بلهٌ غُلف، ويقولون: إن الكرامةَ التي لا تُوازىٰ: ما أقيموا هم فيه من كون تنفُّسٍ من أنفاسهم يقومُ مقامَ عبادةِ الثقلين، ولو قُدِّرَ أنّ جميعَ العالَمِ غَفَل عن الله وذكرَ مَن هو علىٰ هذا النمط، قامَ ذكرُه مقامَ ذكر جميعهم أنْ لو ذكروا، بل لو فُرِّقَ عليهم لما عُدُّوا من الغافلين.

فهذه الكرامةُ التي لا يقدر عليها كلُّ أحد، ولا يَتَسَوَّرُ محرابَها كلُّ متنطِّع.

فهذه علاماتٌ ثانيةٌ أيضاً من أعظم علاماته كنتُ في إبرازها كالمجبور بعدَ ما كنا اكتتمناها، وقد ذكرتُ قبلَها أخرىٰ أحفلَ منها، كما ذكرتُ أخرىٰ أفيحَ منها وأجمل، والله ذو الفضل العظيم.

كما ذكرتُ أخرىٰ أمثلَ منها وأرشحَ، كما ذكرتُ قبلَها علامةً أخرىٰ أنصَعَ وأكملَ، بيده الخيرُ وهو علىٰ كل شيء قدير.

[العلوم التي انضم عليها هذا المحل]

وقد انضم هذا المحلُ علىٰ عدة علومٍ أيضاً، منها:

ـ علمُ الأعالي والأداني،

ـ وعلمُ التشابه في التجلِّي، وليس عينَ الذي قبلَه، بل غيره، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ مع أنـه لا مثلَ في العالم، بعدَ قوله: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فبان أن التجلِّيَ علىٰ نوعين: نوعٌ فيه التشابهُ مع ما قبلَه أو الحاضر، ونوعٌ صِرْفٌ لا شُفُوف فيه، وعلىٰ الأول يُفهَمُ قولُ القرآن: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾، وعلىٰ الثاني يُفهم: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾، تأمل.

ـ وعلمُ الأسفار،

ـ وعلمُ مناهل السِفْر العَذْبة،

ـ وعلمُ المناهل التي يُخصُّ بها،

ـ وعلمُ ما يُعينُ على الإدلاجِ في السفر،

ـ وعلمُ الأسبابِ التي تعوق عن السفر،

ـ وعلمُ السفرِ الذي يلحق صاحبَه، والسفرِ الذي لا يلحق، فإن صاحبَ الظل لا يُلحَقُ ظلُّه . . . . . .[1].

ـ وعلمُ ما ينبغي أن يُعلَمَ /١٧/ ولا يُجهَل،

ـ وعلمُ ما لا يؤبَهُ بالجهل به،

ـ وعلمُ ما يدخل تحتَ تحتِ القدرة الحادثة وما لا،

ـ وعلمُ ما لا يصح أن تُلحَقَ به المَذامُّ في العالم، ولِمَ لا يصح ذلك،

ـ وعلمُ ما هو علمٌ وليس بعلم،

ـ وعلمُ ما هو جهلٌ وليس بجهل،

ـ وعلمُ التناكُحِ للتناسل والتناكُحِ لا للتناسل، ومَنْ الأرفعُ منها، وعدمُ[2] مطلوبيةِ الثناءِ في أوقاتٍ خاصةٍ دونَ غيرها،

ـ وعلمُ الاكتفاء منها بقدرٍ معلومٍ في بعض الأحيان، مع أن الأزمنةَ والحالاتِ تطلبُ ذلك،

ـ وعلمُ الاعتناء بالنشأة الإنسانية مع أنها إنما خُلِقَت في كَبَدٍ وتعبٍ وشقاء، وهلاّ لم يَعتَدَّ بها لما خلقت لذلك.

ـ وعلمُ التفاضل وكيف صح مع اتحاد الأسماء في المدلول،

ـ وعلمُ الفرقِ بين الرياضة الإلٰهية والرياضة الخلقية،

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) كذا في المطبوعة، وربما هي: وعلم.

ـ وعلمُ الحاملِ للعلماء بالله إن استظهروا في كلماتهم بما تشبه أن لا تكون ملتئمةً مع أنه يُنافي رعايةَ انتساق الكلمات وأساليبِ التفانين، فإنهم عندَ الكتابة بحسب ما يُلقي عليهم مَلَكُ الإلهام، ومَلَكُ الإلهام أعرفُ بقِباب الحروف ومنازلها ومرادها، وعملتها وسدانتها وحُجَّابها وسلاطينها وخُلاَّفها، فكيف يُلقي ما ليس بملتئم، إنما المرتَسِمةُ[١] لما وقفوا مع ظواهر الألفاظ ولا رائحةَ مِن علم الوَهْب اللدني: تقفَّصوا، فانحجبوا، فوقفوا، فأساؤا الظنون.

فمن علومهم مِن العلم الذي هو كهيئةِ المكنون ولا يعلمه إلا العلماءُ بالله كما في الحديث الصحيح عندَ أهل الكشف: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا تكلموا به أنكره أهلُ الغِرّة بالله»[٢].

ألا ترىٰ لقوله تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾[البقرة: ٢٣٨]، فإنها جاءت بين آيتي نكاح، وإنهم يظنون أن لا مناسبةَ بينهما، مع أن المناسبةَ ثمةَ من العلم السري، فثم مناسبةَ بين الصلاةِ وما قبلَها كالذي بعدَها، فافهم.

وأي مناسبةٍ بين كون الباء من البسملة متعلقةً بمحذوف مع كون بعض العارفين أملىٰ فيها السنين المتطاولة، وهل ليس ثَمَّ ارتباطٌ بين الباء والسين والميم؟! بل والكلماتِ الأربع؟!.

ولكن مَن لم يطَّلع عليها قال: إن «اسمَ» زائدةٌ، علىٰ مذهب الكوفيين، مستدلاً بقول /١٨/ :

إلىٰ الحَوْلِ ثُم اسمُ السلامِ عليكُما ومن يَبكِ حَولاً كاملاً فقد اعتذَر[٣]

---

(١) المقصود: أهل الرسوم والظواهر.

(٢) ذكره في «الترغيب والترهيب» (١: ١٠٣)، والسيوطي في «اللآلي المصنوعة» (١: ١١٥).

(٣) انظر تفسير الإمام ابن عادل عمر بن علي الحنبلي (١: ١٢٥).





النفائس الكتانية

١١

التّائِيّـَةُ الكتانية

نظمُ الشيخ الأكبر

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهد بفاس سنةَ ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلىٰ الله علىٰ سيّدنا محمّدٍ وآله وسلم

التّائيّــةُ الكتّانيّــة

سقتْني بثغر الوَصْل قهوةَ حُسْنِها — مُشَعْشَعَةً دارَتْ بـألحـان نشـأتـي
فيا ساقياً مهلاً، فما رَوِيَ الحشا — أَدِرْها علىٰ سرِّي بحاناتِ حضرةِ
سَكِرْتُ؛ ولكنْ مِن مُحَيّا جمالها — فطلعتُها سُكْرِي ككـاسـاتِ خمـرةِ
وشاهدتُ معنى الحسنِ مِن بعدِ ما استوتْ — بعـرشـي، فصـرتُ العيـنَ مِـن بعـدِ كثـرةِ
هنـاك انمحى عـن فَرْقِ نقطـةِ غينـه — وصِرْتُ وراءَ الجمعِ مِن جمعِ شِكْلَةِ
دَنَـتْ، فتـدلـتْ فـي مهـامِـه ذاتِهـا — لِـذاتٍ لهـا ذاتٌ إليهـا تَـدَلَّـتِ
سجـدتُ لهـا عنـد التّـداني مليـا — بمحرابِ مَجلى الجمعِ من بعدِ حَيْرةِ
وغِبتُ بها عني، وصرتُ وراءَ ما — يشـاهَـدُ مـن حُسْـنٍ بكـلِّ كُلِيَّـتي
وأبصـرَهـا لَحْظي، و ذلك لَحْظُهـا — فكنـتُ بهـا منهـا بصيـراً بجملتـي
وثَـمَّ وراءَ الحُسـنِ معنـى شَهِـدْتُـه — بِمَهْمَهِ غيبِ القُدْسِ في طَيِّ حُلَّةِ

❋ ❋ ❋

سمعتُ الندا من قاب قوسين: «مرحبا — وأهـلا بمعشـوقـي لسـر هُـوِيَّـتـي»
غـريـبٌ أنيـسٌ عـرشَ بـدريـنِ لابـسٌ — لضدين مِن شمسينِ، لونان حُلّتي
أحـاطـتْ بكلّـي يـوم كنـتُ مليـا — بمحراب مجلى الجمع من دون سترةِ

مجـردةً عـذراءَ يَسْبـي جمـالُهـا ملثمـةً بـالعيـن، عينـي وقبلتـي
لقد ظهرتْ في الكل عيناً بكلها فما ثَمَّ إلا الكل في كل وجهة
تبدتْ بتلوينٍ به احتجبتْ، وقد تجمعـتِ الأضـدادُ فيهـا لستـرة
عشقتُ ملاح الكون من أجلها، وما رأيـتُ سـواهـا فـي الحقيقـة لبتِ
تبدّتْ مبادي الجمع من لوح جمعها بظلٍّ خطوطِ الشكل من رسم نقطة
رسومٌ بدتْ من غيبِ لوحِ بطونها إليها معاني الذات تُجلَىٰ بصورة
مطلسمـةً تبـدو علـى عهـدِ كنـزهـا بلونِ «الأنا» في «الهُوَ» بل كل صبغة
«هَيُولى» هباء الغين من جوهرِ العمى فمنيّ تبدّى الكل من بسطِ نقطة
تقدمتُ قبل الكل؛ إذ بي وجودُه تأخرَ بعدَ الكلّ ناسوتُ صورتي
أنا الأول الثاني، أنا الظاهر الذي بَطُنْتُ بسر الغيب من بين إخوتي
أنـا نقطـةُ البـاء المجـردةُ التـي أنـافـتْ علـى الأفـلاك يـوم دُجُنَّـة
أنا كنزُ غيبِ «الهُوَ» في غيبِ «هُوَهِ» بظلمـةِ نـورِ الـذاتِ ذاتِ هُـوِيَّتـي
تفـردتُ بـي عنّـي بِمَهْمَـهِ مَهْمَهِـي فمـا ثَـمَّ غيـري ظـاهـرٌ فـي أَنِيَّتـي
أنـا كـلُّ كـلِّ الكـلِّ طَلْسَـمُ طَلْسَـمٍ بذاتي خلتْ ذاتي بكاساتِ خمرةِ
كذاك بشكل الجنِّ في الأرض قبلَكم فصرتُ لهم رُسْلاً لتحقيق حجتي
وقد صرتُ في تكذيبِ رُسْلي موجها لهـم حججَ الإبطـالِ شـأنَ رَعِيَّتـي
كـذاك بـأطـوارِ الشيـاطيـن جئتُهـم ظهـرتُ به حُكماً لحكمـةِ حكمتي
ومـا هـذه الأشكـال منّـيَ غيّـرتْ صفاتي، ولا أبدتْ سوايَ لنسختي
تطورتُ في كلِّ المظاهرِ، وانتهتْ إلـيَّ، سَـرَتْ فـي كثـرتـي أَحَـدِيَّتـي
فليس ورا مَرمايَ مرمىً لذي هوىً تجمعتِ الأضـدادُ فـي فـردِ كثـرتـي
وكلُّ زوايا الكون أضحتْ مَقَرَّ مُذْ وسِعـتُ جمـالَ الحـق حقّـاً بجملـة

ودونك حُسْني، فاشْهَدَنْهُ مجردا — علىٰ نعتِ فرقِ الجمعِ مِن قافِ قوتي
تدلَّلْ بأنسِ البسطِ في حضرةِ المنىٰ — علىٰ عزَّةٍ تبدو بكهف هُويَّتي

* * *

فهيّا اسقِني خمرَ التّداني، وواصِلَنْ — كؤوساً بألحانٍ علىٰ عهدِ نَشْأتي
ولي زفَراتٌ أبْلَتِ الكونَ جهرةً — إذا برزتْ ضاق الفضاء لِلَوْعَتي[1]
وكمْ سَهرتْ جَفْنُ الكئيب تَرَقُّبا — لِطَيْفِ خيالِ الحسنِ مِن فَرْطِ حَيْرَة
أنوحُ على الأطلالِ كيما أرى بها — مُشابهَ جسمي في تلاشي وغربتي
أذاب فؤادي سحرُ عينِ جمالها — ولَبَّيْتُهُ كَرْهاً علىٰ عِزِّ سَطْوتي
فما في الحشىٰ مَجْلىٰ لغيرِ سهامها — ورَفضُ السِّوى فرضٌ علي لِغَيْرَتي
أغارُ عليها أنْ أراها، وإنّما — غرامي بدا في الكون يُبْدي قضيتي
إذا زَمْزَمَ الشّادي طَرِبتُ تَهَتُّكا — عليها، وفاضتْ في البَرِيَّةِ قصّتي
أُبَرِّدُ ما بالقلب لو كان نافعاً — تَوَقَّدَتِ الأضرامُ في كلِّ شعرةِ
تَلَذُّ لِيَ العُذّالُ في جَنْبِ حبّها — فما ثَمَّ إلا الحسنُ في كلِّ رتبةِ
علىٰ مثلِها أفنىٰ وأبلىٰ تحيرا — وأَرْقُصُ في الأغلال مِن فَرْطِ لَوْعَتي[2]

---

(١) ذكر الإمام الباقر رحمه الله تعالىٰ في رسالته: «بيان حقيقة حول استشهاد الشيخ محمد الكتاني»، أن الشيخ رضي الله عنه تنبأ بمحنته واستشهاده في هذه الأبيات.

(٢) ذكر الإمام الباقر رضي الله عنه في كتابه «التاج المرصع بالجوهر الفريد في ترجمة الإمام الشيخ محمد الكتاني الشهيد» أن الشيخ رضي الله عنه كان كلما قرأ هذه الأبيات في «الحضرة»، يزعق والده جبل السنة رضي الله عنه، ويقول له: اسكت؛ بل: أرقص في السبحة. فكان يجيبه: وكان قضاء الله قدراً مقدوراً، كان ذلك في الكتاب مسطوراً، ولما اعتقل ووالده وأهله عام ١٣٢٧ في سجن «أبي الخصيصات» بفاس حيث استشهد، تشوق وأهله وأتباعه للقيام بالحضرة، فقاموا ورقصوا حتىٰ غلبهم الحال وهم مقيدون بالأغلال والسلاسل، فكانت تصديقاً لتنبؤه من قبل في التائية وعمره (٢١) عاماً.

تفانَيتُ عن حِسّي وجنسي وقد غَدَتْ وُشاةُ الورىٰ تسعىٰ لشأن مَهِيَّتي
وفي غَيبةٍ[١] عنها وعن زُخْرُفاتِها تفانيتُ حتّىٰ قيلَ: ليس بِمُثْبِتِ
رُوَيْدَكُمُ، أَبْدَتْ معانِي جمالِها بخلوةِ سرِّ السِّرِّ دونَ أَنِيَّتي
خلوتُ بها رغماً علىٰ الدّهرِ بعدَما تَوهّمتُ في سرّي بوَجدي وحُرقتي
سقاني الدُّجىٰ خمراً بكأسٍ دوائبٍ علىٰ العودِ، والمزمار، في كَفِّ قَيْنَةِ
هي الشمسُ إلاّ أنَّ ذاتي سماؤُها فلَونُ الأنا فيها كلَونِ المَنِيَّةِ

❋ ❋ ❋

تَبدَّتْ علىٰ كأسٍ فكان لِلُطْفِهِ بها هو إيّاها، وإياهُ حُلَّتي
لأنّه عينُ العينِ والنقطةُ التي أُديرتْ به من قوسِ وَتْرِ هُوِيَّتي
لقد لاحَ[٢] ظِلُّ العينِ في شمس عينه فشاهدتُ عينَ العينِ في طيِّ بُردتي
أباحَ الهوى سري وكم قد كَتَمْتُهُ فصرتُ له معنىً لِلُطْفِ حقيقتي
غنيٌّ فقيرٌ مفلسٌ متهتّكٌ كئيبٌ قتيلُ الحُسنِ أقصىٰ حضيرةِ
تذللتُ مذ لاحظتُ معنى جمالها فصارتْ معاني الحَفنِ تفتِكُ جملتي
تغرّبتُ عن إلفي وكم قد تقاعدتْ بِيَ السفنُ العرجا علىٰ سطحِ لُجَّتي
وكم لعبتْ أيدي الصّبا بعقولنا فصارتْ علىٰ متنِ القفار تَفَتُّني
وكم قد تولّهنا وذُبنا صبابةً علىٰ إثرها يوم المعارك بُغْيَتي

❋ ❋ ❋

فخَلِّ جميعَ الكون واصرِمْ حبالَه وبَدِّدْ كثافاتِ العناصر صِبْغَةِ

---

(١) في بعض النسخ: وفي غُنية.
(٢) في بعض النسخ: طاح.

وحسِّنْ ظنوناً بالورىٰ لا تُسِيءْ بهمْ — فذلك أدنىٰ المَقْتِ، والباب سدَّتِ
ودونَك بحرَ الشرع فالزم سبيلَه — ولا تَعْبأَنْ بالمبطلين لشِرعةِ
ودونَك أهلَ اللهِ فالزم وِدادَهمْ — وقُرْبَتَهمْ فالباب منهم لحضرةِ
وإيّاك والتدبيرَ للرزق إنَّه — يجرُّ إلى التشكيك في سرِّ كلمةِ
وإيّاك والتّحجير للحقِّ إنَّه — تجلّى بتلوينٍ على لونِ قبضةِ
ودونَك فكرَ الوهمِ فالْغِهِ إنَّه — مُؤدٍّ إلىٰ تقييدِ عقلٍ وصورةِ
ودونَك والتجريدَ للقلبِ إنَّه — هو الغرضُ الأقصىٰ ونيلُ الطريقةِ
ودونَك والإطلاق في كلّ ما ترىٰ — فذاك مرادُ الحقّ عينُ الخليقةِ
ودونَك ذلَّ النفسِ فابْغه إنه — يُرَقِّي علىٰ الأفلاك فوقَ المجرّةِ
ودونَك حسنَ الظنِّ فهو المُنىٰ والفو — زُ والنيلُ للخيرات في كلِّ رُتْبَةِ
وإيّاك سوءَ الظنِّ بالمرء إنه — هو المقتُ في الدارين بينَ البريةِ
وإياكَ والإعطاءَ للنفسِ حقَّها — فذاك هو الإغواءُ أصلُ البَلِيَّةِ
ودونك[1] والتمزيقَ للعِرْض إنه — هو الآيةُ الكبرىٰ وسُبْلُ المَحَجَّةِ
وإياك والإكثارَ للأكل إنه — مُضِرٌّ، وللإرخاء بادٍ بشهوةِ
وإياك والإكثارَ للنوم إنه — يُقَسّي عليك القلب في كلِّ مَرَّةِ
وإياك أنْ تُبقي[2] لنفسك، والقها — علىٰ الزِّبْلِ إنْ شئتَ المعالي بسرعةِ
ودونَك وُدَّ الوُدِّ فاحفظْه إنه — علامةُ إيمانٍ ومَزْجِ المودةِ
ولا تَنْسَهُ بين الأعادي لأجل أنْ — تقومَ بأمرِ الحقِّ أمرِ الأخوةِ
ولا تَنْسَ مَن أولاكَ خيراً؛ لأنَّ ذا — طباعٌ لأحرارٍ نَأَوْا عن كثافةِ

---

(١) في المخطوطة بخط الإمام السيد محمد الباقر الكتاني: وإياك. وأثبتها كما في المطبعة الحجرية.
(٢) في بعض النسخ: أن تنعىٰ.

وإيــاكَ والأغيــارَ لا تَكْتَــرِثْ بهــا	لأنَّ شهــودَ الحــقِّ يفنــي البقيــةِ
وطَهِّـرْ قُبَيْـلَ العصرِ كُلَّـكَ مخلصـا	وأَلْـقِ وجـودَ الظـلِّ فـي مـاء وِحْـدَةِ
وكَبِّـرْ علـىٰ الأكـوانِ تكبيـرَ مَيِّـتٍ	تفانـىٰ عـن الإحسـاس لَمّـا تَجَلَّـتِ
وأَلْقِ مثالَ الظِّلِّ في صبحِ شمسِها	وصارِمْ شكوكَ العقلِ في شأنِ سجدةِ
وصَلِّ صلاةَ الجمعِ في فرقِ جَمعِه	لكي تَنْـزَوي عنك البقايا الكثيفةِ
تَصيـرُ بمـرأىً للخطـابِ ومَسْمَـعٍ	مَحَـلاً لنفـثِ الـرُّوعِ إرثِ النبـوةِ
فحَيْهَـلا بـالشُّكْـرِ فيهـاو وأَوْصِلَـنْ	ودَعْ عنك أربابَ الدّعاوي السخيفةِ[1]
وشَقِّق عليها القلبَ والثوبَ واشطحَنْ	علىٰ الكون في حاناتِ جمع الأحبة
ودونَـك والإكثـارَ للـذكـر إنَّـه	صَقِيـلٌ لمـرآةِ الفـؤادِ الصَّـدِيَـةِ
ومَزِّق ثيابَ العِزِّ في جنبِ وصلها	فـإنَّ فنـاءَ النفـسِ شـرطٌ لـوُصْلَـةِ
تَنَـزَّه عـن الشـركِ الخفـيِّ فـإنـه	تَبَـدّى علـىٰ كـلٍّ بـأحسـنِ صـورةِ

* * *

ودونَـك مَـرمـانـا، فَـرُمْـهُ لأنـه	مَحَجّتُنـا البيضـا وأَوْثَـقُ عُـرْوَةِ
طـريقتُنـا أَرْبَـتْ علىٰ الفُلْكِ تبتغي	مراتبَ فوقَ الفوقِ من بين إخوتي
سـلالتُنـا فـاقـتْ سُـلالـةَ مَـن غـدا	جليسَ بساطِ القربِ من فتحِ خُوختي
سُـلافتُنـا نَمَّـتْ علـىٰ سطـحِ حـانـةٍ	أتـتْ بـرقيـقِ الغـزلِ إرثِ النُّبـوءةِ
لِـواؤُنـا خفّـاقٌ علـىٰ كـلِّ مَـن دنـا	حضيرة قُدْسِ الفَيضِ مِن وَشْيِ حُلَّتي
أَتَينا بغَزْلِ الفتحِ من حضرةِ الغِنى	بـإذنِ رسـول الله شيخـيْ وعُمْـدَتـي
فعنْـه أخـذنـا مـا تَـدَفَّـقَ جَهْـرَةً	علـىٰ صِغَـرِ الأجـرامِ حيـنَ شبيبتـي

---

(١) في بعض النسخ: السجيفة.

نَجُرُّ ذُيولَ العِزِّ في جَنْبِ وَصْلِهِ ... على رُتْبَةٍ قَعْسا بأقصىٰ حَضِيرةِ
بدايتُنا فاقَتْ نهايةَ غيرِنا ... فليس الثُّريّا للثَّرىٰ بقرينةِ[1]
لنا الدولةُ العُلْيا لدىٰ الهَوْلِ نرتقي ... على نَهْجِ بحرِ الفضلِ قُطْبَ المَجَرَّةِ
لقد ركِبَتْ مَتْنَ السّعادةِ وانْثَنَتْ ... عن الطَّرْدِ والإبعادِ، بل كلُّ شِقْوَةِ
وحازَتْ سعاداتٍ تقاعَدَ دونَها ... أسودُ الورىٰ مِن أُسِّ مركزِ نُقْطَةِ
قد اقْتَطَفُوا مِن أَيْمَنِ القَبْضةِ التي ... حَبَتْهُمْ فحازُوا الفضلَ في كلِّ وِجْهَةِ
كذا كلُّ مارٍّ في الطَّريقِ رآهُمُ ... حَبَتْهُ سعاداتٍ ففازَ بِبُغْيَةِ
على رَغْمِ أَهْلِ البُعْدِ نالوا مَفاخِراً ... فَحَيَّهَلا بالقُرْبِ منّا لِحَضْرَةِ
ومَن هُوَ مِن أهلِ المعاركِ شَمَّنا ... فأَبْدىٰ عُشَيرَ العُشْرِ في شَأْنِ صُحْبَةِ
ومَن هو مِن أهلِ المعارجِ عابَنا ... وأَنْكَرَنا، والجَهْلُ شأنُ البَرِيَّةِ
كذا كلُّ مَن وَلّىٰ بجنبِهِ مُعْرِضاً ... عن الصّدقِ والتَّصديقِ بابِ زَوِيَّتي
لنا الخوضُ في بحرِ العجائبِ جَهْرَةً ... ولسنا أُسارى الغيرِ في فتحِ عُجْمَةِ
ومَن رام مَنْحىٰ فَلْيَرُمْهُ، فعندما ... يُرَجّىٰ التَّلاقي تَنْزَوِيْ غينُ شُبْهَةِ

تمت بحمد الله تعالى[2]

---

(١) في بعض النسخ: بقرية.

(٢) انتهى ما وُجِدَ من تائيةِ الإمام أبي الفيض بن عبد الكبير الكتّانيِّ المستشهَدِ سنةَ ١٣٢٧هـ بفاس، ونقلَها سبطُ حفيدِه أبو الليثِ محمدُ حمزة بنُ عليٍّ الكَتّانِيُّ نَوَّرَهُ اللهُ مِن كتاب «الخرائد العرفانية من ديوان الحضرة الكتانية» لجدِّنا ابن المُصَنِّفِ الإمام محمد الباقر روَّحَ الله رُوحَه، والحمدُ لله ربِّ العالمين، وراجعَها أخوهُ حسين من «الجواهر الفُرقانيّة» في تخميس التّائيّةِ الكَتّانيّة» لجدِّنا الإمام محمَّد الباقر، وذلك صبيحةَ يوم الأحد ١٤١٥/٨/١٤هـ وقال: «وفَّقَني اللهُ لخدمةِ أوليائِه وسَقاني من بحرِ كُشُوفاتِهم وفتوحاتهم» آمينَ آمينَ آمين.

الفهرس التفصيلي للمحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفهرس الإجمالي للمحتويات